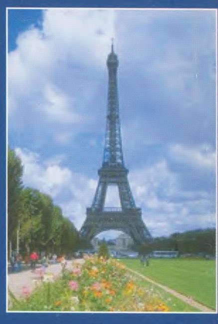
مسابقة المنهل الثقافية
قسيمة المسابقة داخل العدد

المنهل (٧٢ عاماً) حاضر يحفل بالريادة

المنهل
AL MANHAL

مجلة للآداب والعلوم والثقافة

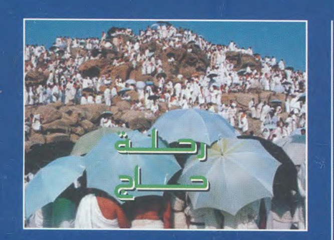
العدد (٦٠٤) المجلد (٦٨) العام [٧٢] ذو القعدة وذو الحجة ١٤٢٧ هـ - ديسمبر ٢٠٠٦م ويناير ٢٠٠٧م



أيام في فرنسا



مكانة المتلقي في أدب الجاحظ



التصوير الفني في القرآن الكريم

تقنيات الإضاءة في العمارة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم



مجلة للآداب والعلوم والثقافة

تصدر في المملكة العربية السعودية - جدة

عن دارة المنهل للصحافة والنشر المحدودة

أسسها المغفور له

عبدالقدوس القاسم الأنصاري

عام ١٣٥٥هـ / ١٩٣٧م

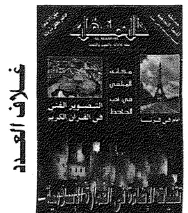
ملكها ورأس تحريرها

المغفور له

نبيه عبدالقدوس الأنصاري

من العام ١٤٠٣ هـ/ حتى ١٤٢٤ هـ

غلاف العدد



المركز الرئيسي

جدة الشرقية ص.ب ٢٩٢٥

رمز بريدي ٢١٤٦١

برقيا: المنهل

فاكس: ٦٤٢٨٨٥٣

تليفون: ٦٤٢٧٨٣١ - ٦٤٣٩٧٦٥

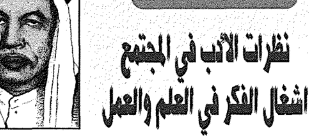
٦٤٣٢١٢٤ - ٦٤٢٥٦٨٧

الرياض: ص.ب ٢٩٠

تليفون: ٤٥٤٢٤٣٢

مما قل





نظرات الأدب في المجتمع
اشغال الفكر في العلم والعمل

□ إذا أمعنا النظر في الأسس التي تشاد عليها نهضات الأمم نجد أقواها هو اشغال الفكر في ميادين العلم والعمل.. نقرأ في علم التاريخ أن أمة من الأمم بلغت الذروة في النهوض، وأن أخرى تدهورت إلى الحضيض ونبحث في الأسباب والعلل، فلا نلبث أن نقف على أن بواعث النهوض هي في إشغال الفكر في العلم والعمل، وعلل السقوط هي في تعطيل الفكر عن الجولان في مناحي العلم والعمل.

ونتأمل في حضارات الأمم الغابرة والحاضرة، وفي الحضارات الإسلامية العربية بصفة خاصة، ونزنها بهذا الميزان الدقيق، فنجد أنها قد بلغت أوج عزها حينما انكب ابناؤها على اشغال أفكارهم في حقول العلم والعمل، وانحلت عراها الوثيقة وتحطمت بروجها المشيدة حينما ركنوا إلى تعطيل الفكر عن اشغالهم في العلم والعمل.

والنهضة الأوروبية ما الذي أوصلها إلى قمم الازدهار والتفوق غير عكوف أبنائها على تنميتها وتدعيمها وارواء حقولها بالعلم والعمل. وإننا لنلمس أثر هذا الاشغال واضحاً حينما تقارن بين طلبة العرب المسلمين في المعاهد وطلبة الأوروبيين في المعاهد. فهؤلاء يكرسون جهودهم في اثناء دراساتهم الواسعة الدقيقة المستمرة ويشغلون أفكارهم باقتطاف ثمار العلم والعمل، فسرعان ما ينجحون بتفوق، وسرعان ما يتخرج فيهم المهندس البارع، والطبيب الحاذق والمخترع المدهش والأديب النابغ، وغير ذلك.

أما الطلبة المسلمون في المعاهد فكثير منهم يصدفون بأفكارهم عن اشغالها - كما يجب - في العلم والعمل، ولهذا يتدرجون في الدراسة تدرجاً بطيئاً وحينما يقدر لبعضهم التخرج، يتخرج وتفكيره أبتر، لم يستوف المعلومات التي تؤهله لمجابهة الحياة مجابهة قوية ناجحة تجعله ينفع وينتفع ■

«عبدالقدوس الأنصاري»

(ربيع الأول ١٣٥٩هـ /مايو ١٩٤٠م)

سعر النسخة:

السعودية ١٠ ريالات - الإمارات ٨ دراهم - البحرين دينار واحد - سلطنة عُمان ٦٠٠ بيسة - قطر ٨ ريالات - الكويت ٦٠٠ فلس - الأردن ٧٥٠ فلس تونس ٨٠٠ مليم - الجزائر ٨٠ ديناراً - سوريا ٤٥ ليرة - السودان ١٥٠ ديناراً لبنان ١٠٠ ليرة - المغرب ٩ دراهم - مصر ٣٠٠ قرش - اليمن ١٠٠ ريال بريطانيا جنيه استرليني - فرنسا ١٠ فرنكات - امريكا ٣ دولارات

روح العبادة .. وتدافع الحياة

□ لا رفث، ولافسوق، ولاجدال في الحج)..

ما أروع الحج بهذه المضامين، وهذه المعاني، وهذه الغايات..

الحج، تنظيف وتزكية لنفوس المؤمنين، والحج، ارتقاء ومعراج في فضاءات السمو والتسامي..

والحج سلوك إنساني رفيع، تجاه الذات (لا رفث ولافسوق).. وتجاه الآخر (لا جدال).. لاتطاول على الآخر، ولا ازدراء ولا عُجْب..

الحج، يأتي في نهاية كل عام هجري يصطحب معه هذه المعاني السامية، لنصطحبها نحن طوال عامنا الهجري الجديد، نضيء بها دروب حياتنا..

الحج، تجمع إسلامي على أعلى المستويات، بكل اللغات واللهجات، بكل الأجناس والقبائل والألوان..

وكل هؤلاء مجموعون في منظومة واحدة مضمونها (لا رفث ولافسوق ولا جدال)..

الحج، طاقة روحية جديدة، ورسالة حكيمة تنظم حركة التدافع القائمة في كل حياتنا..

كم نتمنَّى أن نتمثل معاني العبادة في واقع الحياة.. ■

التحرير

المشرف العام
أ.د/ عبدالرحمن
الطيب الأنصاري

رئيس التحرير
المدير العام
زهير نبيه
عبدالقدوس الأنصاري

عزيزي القارئ
عزيزتي القارئة

هذه المجلة تحمل في العديد من صفحاتها آيات قرآنية كريمة وأسماء الله الحسنى فضلا عن أحاديث نبوية شريفة الرجاء المحافظة عليها.

عنوان الموقع :
WWW. al-manhalmagazine.com
البريد الإلكتروني :
E-mail : info@al-manhalmagazine.com

فقرات مستلة

** التكوين البشري يعتبر العنصر الاساسي في عمران المدينة بعد بنائها.

ص ٦

** زواج المتعة وزواج السرّ، مخالفان لمقاصد الشرع في الزواج.

ص ١٨

** أخطر ما في الكتاب أن يكون المنطق الوجداني هو أداة الإقناع في كتاب الله.

ص ٤٤

** إن ضاع منبر السلطة فمنبر العلم والأدب باقيان هناك.

ص ٧٦

** الجاحظ زعيم البيان العربي ورائده

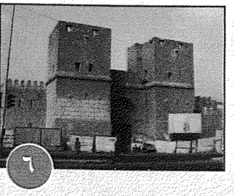
ص ٧٨.

** قلعة صلاح الدين بسوريا من أجمل وأمتن القلاع الإسلامية في الوطن العربي.

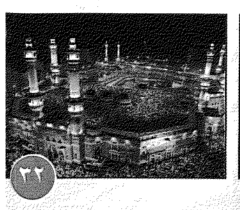
ص ٩٦

** الاحتفاظ بالأصدقاء أصعب من العثور عليهم.

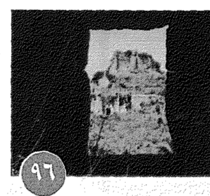
ص ١٤٤

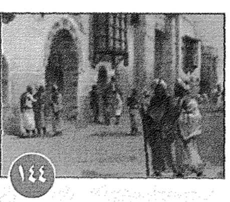


٦



٣٢


٩٦


١٤٤

الاشتراكات

جدة ت: ٦٤٣٢١٢٤
قيمة الاشتراك السنوي
للمؤسسات الحكومية ٢٥٠ ريال،
قيمة الاشتراك للأفراد ١٥٠ ريال

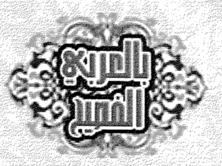
وكالات التوزيع

الشركة السعودية للتوزيع/ جدة ٨٠٠٢٤٤٠٠٧٦ - وكالة الأهرام للتوزيع/ القاهرة ٥٧٤٧٠٤٤ - الشركة التونسية للصحافة/ تونس ٣٢٢٤٩٩ - الشريفية للتوزيع/ الدار البيضاء ٤٠٠٢٢٣ - شركة الامارات للطباعة والنشر والتوزيع/ أبوظبي ٤٥٦٥٠٠ - دار الثقافة للطباعة/ الدوحة ٤١٤١٨٢ - وكالة التوزيع الأردنية/ عمان ٦٣٠١٩١ - دار اقرأ للنشر/ الخرطوم ٤١٨٠٩ - الشركة المتحدة لتوزيع الصحف والمطبوعات د.م.م/ الكويت/ ٢٤٢١٤٦٨ - مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف/ البحرين/ المنامة ٥٣٤٥٥٩.

الاعلانات:
يراجع بشأنها
الادارة ت: ٦٤٣٢١٢٤



طبع بمطابع شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر - جدة تليفون: ٦٣٩٦٠٦٠ - فاكس: ٦٣٩٤٠٩٥





التنمية الاقتصادية مفاتح النهضة



زهير نبيه عبدالقدوس الأنصاري
رئيس التحرير

□ تتهادى الأيام تباعاً تحمل الخير والعز والسرور لهذا الوطن الغالي.. فكل صبح يشرق يحمل في طياته الكثير من أوجه العطاء والبذل والسخاء من لدن خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز - حفظه الله - لمواطن هذا البلد الآمن المستأمن.. عطاءات كثيرة هدفها وغايتها خدمة الوطن والمواطنين.. تلمس بين جنباتها حب الوالد القائد وعطفه وحنوه على شعبه الكريم..

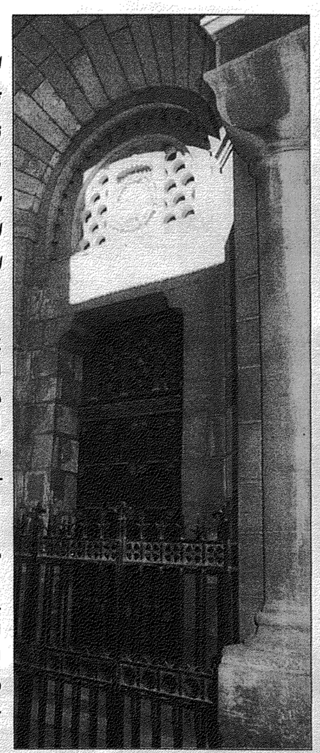
ولما كان الاقتصاد والمال هما الركيزة الأساسية في تطوير ونهوض أيَّة أمة فقد أولاهما - حفظه الله - كل اهتمامه ودقته وسعى بكل عزم الرجال المخلصين يخطط ويبني صرحاً اقتصادياً مهماً ومؤثراً.

ولما كانت المشاريع الانمائية والمدن الاقتصادية هي السبيل للوصول إلى هامات السحب (اقتصادياً) فقد حرص رعاه الله على وضع حجر الأساس لإنشاء المدن الاقتصادية في شتى ربوع المملكة.. وكذلك كانت جولاته المباركة الداخلية في مناطق المملكة تحفل بافتتاح المشاريع الاقتصادية

لأنه أيده الله شعر من خلال بصيرته الوطنية ونظرته المستقبلية، أن خير ما يفيد هذا الوطن هو الاقتصاد والصناعة والمصانع والمشاريع المنتجة.. وإن الاعتماد على النفط ووارداته أمر يستحيل الاستمرار فيه في ظل العولمة والاتفاقيات التجارية المشتركة وتنوع مصادر الطاقة وخلافها.. بل إنه أيده الله وضع نصب عينيه أن تستفيد البلاد من ارتفاع واردات النفط في تجديد وتحديث البنية الاقتصادية التحتية وكذلك العمل على توفير منشآت ومدن اقتصادية جديدة تساعد على بلوغ المرام وتعمل على استيعاب الشباب السعودي المؤهل لشغل الأعمال الإدارية والتشغيلية في هذه المنشآت والمدن وحرص على أن يتسلح الشباب السعودي بسلاح العلم والتقنية وذلك من خلال اعتماد خطة فعالة للتعليم الفني والمهني والتقني.

كل صبح يُشرق، يُشرق على هذا الوطن الغالي بإنجاز جديد، وفأل جديد، وأمل جديد.. وهذا، بعد فضل الله تعالى، يرجع لحكمة القيادة وعزمها الصادق الأمين على (صنع) أمة ووطن وهذا ما نلمسه نحن أبناء هذا الوطن الغالي، نلمسه بوضوح في كل عزم وجدّ خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز، ومن ورائه عزم وجد ومتابعة ولي عهده الأمين، وكل القائمين على أمر هذا الكيان الكبير.. وبكل الحب والوفاء فإن الشعب بأسره يبادلكم حباً بحب، ووفاءً بوفاء.. حفظكم الله ووفقكم وسدد على طريق الخير خطاكم ■

التكوين البشري للمدينة الاسلامية



تناول كثير من الباحثين موضوع نشأة المدينة الاسلامية بالدراسة من حيث تخطيطها العمراني، وسنتناولها هنا من زاوية أخرى وهي التكوين البشري، الذي يعتبر العنصر الاساسي في عمران المدينة بعد بنائها، وسنأخذ هنا مدينة القاهرة ـ التى تكونت عبر العصور ـ كمثال لهذا التكوين البشري للمدينة الاسلامية.

فقد أسست مدينة القاهرة التى نراها اليوم كرابع عاصمة للمسلمين في مصر، بعد مدينة الفسطاط ومدينة العسكر ومدينة القطائع، ومنذ نشأة مدينة الفسطاط سنة ٢١هـ/ ٦٤١م بدأ الامتداد البشري خارجها جهة الشمال الشرقي، فأصبح هناك امتداد عمراني الى جهة جبل يشكر ـ الحمراء ـ [١]، مما سهل بعد ذلك على العباسيين اقامة مدينة العسكر سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م في هذا الامتداد الشمالي الشرقي، وحينما قدم أحمد بن طولون الى مصر أسس مدينة القطائع سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م في نفس الامتداد السابق، وحينما جاء الفاطميون بنوا عاصمتهم القاهرة في نفس الامتداد سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م[٢] ، ويجب الاشارة الى انه كان هناك فراغ فاصل بين هذه المدينة والمدن الثلاثة السابقة، ملىء بحارات جديدة منذ عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي (٣٨٦ ـ ٤١١هـ/ ٩٩٦ ـ ١٠٢٠م)[٣].

ومنذ تأسيس تلك المدن الواحدة تلو الأخرى جرت العادة أن تكون كل واحدة منها سكناً خاصاً لمؤسسها وحكومته وجيشه، وسكن العامة حول تلك المدن، ومن هنا كان امتداد المدن حتى التصقت وتداخلت في بعضها البعض، وجاء صلاح الدين الأيوبي وبنى السور الكبير الذي امتد حول القاهرة وباقي العواصم السابقة سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧١م[٤] مما كون مدينة جديدة أطلق عليها مدينة «مصر القاهرة».

وقد تكونت تلك المناطق التى بين المدن من طوائف الجيش ومن النازحين الى مصر عبر العصور المختلفة، واذا تتبعنا تكوين هذه المدينة نجد أنها تبدأ من مدينة الفسطاط جنوباً وحتى نهاية مدينة القاهرة عند باب الفتوح وباب النصر شمالا، مكونة من مدينة الفسطاط ومدينة العسكر ومدينة القطائع والظاهر الجنوبي لقاهرة الفاطميين الممتد من شارع الصليبة وميدان القلعة حتى باب زويلة - الباب الجنوبي لقاهرة الفاطميين - ومنطقة غرب الخليج الممتدة الى شاطىء النيل غرباً، أما منطقتي الحسينية والريدانية في شمال القاهرة فلم تدخل في هذا السور[٥].

يحدثنا المقريزي كذلك عن حد القاهرة الشمالي خارج أسوار صلاح الدين وكيف عمر منذ العصر الفاطمي، فقال «وكانت جهة القاهرة البحرية من ظاهرها فضاء ينتهي الى بركة الجب والى منية الأصبغ التى عرفت بالخندق والى منية مطر التى تعرف بالمطرية والى عين شمس وما وراء ذلك.. الا أنه كان تجاه القاهرة بستان ريدان، ويعرف اليوم بالريدانية، وعند مصلى العيد خارج باب النصر حيث يصلى الآن على الأموات كان ينزل هناك من يسافر الى الشام، فلما كان قبل سنة خمسمائة ومات أمير الجيوش بدر الجمالي في سنة سبع وثمانين وأربعمائة بنى خارج باب النصر له تربة[٦]

د. محمد حسام الدين اسماعيل

مصـر

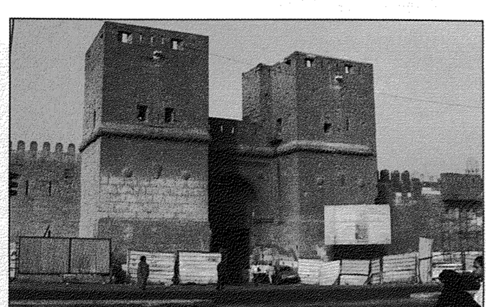
دفن فيها، وبنى أيضاً خارج باب الفتوح منظرة.. وصار أيضا فيما بين باب الفتوح والمطرية بساتين.. ثم عمرت الطائفة الحسينية بعد سنة خمسمائة خارج باب الفتوح عدة منازل اتصلت بالخندق، وصار خارج باب النصر مقبرة الى ما بعد سنة سبعمائة فعمر الناس به حتى اتصلت العمائر من باب النصر الى الريدانية وبلغت الغاية من العمارة[٧].

يستفاد من هذا النص أن امتداد القاهرة من الجهة الشمالية كان الى منطقة المطرية وعين شمس في نهاية القرن ٩هـ/ ١٥م.

ذكر المقريزي بعد ذلك أن حد القاهرة الشرقي كان يمتد «من سور القاهرة الذي فيه الآن باب البرقية والباب الجديد والباب المحروق، وتنتهي هذه الجهة الى الجبل المقطم»[٨]، ثم قال «وقد كانت هذه الجهة الشرقية عندما وضعت القاهرة فضاء فيما بين السور وبين الجبل لا بنيان فيه ألبتة، ومازال على هذا الى أن كانت الدولة التركية فقيل لهذا الفضاء الميدان الأسود وميدان القبق[٩].. فلما كانت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون عمل هذا الميدان مقبرة لأموات المسلمين، وبنيت فيه الترب الموجودة الآن[١٠].

أي أن هذه الجهة حالياً هى صحراء قايتباي التى تمتد من خلف قلعة صلاح الدين الى جبل المقطم شرقاً فالجبل الأحمر شمالا فميدان السيدة عائشة جنوباً.

حدد لنا المقريزي أيضاً الحد الغربي للقاهرة الفاطمية الذي كان يمتد من سور القاهرة الغربي الى الخليج وحتى شاطىء النيل غرباً، ومن مصر


باب النصر

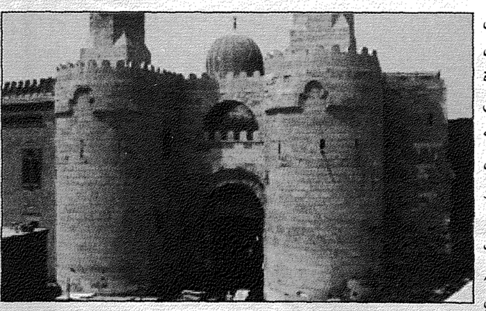
القديمة جنوباً الى شبرا شمالا، وصف الجزء الممتد من سور القاهرة الغربي الى الخليج بأنه «وبنيت على هذا الخليج مناظر، وهي منظرة اللؤلؤة ومنظرة دار الذهب ومنظرة غزالة»، ثم يتجه جنوباً في هذه الجهة حيث بركة الفيل وبركة قارون «ويشرف على بركة قارون الدور التى كانت متصلة بالعسكر ظاهر مدينة فسطاط مصر». ويحدد بعد ذلك الجهة الغربية من الخليج المتصلة بنهر النيل، فنجده يقول «وأما بر الخليج الغربي فان أوله الآن من موردة الخلفاء فيما بين خط الجامع الجديد خارج مصر وبين منشأة المهراني، وآخره أرض التاج والخمس وجوه وما بعدها من بحري القاهرة»[١١]، ويصل المقريزي في وصفه لهذه الجهة جنوباً حيث ما يعرف حالياً بمنطقة مصر القديمة، حيث منظرة السكرة وما حولها من بستان المريس، وكان هذا البستان يمتد الى الشمال حتى يصل الى منطقة ميدان رمسيس الحالية، وقد وصف المقريزي هذه المواقع فقال «ويتصل ببسان منظرة السكرة جنان الزهري، وهي من خط قناطر السباع الموجودة الآن بحذاء خط السبع سقايات الى أراضي اللوق[١٢] ويتصل بالزهري عدة بساتين الى المقس وقد صار موضع الزهري وما كان بجواره على بر الخليج من البساتين يعرف بالحكورة من أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون الى وقتنا هذا.. وكان الزهري وما بجواره من البساتين التى على بر الخليج الغربي والمقس كل ذلك مطل على النيل»[١٣].

ويصف بعد ذلك امتداد النيل غرباً حتى القرن ٨هـ/ ١٤م في هذا الجزء من القاهرة فقال «يمر النيل في غربي البساتين على الموضع الذي يعرف اليوم باللوق الى المقس فيصير المقس هو ساحل القاهرة، وتنتهي المراكب الى موضع جامع المقس.. ولم يزل الأمر على ذلك الى ما بعد سنة سبعمائة، الا أنه كان قد انحسر ماء النيل بعد الخمسمائة من سني الهجرة عن أرض بالقرب من الزهري عرفت بمنشأة الفاضل وبستان الخشاب، وهذه المنشأة اليوم يعرف بعضها بالمريس مما يلي منشأة المهراني، وانحسر أيضاً عن أرض تجاه البعل الذي في بحري القاهرة عرفت هذه الأرض بجزيرة الفيل، وما برح ماء النيل ينحسر عن شيء بعد شيء الى ما بعد سنة سبعمائة فبقيت عدة رمال فيما بين منشأة المهراني وبين جزيرة الفيل، وفيما بين المقس وساحل النيل عمر الناس فيها الأملاك والمناظر والبساتين من بعد سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، وحفر الملك الناصر محمد بن قلاوون فيها الخليج المعروف اليوم بالخليج الناصري، فصار بر الخليج الغربي بعد ذلك أضعاف ما كان أولا من أجل انطراد ماء النيل عن بر مصر الشرقي، وعرف هذا البر اليوم بعدة مواضع، وهي في الجملة خط منشأة

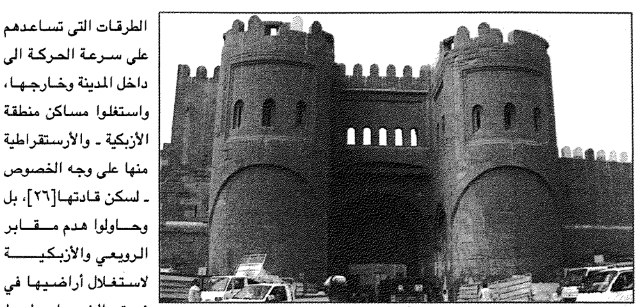
المهراني وخط المريس وخط منشأة الكتبة وخط قناطر السباع وخط ميدان السلطان وخط البركة الناصرية وخط الحكورة وخط الجامع الطيبرسي وربع بكتمر وزريبة السلطان وخط باب اللوق وقنطرة الخرق وخط بستان العدة وخط زريبة قوصون وخط حكر ابن الأثير وفم الخور وخط الخليج الناصري وخط بولاق وخط جزيرة الفيل وخط الدكة وخط المقس وخط بركة قرموط وخط أرض الطبالة وخط الجرف وأرض البعل وكوم الريش وميدان القمح وخط باب القنطرة وخط باب الشعرية وخط باب البحر وغير ذلك»[١٤].

كانت هذه امتدادات مدينة القاهرة حتى منتصف القرن ٩هـ/ ١٥م، وقد حدد لنا المقريزي حدودها كما رآها في ذلك الوقت كما يلي «وأما حد القاهرة فان طولها من قناطر السباع الى الريدانية، وعرضها من شاطيء النيل ببولاق الى الجبل الأحمر»[١٥]، أي أن حدود مدينة القاهرة وظواهرها - الطبيعية والبشرية - كانت من ميدان السيدة زينب (قناطر السباع) في الجنوب، وتمتد جهة الشمال حتى العباسية (الريدانية)، ومن الغرب حيث كان نهر النيل، وتمتد شرقاً حتى الجبل الأحمر، أي أن الحد الفاصل بين مصر والقاهرة كان الخط الممتد من القلعة الى جامع أحمد بن طولون ممتداً الى ميدان السيدة زينب الحالي، وقد ظل هذا التحديد معمولا به حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي.

وقد ظهر في النصف الثاني من القرن ٩هـ/ ١٥م وما بعده - سواء في عهد المماليك الجراكسة أو في العصر العثماني من بعده - حركة تعمير في ظواهر القاهرة وخاصة في شمالي منطقة الريدانية ومنطقة غربي الخليج على النيل، وعلى سبيل المثال لا الحصر، نجد الأمير أزبك بن ططخ الظاهري يعمر منطقة بركة الأزبكية[١٦] حوالي سنة ٨٨٠ - ٨٨٢هـ/ ٧٥ - ١٤٧٧م، حيث أنشأ قصراً له وعدة منشآت أخرى حولها وأعاد حفرها وأجرى اليها الماء من الخليج الناصري وبني حولها رصيفاً[١٧]، كما بنى الأمير يشبك بن مهدي الدوادار قبتين وعَمَّر حولهما عدة مبان، احدها بالمطرية (أثر رقم ٤، أمام قصر القبة) في سنة ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م[١٨]، والأخرى - القبة الفداوية - بالريدانية (العباسية) (أثر رقم ٥) انتهى بناؤها سنة ٨٨٤ - ٨٨٦هـ/ ٧٩ - ١٤٨١م[١٩]، كما بنى المحمدي الدمرداش قبة له في قرية الخندق قبل سنة ٩٠١هـ/ ١٤٩٦م (العباسية، وقد سجلت ضمن الآثار سنة ١٩٨٣م) في عهد السلطان قايتباي أيضاً[٢٠]، وبني حول هذه القباب عدة منشآت، حيث كان يخرج السلطان قايتباي ومن بعده من السلاطين للتنزه عند قبة يشبك بالمطرية[٢١]، كما بني الشهابي أحمد بن العيني قصراً له في القرن ٩هـ/ ١٥م في المنطقة



باب زويله



باب الفتوح

المعروفة به الى الوقت الحالي «القصر العيني»[٢٢].

أما في العصر العثماني فقد وجدنا في المصادر التاريخية عدة قصور بنيت في منطقة شمال القاهرة بالعباسية، وعلى سبيل المثال وجدنا أن ابراهيم كتخدا القازدغلي المتوفي سنة ١١٦٨هـ/ ١٧٥٥م بنى القصر الذي عند سبيل قيماز بالعادلية ، وكان مراد بك يقيم بقصر قايماز جهة العادلية[٢٣]، مما يدل على أنه كانت هناك مبان سابقة لهذا العصر في هذه الجهة، كما أنشأ محمد بك الألفي قصراً فيما بين باب النصر والدمرداش بالقرب من زاوية الدمرداش[٢٤].

وقد امتلأت كل هذه المناطق عبر العصور بسكان القاهرة التى ضاقت بهم، وكذلك بالوافدين عليها عبر العصور حتى انه عند قدوم الحملة الفرنسية الى مصر سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م[٢٥] كانت منطقة شمال القاهرة الممتدة من بركة الأزبكية جنوباً الى الحسنية الريدانية شمالا - على سبيل المثال - مليئة بالمباني السكنية لمختلف الطبقات، بل وبالمقابر التى بنيت لسكانها ، فهدموا الكثير من تلك المباني لفتح الطرقات التى تساعدهم على سرعة الحركة الى داخل المدينة وخارجها، واستغلوا مساكن منطقة الأزبكية - والأرستقراطية منها على وجه الخصوص - لسكن قادتها[٢٦]، بل وحاولوا هدم مقابر الرويعي والأزبكية لاستغلال أراضيها في فتح الشوارع لربط الميدان الذي أرادوا احلاله مكان بركة الأزبكية بباقي أجزاء مدينة القاهرة، وليس بسبب الخوف من انتشار الطاعون كما ادعوا[٢٧] ■

الهوامش :

(١) المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار «الخطط» بولاق سنة ١٨٥٤م، ج ١ ص ٢٨٦، ٢٩٨ - ٢٩٩.

(٢) د. سعاد ماهر محمد: القاهرة القديمة وأحياؤها، القاهرة سنة ١٩٦٢م، ص ٥ - ١٩؛ د. عبد الرحمن زكي: القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القائد الى الجبرتي المؤرخ، القاهرة سنة ١٩٦٩م، ص ١ - ٨؛ محمد عبد الله عنان: مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية، القاهرة سنة ١٩٦٩م، ص ١٠ - ١٨.

(٣) المقريزي : الخطط، ج ٢ ص ١١٠.

(٤) نفسه، ج ١ ص ٣٨٠.

(٥) عن هذا السور أنظر: المقريزي: الخطط ج ١ ص ٣٨٠؛ القلقشندي: (أبو العباس أحمد بن علي) صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ١٤ جزء، القاهرة ١٩١٩ - ١٩٢٢م، ج ٣ ص ٣٥٠.

(٦) أثر رقم ٥١١.

(٧) المقريزي: الخطط ج ٢ ص ١١٠ ، ١١١ ـ عن منطقة شمال القاهرة أنظر: المقريزي: الخطط ج ٢ ص ١٣٦ ـ ١٣٩.

(٨) نفسه، ج ٢ ص ١٠٨، ١٠٩.

(٩) القبق هو الهدف، وهي لعبة انتشرت في الأقطار الاسلامية اهتم بها هواة الرماية والفروسية، حسن عبد الوهاب: خانقاة فرج بن برقوق وما حولها، دراسات في الآثار الاسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة سنة ١٩٧٩م، ص ٢١٥.

(١٠) المقريزي: الخطط ج ٢ ص ١٠٩، عن ميدان القبق أنظر: المقريزي: الخطط ج ٢ ص ١١١ ـ ١١٣.

(١١) المقريزي: الخطط ج ٢ ص ١٠٩.

(١٢) كان ممتداً من منطقة جاردن سيتى الحالية الى منطقة ميدان رمسيس الآن، وقد بدأ البناء في تلك المنطقة في عهد السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري في ذي الحجة سنة ٦٦٠هـ أكتوبر ـ نوفمبر ١٢٦٢م، عندما بنى مساكن لطائفة من التتار حضروا الى مصر هاربين من هولاكو، المقريزي: الخطط ج ٢ ص ١١٧ ـ ١١٨، ١٩٨.

(١٣) المقريزي: الخطط. ج ٢ ص ١٠٩.

(١٤) المقريزي: الخطط ج ٢ ص ١٠٩ ، ١١٠. عن الجهة الغربية للقاهرة أنظر: المقريزي: الخطط ج ١ ص ٤٦٧ ـ ٤٦٩، ج ٢ ص ١١٣ ـ ١٢٦، ١٢٩، ١٦٢ ـ ١٦٥، ١٩٥، ٢٨٣.

(١٥) المقريزي: الخطط ج ١ ص ٣٦٠.

(١٦) بركة الأزبكية كان اسمها بركة بطن البقرة، كان مكانها بستان المقسي، ثم أمر الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله بحفرها حوالي سنة ٤١٠هـ/١٠١٩م لتصبح بركة أمام منظرة اللؤلؤة، وأوصل اليها ماء النيل من خليج الذكر، وعرفت هذه البرك بعد ذلك بالأزبكية نسبة الى الأمير أزبك بن ططخ الظاهري، المقريزي: الخطط، ج ٢ ص ١٦٣، البكري (محمد بن أبي السرور، ت ١٠٨٧هـ/١٦٧٦م) قطف الأزهار من الخطط والآثار، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٤٥٧ جغرافيا، ورقة ١٥٦، ١٥٧. على مبارك: الخطط ج ٣ ص ٢، ٣، ٦٦، ٦٧.

(١٧) ابن اياس: محمد بن أحمد الحنفي، ت (٩٣٠هـ/١٥٢٣م) بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق د. محمد مصطفى، ٥ أجزاء، القاهرة سنة ١٩٨٢ ـ ١٩٨٤، ج ٣ ص ١١٦ ـ ١١٨، ١٣٤؛ Doris Behrens, Abouseif: Azbakiyya And Its Environs From Azbak To Isma,il 1476-1879, Le Caire 1985, p.p. 9-53.

(١٨) ابن اياس: المصدر السابق، ج ٣ ص ١٣٤.

(١٩) نفسه، ج ٣ ص ١٦٠.

(٢٠) Doris Behrens - Abouseif: An Unlisted Monument Of The Fifteenth Century: The Dome Of Zawiyat Al-Damirdas, Annales Islamologiques Tom XVIII, 1982, P. 105- 115.

(٢١) ابن اياس : المصدر السابق، ج ٣ ص ١٣٤.

(٢٢) نفسه، ج ٢ ص ٤٤٩.

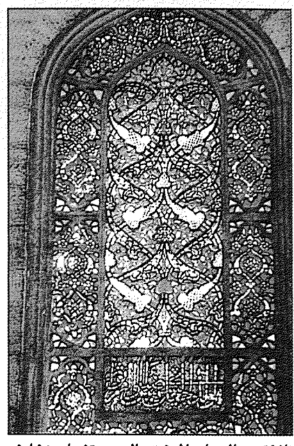
(٢٣) الجبرتي : عجائب الآثار.

(٢٤) الجبرتي: عجائب الآثار، ج٦ ص ٣١٩، ٣٤٣.

(٢٥) نفسه، ج ٤ ص ٢٨٥.

(٢٦) الجبرتي: مظهر التقديس، ص ٥٠، ٦٢، ٨٨؛ عجائب الآثار، ج ٤ ص ٣٠٦، ٣١٥، ٣١٦، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٣٩، ج ٥ ص ٢١؛ أمين سامي، تقويم النيل، مقدمة وثلاث مجلدات وملحق، القاهرة سنة ١٩٣٦، ج ٢ ص ١٢١؛ على مبارك: الخطط، ج ٣ ص ٧٠؛ محمد حسام الدين اسماعيل عبد الفتاح: وجه مدينة القاهرة من ولاية محمد علي حتى نهاية حكم اسماعيل، ١٨٠٥ ـ ١٨٧٩م، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة أسيوط، كلية آداب سوهاج، سنة ١٩٩٤م، ص ١٧ ـ ٢٠.

(٢٧) الجبرتي: مظهر التقديس، ص ٦٩، ٧٠؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤ ص ٣٢١، ٣٢٢.



نافذة من الزجاج المعشق بالجص تشمل زخارف نباتية وهندسية بالاضافة إلى الآية الكريمة { هو الذى جعل الشمس ضياءاً والقمر نورا}





تقنيات الإضاءة في العمارة الإسلامية

﴿ نجح المعمار الإسلامي في تحقيق التوازن التام بين الجوانب المادية والمشاعر الروحانية وذلك من خلال مجموعة من القواعد والتراكيب التى توصل إليها كل من المعماري والفنان المسلم، وأمكن من خلالها حل مشكلات البناء بحلول فعالة متمشية ومتوائمة تماما مع تعاليم عقيدته السمحة، ومحافظة على القيم والتقاليد الاجتماعية، مع توظيف معطيات بيئته، أو جلب ما لم يكن متوفراً بها مثل الأخشاب الجيدة وتكييفه وتعديله حتى يتوافق مع ظروف بيئته.

ومن المجالات التى حقق فيها المعمار الإسلامى معالجة فعالة مجال تقنية الإضاءة وذلك من خلال استعمال المشربية أو الروشان أو الشنشيل وكذلك نوافذ الزجاج المعشق بالجص.

ـ المشـربيـة ونوافـذ الزجـاج المعـشق من ثمرات الحضارة الإسلامية:

د. صلاح أحمد البهنسي

مصـــر

المشـربيـة هي ذلك الجـزء البـارز عن سـمت حـوائط جدران المبانى التى تطل على الشـارع أو على الأفـقـيـة المكشـوفـة في المنازل وغـيـرهـا من المنشـآت المدنيـة الإسـلامـيـة وذلك لغـرض زيادة مساحة سطح الأدوار العليا، ويستند هـذا الجزء البارز على كوابيل ومدارات من الحجر أو الخشب تربط الجـزء البـارز بالمبنى، بينما تغطى الجـوانب الرأسيـة الثلاثة لهـذا الجزء البارز أحـجبـة من الخشب الخرط الدقيق الصنع من برامق مخروطية الشكل تجمع بطريقة فنية بحيث ينتج عن تجمعيها أشكال زخرفية متنوعة قد تكون عناصر هندسية أو نباتية أو كتابات عربية.

وسميت بالمشربية لوجود صلة وثيقة بين هذا الجـــزء من المبنـى وبين أوانـى الشــــرب (القلل الفخارية) التى كانت توضع بها، وفي فترات لاحقة أصبح مصطلح مشربية يطلق على كافة الأحجبة الخشـبـيـة المنفذة بطريقة الخرط باخـتـلاف أمـاكن استخدامها سواء كان ذلك في فتحات النوافذ أو كستائر تفصل بين أجزاء المبنى.

المشربية في العالم الإسلامي :

تـعـرف المشـربيـة فى بعض بلدان العـالم الاسلامي باسم «روشن أو روشـان» وهي تعـريب للكلمة الفارسية «روزن» وتعنى الكوة أو النافذة أو الشرفة، وإن اختلف المسمى من بلد إلى آخر، فإن هناك اتفـاقاً كبيراً في الشكل العام اللهم إلا في بعض التـفـاصـيل البـسـيطة التى أضـفت على المشربيـة طابعـاً خـاصـاً ومميـزاً ببـعض البلدان، ويتمثل ذلك في طريقة الخرط ودقته أو من حيث الأشكال الزخرفية، وبينما نجد أن صناعة المشربية قد بلغت درجـة عالية من الإتقان فـي مصـر خـلال العصر المملوكي، فانها قد بلغت أوج ازدهارها في منازل القاهرة ورشيد خلال العصر العثماني، هذا في الوقت الذى كانت المشربية أو الروشن عنصراً مميـزاً في العـمـارة الحـجـازية وبخـاصـة في ينبع التى بلغت فيـهـا من الكثرة بحيث يتـصل بعضـهـا ببعض.



المشربيات لوحات جميلة

** المعـمـار القديم كانت له أبعـــاده التـقـنيـة والجـمـاليـة والنفـسيـة.

**** المعمار الحديث في غالبه كتل اسمنتية لا روح فيها .. ولا أبعاد.


نافذة من الزجاج المعشق

أما بلاد اليمن وبخاصة مدينة صنعاء وما حولها فلقد استعمل بها طراز يمنى أصيل عبارة عن مشربيات مصنوعة من الحجر بدلا من الخشب. ولم تعرف اليمن المشربيات الخشبية إلا في القرن ١١هـ/ ١٧م بتأثير من الفن العثماني، وكان استعمال المشربية في فلسطين على أضيق نطاق حتى يكاد يقتصر على مدينة القدس، كذلك وجدت نماذج قليلة من المشربيات في مدينة المنامة وكذلك مدينة المحرق في البحرين، واتخذت المشربيات في كل من مدينة طرابلس في لبنان وسواكن في السودان، وكذلك في بلاد المغرب، طابعاً مختلفاً يبدو في كثير من الأحيان أقل إتقاناً عما هو عليه في مصر والمملكة العربية السعودية واليمن.

الفوائد العملية والمادية والفنية للمشربية :

يوفر نظام المشربية عدة مزايا؛ فهي تتيح لأهل المنزل وخاصة السيدات رؤية من بالشارع دون أن يراهن أحد وذلك لاختلاف كميات الضوء في داخل المشربية عن خارجها، مما يتوفر معه خصوصية لأهل المنزل، ويأتى هذا متمشيا مع تعاليم الإسلام الحنيف. كما أن التكوين الهيكلى والزخرفي للمشربية يتفق تماماً مع الظروف المناخية في معظم بلدان العالم الإسلامى التى يتميز طقسها بالحرارة الشديدة والشمس الساطعة، لذلك فإن المشربية بما فيها من فتحات ضيقة تسمح باندفاع الهواء من خلالها فتعمل على تلطيف درجة الحرارة وتحسين التهوية، كما أنها تقلل في نفس الوقت كمية الضوء النافذ إلى الحجرات، ويؤدي ذلك أيضاً إلى تلطيف الجو.

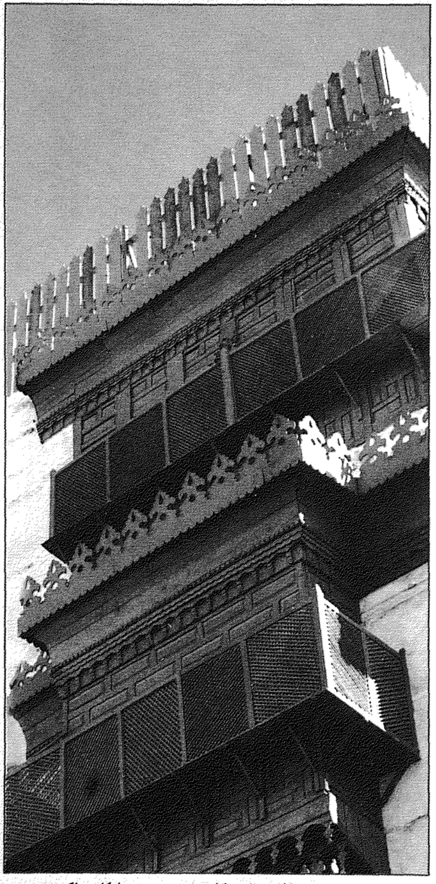
هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن معظم بلدان العالم الإسلامى تفتقد الى الأنواع الجيدة من الأخشاب، لذلك فإن طريقة تصنيع المشربية من قطع صغيرة من الخشب تخرط وتجمع لتكون ستائر خشبية يساعد على الاستفادة من قطع الخشب مهما كان صغرها، لذلك فلقد كانت تستغل قطع الخشب المتبقية من عمل الأسقف والأبواب وغيرها من وحدات المبنى التى تعتمد على الخشب في تصنيع المشربية.

بالإضافة الى ما سبق فإن المشربية تضفي على المبنى شكلا جمالياً وفنياً وذلك من حيث أسلوب الخرط وكذلك الزخارف المتنوعة التى تتألف من تجميعها.

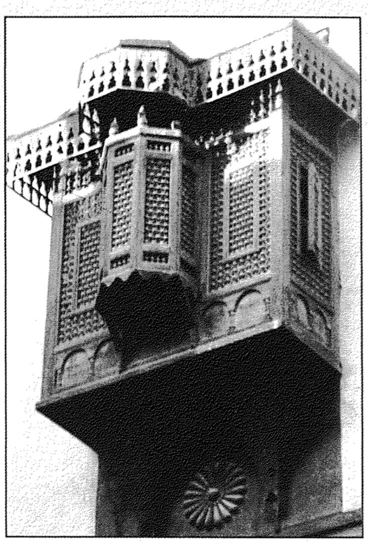
لماذا تراجع استعمال المشربية :

في البداية نؤكد أن المشربية ليست قاصرة عن مواءمة ظروف العصر الحاضر، ولكن على العكس من ذلك فإن استخدام المشربية يعتبر من الضرورة بمكان في هذا العصر خاصة بعد زيادة الكثافة السكانية في المدن واختلاف قواعد ونظم تخطيط المنازل حيث أصبحت تعتمد في الإضاءة والتهوية على فتحات النوافذ في الجدران المطلة على الشارع بدلا من الفتحات التى كانت تطل على الأفنية الداخلية للمنازل.

واستخدام المشربية في مثل هذه الأمور يحقق خصوصية لأهل المنزل، وأما فيما يتعلق بارتفاع أثمان تكلفتها فإن ذلك يمكن التغلب عليه باستخدام مواد بديلة أقل تكلفة مثل خشب النخيل بعد



تعددت الطوابق فتعددت المشربيات فكانت ميزة تمتع بها كل ساكن



المشربية منفعة عملية وقيمة فنية وجمالية

معالجته بالمواد التى تقاوم الحرارة والرطوبة، ولكن يمكن إرجاع السبب في قلة الإقبال على استخدام المشربية إلى الاتجاه السائد بتبني اتجاهات معمارية وزخرفية وافدة الى العالم الاسلامي من دول الغرب، ومعظمها غير موائم لظروف البيئة العربية بصفة خاصة.

نوافذ الزجاج المعشق بالجص :

من المعتقد أن المشربيات الخشبية متأثرة بأسلوب النوافذ الحجرية المثقبة والستائر الجصية المفرغة ونوافذ الزجاج المعشق بالجص التى كانت منتشرة في معظم بقاع العالم الإسلامي منذ الفترة المبكرة من العصر الإسلامى أى أنها أقدم من فن المشربية. ولقد عرفت أولا النوافذ الجصية المفرغة التى نجد أمثلة لها في قصر الحير الغربي ببادية الشام، والجامع الأموى بدمشق، وجامع عمرو بن العاص بالفسطاط بمصر وفي جامع أحمد بن طولون بمصر.

وكان الرأى السائد أن أول ظهور للنوافذ المعشقة بالزجاج كان في قبة الصالح نجم الدين أيوب الملحق بمدرسته بشارع المعز بالقاهرة التى أنشأتها زوجته شجرة الدر بعد وفاته، إلا أن الحفائر الأثرية أثبتت استخدام هذا النوع من التقنية في العمائر الإسلامية منذ العصر الأموى وتوالى استخدامه خلال العصور التالية حيث أصبح مظهراً عريقاً من مظاهر الحضارة والفن الإسلامى إذ استخدمت هذه النوافذ في العمائر الدينية والمدنية في مختلف بلدان العالم الإسلامي.

وإذا كانت بعض بلدان العالم الإسلامى قد عرفت أنواعاً أخرى من النوافذ مثل المدورات الزجاجية اليمنية «القمريات» التى كانت تمتاز برقتها فلم يزد سمكها عن ٥ر١سم بحيث كانت

تسمح بنفاذ الضوء من خلالها، وكذلك «الشماسات» المغربية وهي عبارة عن فتحات نصف دائرية توجد أعلى الأبواب والنوافذ وتغطى بالخشب والزجاج الملون وتسمح بنفاذ ضوء الشمس، فانه مع دخول العثمانيين للعديد من البلاد الإسلامية أصبح أسلوب نوافذ الزجاج المعشق بالجص هو الأكثر شيوعاً في معظم هذه البلاد.

القيم العملية والجمالية لنوافذ الزجاج المعشق بالجص :

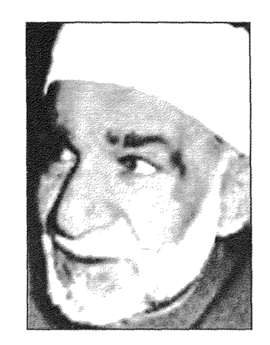
تحقق هذه النوافذ فوائد عملية وقيماً جمالية مثلها مثل المشربية، فمن الناحية العملية فإن هذه النوافذ تخفف الأحمال على الأعمدة الحاملة للعقود وكذلك الجدران، كما أنها تمنع تسلل، الحشرات ودخول الأتربة الى الداخل، وتقلل من حدة تيارات الهواء شتاء، كما تخفف من حدة الضوء صيفاً.

أما من الناحية الجمالية فلقد برع الفنان المسلم في ترتيب قطع الزجاج المتعددة الألوان بحيث تشكل زخارف هندسية ونباتية وكتابية بديعة حتى استطاع الفنان المسلم ببراعة منقطعة النظير أن يحول الرخيص من الجص وقطع الزجاج الملون إلى تحف فنية قيمة.. ومن ناحية أخرى فإن القمريات أو الشمسيات تزود داخل المنزل بتكوينات من الضوء والظلال والألوان تضفى جواً هادئا مريحاً حيث يستمد الضوء لونه من الزجاج المار من خلاله.

تأثير فن الزجاج المعشق على الفنون الأوروبية:

تعتبر نوافذ الزجاج المعشق بالجص إحدى إبداعات الحضارة العربية الإسلامية التى كان لها أثرها في الفنون الأوروبية، ولكن الفنان الأوروبي استبدل الجص بشرائح من الرصاص تثبت بها قطع الزجاج وذلك لملاءمة الرصاص للجو البارد الذي يسود أوروبا، وإذا كان الفنان المسلم قد حرص على ترتيب قطع الزجاج بحيث تشكل تكوينات زخرفية بديعة، فإن الفنان الأوروبي اقتصر على تكوين رسوم آدمية أو حيوانية ومناظر دينية «أيقونات».. وقد أصبح الزجاج المعشق بالرصاص ملمحاً أساسياً ومميزاً في الكنائس والكاتدرائيات الأوروبية وبخاصة في الفن القوطي والفن الرومانسكي.

هذه لمحة عن جانب من جوانب التراث الإسلامى المعمارى والفنى، تتجلى فيه مظاهر الإبداع وسمات التفرد التى تميزه عن غيره من الفنون، هذا الجانب الذى أدركت بعض الهيئات والمراكز العلمية والفنية مدى أهميته وأخذت على عاتقها مهمة (إحيائه واستخدام مفرداته في الفنون الحديثة مؤكدة على الشخصية الفنية الإسلامية، ومحققة التواصل الثقافي والفنى بين الأجيال مع إضافة بعض سمات الحداثة دونما طمس لعناصر الأصالة ■



الاجتهاد والتجديد في إبداعات الشيخ شلتوت (٤-٤)

□ *هذه هي الحلقة الأخيرة من هذه الدراسة العلمية القيمة للدكتور محمد عمارة تتبع فيها اجتهادات الشيخ العلامة محمود شلتوت - عليه رحمة الله تعالى - وقد سجل تلك الاجتهادات والإبداعات مع التحليل العلمي الدقيق لها .. وهذا ديدن أستاذنا الدكتور محمد عمارة ..*

وكما هو مع مجلة المنهل، ومع قرائه ظل ويظل متواصلاً معهم علمياً وفكرياً ..

وبانتظار دراسته الجديدة، له من المنهل وقرائه كل الحب والتقدير والاكبار.

- المنهل -

ولقد كانت للأسرة - وهي اللبنة الأولى والأساسية للأمة- مكانة ملحوظة في اجتهادات الشيخ محمود شلتوت [١٣١٠-١٣٨٣هـ ١٨٩٣-١٩٦٣م]

كما تناولت اجتهاداته ميدان الفنون الجميلة..

وكذلك.. وحدة الأمة - بالتقريب بين مذاهبها.. وبين السنة والشيعة على وجه الخصوص..

وفي كل هذه الميادين الحيوية أبدع هذا الفقيه المتميز جديدا، واكب به العصر الحديث..

الزواج السري:

حرام إذا لم يشهد عليه الشهود.. وحرام كذلك إذا شهد عليه شهود طُلب منهم الكتمان:



أ.د. محمد عمارة
مصـــر

"فـــالزواج الســـري هو نوع قـــديم من الزواج، افترضه الفقهاء، وبينوا معناه، وتكلموا في حكمه، وقد أجمعوا على أن منه العقد الذي يتولاه الطرفان دون أن يحضره شهود، ودون أن يُعلن، ودون أن يُكتب في وثيقة رسمية، ويعيش الزوجان في ظله مكتوماً، لا يعرفه أحد من الناس سواهما، وأجمعوا على أنه باطل لفقده شرط الصحة، وهو الشهادة، فإذا حضر شهود وأُطلقت حريتهما في الإخبار به لم يكن سراً، وكان صحيحاً شرعاً، تترتب عليه أحكامه. أما إذا حضره شهود وأُخذ عليهم العهد بالكتمان، وعدم إشاعته والإخبار به، فقد اختلف الفقهاء في صحته بعد أن أجمعوا على كراهته:

فرأت طائفة أن وجود الشهود يخرجه عن السرية، والشهادة وحدها تحقق العلانية، وإذن فلا تأثير في صحة العقد للتوصية بالكتمان، ويرى الإمام مالك وطائفة معه أن التوصية بالكتمان تسلب الشهادة روحها والقصد منها، وهو الإعلان الذي يضمن ثبوت الحقوق، ويزيل الريبة، ويفصل في الوقت نفسه بين الحلال والحرام - كما جاء في الحديث الصحيح- "فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت" والشهادة التي تحقق الإعلان المقصود هي التي لا تقترن بالتوصية على الكتمان، ومجرد العدد لا يزيل السرية، وكم من سر بين أربعة وبين عشرة لا تزول سريته ما دام القوم قد تواصوا بها وبُنى العقد عليها، ولعل المجالس الخاصة التي يعرفها اليوم أرباب الفجور المشترك من أوضح ما يدل على أن كثيراً ما يكون بين أكثر من اثنين لاتزول سريته.

وإذا كان الزواج السري بنوعيه، الذي لم يحضره شهود، أو حضروه مع التوصية بالكتمان دائراً بين البطلان والكراهة، وأنه يحمل السرية التي هي عنوان المحرم، كان جديراً بالمسلم - الذي شأنه أن يترك ما يريب إلى ما لايريب - أن يمتنع عنه، ولا يقدم عليه، ولا يزج بنفسه في مداخله الضيقة التي لا تحمد عاقبتها" (١)

زواج المتعة:

زواج المتعة حرام.. وهو مفتقر للمقاصد الإنسانية والشرعية التي أرادها الإسلام من وراء الزواج.. فهذا الزواج "زواج المتعة - ومنه الزواج إلى أجل - هو أن يتفق رجل مع امرأة خالية من الأزواج على أن تقيم معه مدة ما، معينة أو غير معينة، في مقابلة مال معلوم.

وهذا الزواج لا يقصد به سوى قضاء الحاجة، وينتهي دون طلاق بمضي مدته، أو بالمفارقة إن لم تضرب له مدة. ولاريب في أن هذا الزواج ليس هو الزواج الذي شرعه الإسلام ونزل به القرآن.

فالقرآن يرشد إلى أن أساس الزواج السكن والمودة والرحمة المتبادلة بين الزوجين، وإلى أن ثمراته

زواج المتعة وزواج السر مخالفان لمقاصد الشرع في الزواج

تكوين الأسر، وتحصيل الأبناء والأحفاد، والتعاون على تربيتهم، وما أبعد زواج المتعة عن هذا الأساس وهذه الثمرات.

والقرآن قد ربط بعنوان الزوجية أحكاما كثيرة كالتوارث، وثبوت النسب، والنفقة، والطلاق، والعدة، والإيلاء، والظهار، واللعان، وحرمة التزوج بالخامسة، وغير ذلك مما يعرفه الناس جميعاً، وليس شيء من الأحكام بثابت فيما يعرف بزواج المتعة.

والقرآن قد عرض للزواج بلفظه تارة وبلفظ النكاح أخرى في آيات كثيرة، ولا يفهم منها ناطق بالضاد سوى الزواج الذي جعله أساس الدوام، وتكوين الأسر، وربطت به تلك الأحكام التي أشرنا إليها، واقرأ في ذلك مثل قوله تعالى: {وبعولتهن أحق بردهن} -البقرة: ٢٢٨-، {ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف} - البقرة: ٢٢٨-، {حتى تنكح زوجاً غيره} -البقرة: ٢٣٠-، {وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم} -النور/٣٢-، {وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً} -النساء: ٢١-.

اقرأ هذه الآيات وأمثالها لتعلم أنها - على رغم ما يحاول المفتونون بمشروعية زواج المتعة من تحريفها عن مواضعها- بعيدة كل البعد عن زواجهم الذي يعلنون أنه مشروع لغاية في نفوسهم، أو تعصبا لآراء لا تعرفها حجة.

نعم، ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم، أباحه للمحاربين في بعض الغزوات. وثبت أيضاً مما لا شك فيه أنه نهى عنه نهيا عاما وحرمه تحريما مؤبداً. وقد جمع مسلم في صحيحه، والحافظ بن حجر في شرح البخاري أحاديث النهي، فليرجع إليها من شاء.

وما كان نهى عُمر عنها - وتوعده فاعلها أمام جمع من الصحابة، وإقرارهم إياه- إلا عملا بهذه الأحاديث الصحيحة، واقتلاعا لفكرة مشروعيته من بعض الأذهان. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم، يتخذ قرب عهد الناس بالإسلام في أوقات الضرورة سبيلا للترخيص فيما يخفف عنهم تلك الضرورة، حتى إذا ما أنسوا الإسلام وأحكامه عاد فحرمه التحريم الذي يريده الله، وهو التحريم العام المؤبد.

وبهذا القدر من البيان يتضح أن الرأيين في زواج المتعة لا يمكن أن يوضعا في ميزان واحد،

فضلا عن تساوي كفتيهما. وأن الترخيص في زواج المتعـة لم يخـرج عن أن يكون ترخيـصـاً بـأخف المحـرمين في وقت الضـرورة، وحـداثة عـهـد الناس بالإسـلام، ومثل هذا الترخيص لا يصلح دليلاً على المشروعية.

وإن الشـريعـة التي تبـيح للمـرأة أن تتـزوج في السنة الواحـدة أحـد عشـر رجـلاً، وتبيح للرجل أن يتـزوج كل يوم مـا تمكن من النسـاء، دون تحـمـيله شيئاً من تبعات الزواج، إن شريعة تبيح هذا لا يمكن أن تكون هي شـريعـة الله رب العـالمين، ولا شـريعـة الإحصان والإعفاف" (٢).

وفي النسل:

تنظيم النسل، كموقف فردي، لضرورات فردية، حلال.. أما تحديد النسل، كسياسة عامة في الدولة والمجتمع، فـغـيـر مـبـاح.. ".. والأصل في الشـريعـة الإسـلامـية هو العمل على كثرة النسل والتوالد، وأن الولد لم يكن حقا لوالديه إلا بمقدار ما يهيئانه لخدمة الأمة والقيام بنصيبه فيها.

ولقد رغَّب القرآن الكريم وحثت الأحاديث النبوية على الزواج، مـع أنه أمـر طبـيـعي لا تكاد النفس المهـذبة تفكر في الإضـراب عنه مـا اسـتطاعت إليـه سـبـيلاً، انظر إلى قـوله تعـالى في مـعـرض الامـتنان على عـبـاده: {والله جـعـل لكم من أنفـسكم أزواجـاً وجـعل لكم من أزواجكم بنين وحـفـدة ورزقكم من الطيبات} -النحل:٧٢ -وقوله جل شـأنه بيانـاً لمكانة البنين في هذه الحـيـاة {المال والبنون زينة الحـيـاة الدنيا} -الكهف: ٤٦-.. ثم انظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم: " تناكحوا تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القـيـامـة" وقـوله: "سـوداء ولود خـيـر من حـسناء عقيم"، وقوله: "من ترك النكاح مخافة العيال فليس منا".

ومن هذا يتبين أن القول بإباحة منع الحمل على الإطلاق - كمـا يراه الغزالي - أو برضـا الزوجين- كما يراه الحنفية-، فيه إهدار لحق الأمة الذي تشير إليه هذه النصـوص، وتقضى به روح الشريعة، وأن حق الأمــة يجب أن يكون له المكان الأول من النظر والاعتبار، خصوصاً في زمننا هذا الذي أصيبت فيه الشعوب الإسلامية بالضعف والانحلال والتمزق.

وأن إباحة منع الحمل - كما يراه الغزالي أيضاً لمجرد المحافظة على الجمال والمتعة الجنسية- منع للطبيعة المستعدة للإثمار عن تأدية وظيفتها، وإيتاء ثمرتها...

إن الشـريعـة والطب يلتـقـيـان في وجـوب دفع الضرر الذي يلحق الزوجة أو الأمة من جراء إطلاق الحرية في تحصيل النسل وكثرته...

وإن الشريعة في الوقت الذي حثت فيه على كثرة النسل إنماء للأمة وتكوينا لقوتها، قضت بصيانة هذه الكثـرة من الضـعف، ومن أن تكون غـثـاء كـغـثـاء السيل...

وإذا كـانت الشـريعـة الإسـلامـيـة تطلب كـثـرة قوية، فما هو السبيل إلى الحصول على هذه الكثرة القوية؟

إن السبيل إلى هذا هو العمل على تنظيم النسل

تنظيماً يحفظ له قوته ونشاطه، ويحفظ للأمة كثرتها ونماءها.....

ونحن نرى أن يكون أساس التنظيم المنشود على نحو ما يأتي:

أولا: العمل على منع الحمل منعاً مؤقتاً يمكن الأم من إرضاع الطفل إرضاعاً كاملاً نقياً، وقد حددت الشريعة الإسلامية مدة الرضاع بحولين كاملين: {والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة} -البقرة: ٢٣٣-..

ثانياً: منع الحمل بين الزوجين منعاً باتا إذا كان بهما أو بأحدهما داء عضال من شأنه أن يتعدى إلى النسل والذرية، وفي حالة امتناع الزوجين عن قبول عملية منع الحمل يكون لولي الأمر الحق في التفريق بينهما جريا على قاعدة أن على ولي الأمر سد أبواب الضرر الذي يصيب الأفراد أو الأمة......

وبقى النظر بعد هذا في شأن من يخشى الوقوع في الحرج بسبب عدم القدرة على تربية أولاده والعناية بهم أو يخشى أن تسوء صحته بضعف أعصابه عن تحمل واجباتهم ومتاعبهم، فهل يباح له أن يعمل على تحديد نسله أو تقليله إلى الحد الذي لا يخشاه اعتماداً على ما عرف من أن خوف الوقوع في الحرج "من الأعذار التي يسوغ بها في الشريعة ترك الواجبات؟

إنا نرى أن العلاج السابق لابد له من عنصر آخر ينضم إليه حتى يشمل العلاج جميع الفروض والحالات، وهو: العمل على اتخاذ تدابير اجتماعية ومالية لمساعدة الفقراء الأصحاء في تربية أطفالهم وتعليمهم ومنحهم ما يرفه عنهم ضيق الحياة المادية الذي يعرضهم إلى الضعف بسبب الجهل وسوء التغذية، وإذا كان للأمة -كما قلنا- حق في الولد تنتفع به وتستثمره في الحياة العامة، والمغنم بالمغرم -كما يقولون.. فالواجب على الحكومة أن تتخذ لهذه التدابير الوسائل التي تحقق بها تلك الغايات.." (٣)

في الفنون الجميلة:

الغناء الموسيقي: الأصل فيهما الحل.. والحرمة عارضة... وحب اللذة: غريزة فطرية في الإنسان.. والشرع ينظمها، دون قمع، ودون إفراط... ومرويات التحريم: ضعيفة.. أو تتحدث عن توظيف الغناء والعزف في المحرمات..

"إن الأصل الذي أرجو أن يتنبه الناس إليه.. هو أن الله خلق الإنسان بغريزة يميل بها إلى المستلذات والطيبات التي يجد لها أثراً في نفسه، به يهدأ، وبه يرتاح، وبه ينشط، وبه تسكن جوارحه، فتراه ينشرح صدره بالمناظر الجميلة؛ كالخضرة المنسقة، والماء الصافي الذي تلعب أمواجه، والوجه الحسن الذي تنبسط أساريره. ينشرح صدره بالروائح الزكية التي تحدث خفة في الجسم والروح، وينشرح صدره بلمس النعومة التي لا خشونة فيها، وينشرح صدره بلذة المعرفة في الكشف عن مجهول مخبوء، وتراه بعد هذا مطبوعا على غريزة الحب لمشتهيات الحياة وزينتها من النساء والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة والأنعام والحرث.

ولعل قيام الإنسان بمهمته في هذه الحياة ما

كانت لتتم على الوجه الذي لأجله خلقه الله إلا إذا كان ذا عاطفة غريزية توجهه نحو المشتهيات، وتلك المتع التي خلقها الله معه في الحياة، فيأخذ منها القدر الذي يحتاجه وينفعه.

ومن هنا قضت الحكمة الإلهية أن يخلق الإنسان بتلك العاطفة، وصار من غير المعقول أن يطلب الله منه - بعد أن خلقه هذا الخلق، وأودع فيه لحكمته السامية هذه العاطفة - نزعها أو إماتتها أو مكافحتها في أصلها وبذلك لا يمكن أن يكون من أهداف الشرائع السماوية - في أي مرحلة من مراحل الإنسانية - طلب القضاء على هذه الغريزة الطبيعية التي لا بد منها في هذه الحياة.

نعم، الشرائع السماوية بإزاء هذه العاطفة لها مطلب آخر، يتلخص في كبح الجماح، ومعناه: مكافحة الغريزة عن الحد الذي ينسى به الإنسان واجباته، أو يفسد عليه خُلقه، أو يحول بينه وبين أعمال هي له في الحياة ألزم، وعليه أوجب.

ذلك هو موقف الشرائع السماوية من الغريزة، وهو موقف الاعتدال والقصد، لا موقف الإفراط، ولا موقف التفريط، هو موقف التنظيم، لا موقف الإماتة والانتزاع. هذا أصل يجب أن يفهم، ويجب أن توزن به أهداف الشريعة السماوية، وقد أشار إليه القرآن "في كثير من الجزئيات: {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط} -الإسراء:٢٩- {يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا} -الأعراف: ٣١- {واقصد في مشيك واغضض من صوتك } لقمان:١٩-...

وإذن، فالشريعة توجه الإنسان في مقتضيات الغريزة إلى الحد الوسط، فهي لم تنزل لانتزاع غريزة حب المال، وإنما نزلت بتعديلها على الوجه الذي لا جشع فيه ولا إسراف، وهي لم تنزل لانتزاع الغريزة في حب المناظر الطيبة، ولا المسموعات المستلذة، وإنما نزلت بتهذيبها وتعديلها على ما لا ضرر فيه ولا شر. وهي لم تنزل لانتزاع غريزة الحزن، وإنما نزلت بتعديلها على الوجه الذي لا هلع فيه ولا جزع. وهكذا وقفت الشريعة السماوية بالنسبة لسائر الغرائز. وقد كلف الله العقل - الذي هو حجته على عباده- بتنظيمها على الوجه الذي جاء به شرعه ودينه، فإذا مال

تحديد النسل لظروفه وغاياته حسب تقنين الشرع

الإنسان إلى سماع الصوت الحسن، أو النغم المستلذ من حيوان أو إنسان، أو آلة كيفما كانت، أو مال إلى تعلم شيء من ذلك، فقد أدى للعاطفة حقها، وإذا وقف بها عند هذا الحد الذي لا يصرفه عن الواجبات الدينية، أو الأخلاق الكريمة، أو المكانة التي تتفق ومركزه، كان بذلك منظما لغريزته، سائرا بها في الطريق السوي، وكان مرضيا عند الله وعند الناس.

وبهذا يتضح أن تعلم الموسيقى مع الحرص على الفرائض والتكاليف نابع من الغريزة التي حكمها العقل بشرع الله وحكمه، فنزلت على إرادته، وهذا هو أسمى ما تطلبه الشرائع السماوية من الناس في هذه الحياة.

ولقد كنت أرى أن هذا القدر كاف في معرفة حكم الشرع في الموسيقى، وفي سائر ما يحب الإنسان ويهوى بمقتضى غريزته، لولا أن كثيرا من الناس لا يكتفون، بل ربما لا يؤمنون بهذا النوع من التوجيه في معرفة الحلال والحرام، وإنما يقنعهم عرض ما قيل في الكتب وأثر عن الفقهاء. وإذا كان ولا بد فليعلموا أن الفقهاء اتفقوا على إباحة السماع في إثارة الشوق إلى الحج، وفي تحريض الغزاة على القتال، وفي مناسبات السرور المألوفة كالعيد، والعرس، وقدوم الغائب وما إليها. ورأيناهم فيما وراء ذلك على رأيين:

يقرر أحدهما الحرمة، ويستند إلى أحاديث وآثار.

ويقرر الآخر الحل، ويستند كذلك إلى أحاديث وآثار. وكان من قول القائل بالحل: "إنه ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله، ولا في معقولهما من القياس والاستدلال، ما يقتضي تحريم مجرد سماع الأصوات الطيبة الموزونة مع آلة من الآلات". وقد تعقبوا جميع أدلة القائلين بالحرمة، وقالوا: إنه لم يصح منها شئ.

وقد قرأت في هذا الموضوع لأحد فقهاء القرن الحادي عشر المعروفين بالورع والتقوى رسالة هي [إيضاح الدلالات في سماع الآلات] للشيخ عبدالغني النابلسي الحنفي، قرر فيها أن الأحاديث التي استدل بها القائلون بالتحريم – على فرض صحتها– مقيدة بذكر الملاهي، وبذكر الخمر والقينات، والفسوق والفجور، ولا يكاد حديث يخلو من ذلك. وعليه كان الحكم عنده في سماع الأصوات والآلات المطربة أنه إذا اقترن بشئ من المحرمات، أو اتخذ وسيلة للمحرمات، أو أوقع في المحرمات كان حراما، وأنه إذا سلم من كل ذلك، كان مباحا في حضوره وسماعه وتعلمه. وقد نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم عن كثير من الصحابة والتابعين والأئمة والفقهاء أنهم كانوا يسمعون ويحضرون مجالس السماع البريئة من المجون والمحرم. وذهب إلى مثل هذا كثير من الفقهاء، وهو يوافق تماماً في المغزى والنتيجة الأصل الذي قررناه في موقف الشريعة بالنسبة للغرائز الطبيعية.

وكان الشيخ حسن العطار – شيخ الجامع الأزهر في القرن الثالث عشر الهجري– ذا ولع شديد بالسماع، وعلى معرفة بأصوله، ومن كلماته في بعض مؤلفاته: "من لم يتأثر برقيق الأشعار، تُتلى

بلســان الأوتار، على شطوط الأنهــار، في ظلال الأشجار، فذلك جلف الطبع حمار".

وإذن، فسماع الآلات، ذات النغمات، والأصوات الجميلة، لا يمكن أن يحرم باعتباره صوت آلة أو صوت إنسان، أو صوت حيوان، وإنما يحرم إذا استعين به على محرم، أو ألهى عن واجب.

وهكذا يجب أن يعلم الناس حكم الله في مثل هذه الشئون. ونرجو بعد ذلك ألا نسمع القول يلقى جزافا في التحليل والتحريم، فإن تحريم مالم يحرمه الله أو تحليل ما حرمه الله كلاهما افتراء وقول على الله بغير علم: {قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون} الأعراف:٣٣-(٤).

في التقريب بين السنة والشيعة:

والإفتاء بجواز التعبد وفق فقه المذهب الجعفري - مذهب الإمام الصادق، أبو عبدالله جعفر بن محمد [٨٠-١٤٨هـ ٦٩٩-٧٦٥م]- وهو المذهب الفقهي للشيعة الاثنى عشرية- فلقد تداعت.. في أربعينيات القرن العشرين -كوكبة من كبار العلماء والمفكرين إلى تأسيس جماعة للتقريب بين الشيعة والسنة، ولإزالة الجفوة التي اتخذها ويتخذها الاستعمار ثغرة لاختراق صفوف الأمة الإسلامية، وإضعاف وتمزيق جميع شعوبها ومذاهبها.. ولتبيان مناطق الاتفاق - وهي كبيرة جدا- وللتعرف على مناطق الاختلاف للتعامل معها بالحكمة الإسلامية التي قررت وتقرر أن الاختلاف والتنوع سنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل..

وكان الشيخ محمود شلتوت واحدا من أنشط العلماء الذين بذلوا الجهود الكبيرة في تأسيس وتدعيم هذه الجماعة، التي رأسها الزعيم المصلح محمد علي علوبة باشا [١٢٩٢-١٣٧٥هـ ١٨٧٥-١٩٥٦م] والتي ضمت من أئمة مشيخة الأزهر: الشيخ عبدالمجيد سليم، والشيخ محمد مصطفى المراغي، والشيخ مصطفى عبدالرازق، ومن كبار علمائه: الشيخ علي الخفيف، والشيخ عبدالعزيز عيسى [١٣٢٧-١٤١٥هـ ١٩٠٩-١٩٩٤م] والشيخ محمد المدني، والشيخ سيد سابق، والإمام الأكبر الحاج أقا حسين البروجردي، والسيد محمد تقى الدين القمى -الأمين العام للجماعة- والسيد محمد الحسيني آل كاشف، والسيد شرف الدين الموسوى، والسيد محمد جواد مغنية، والسيد صدر الدين شرف الدين..

ولقد أصدرت هذه الجماعة مجلة "رسالة الإسلام"، فكانت منبرا للاجتهادات الداعمة لوحدة الأمة الإسلامية.. وعلى صفحات هذه المجلة تعددت وتوالت اجتهادات الشيخ شلتوت في التقريب بين المذاهب الإسلامية الموثقة، وبين الشيعة والسنة على وجه الخصوص..

ومن نماذج اجتهاداته في هذا الميدان قوله:

"إن دعوة التقريب هي دعوة التوحيد والوحدة، هي دعوة الإسلام والسلام.. كنت أود أن أستطيع تصوير فكرة الحرية المذهبية الصحيحة المستقيمة

الموسيقى والسماع مقيدان بالاعتدال والقصد من غير إفراط ولا تفريط

على نهج الإسلام، والتي كان عليها الأئمة الأعلام في تاريخنا الفقهي، أولئك الذين كانوا يترفعون عن العصبية الضيقة ويربئون بدين الله وشريعته عن الجمود والخمول، فلا يزعم أحدهم أنه أتى بالحق الذي لا مرية فيه، وأن على سائر الناس أن يتبعوه، ولكن يقول: "هذا مذهبي، وما وصل إليه جهدي وعلمي، ولست أبيح لأحد تقليدي واتباعي دون أن ينظر ويعلم من أين قلت وما قلت، فإن الدليل إذا استقام فهو عمدتي، والحديث إذا صح فهو مذهبي".

"لقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم، وأسهمت منذ أول يوم في جماعتها، وفي وجوه نشاط دارها بأمور كثيرة.. ثم تهيأ لى بعد ذلك، وقد عهد إليّ بمنصب مشيخة الأزهر، أن أصدرت فتواي في جواز التعبد على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول، المعروفة المصادر، المتبعة لسبيل المؤمنين، ومنها مذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية.. وقرّت بهذه الفتوى عيون المؤمنين المخلصين الذين لا هدف لهم إلا الحق والألفة ومصلحة الأمة. وظلت تتوارد الأسئلة والمشاورات والمجادلات في شأنها وأنا مؤمن بصحتها، ثابت على فكرتها، أؤيدها في الحين بعد الحين فيما أبعث به من رسائل للمتوضحين، أو أرد به على شبه المعترضين، وفيما أنشئ من مقال ينشر أو حديث يذاع أو بيان أدعو به إلى الوحدة والتماسك والاتفاق حول أصول الإسلام، ونسيان الضغائن والأحقاد، حتى أصبحت – والحمد لله– حقيقة مقرره تجرى بين المسلمين مجرى القضايا المسلمة، بعد أن كان المرجفون، في مختلف عهود الضعف الفكري والخلاف الطائفي والنزاع السياسي، يثيرون في موضوعها الشكوك والأوهام بالباطل، وها هو ذا الأزهر الشريف ينزل على حكم هذا المبدأ، مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب المختلفة، فيقرر دراسة فقه المذاهب الإسلامية، سنيها وشيعيها، دراسة تعتمد على الدليل والبرهان، وتخلو من التعصب لفلان وفلان.." (٥)

أما الفتوى التي أصدرها الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت بجواز التعبد على فقه المذهب الجعفري، فلقد جاءت رداً على سؤال نصه:

"إن بعض الناس يرى أنه يجب على المسلم لكي تقع عبادته ومعاملاته على وجه صحيح، أن يقلد أحد المذاهب الأربعة المعروفة، وليس من بينها مذهب الشيعة، فهل توافقون فضيلتكم على هذا الرأي على إطلاقه، فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الاثنى عشرية مثلا؟؟".

فكان جواب الشيخ شلتوت:

"إن الإسلام لا يوجب على أحد اتباع مذهب معين، بل نقول: إن لكل مسلم الحق في أن يقلد بادئ ذي بدء أي مذهب من المذاهب المنقولة نقلاً صحيحاً، والمدونة أحكامها في كتبها الخاصة، ولمن قلد مذهبا من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره - أي مذهب كان- ولا حرج عليه في شئ. إن مذهب الجعفرية، المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية، مذهب يجوز التعبد به شرعاً كسائر مذاهب أهل السنة، فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة، فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى، يجوز - لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد- تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات.." (٦)

فبجهود الشيخ شلتوت -الفكرية والعملية- تَبَنَّى الأزهر الشريف واحتضن كل المذاهب الإسلامية الموثقة المصادر.. ودعمت مصر الدولة - من خلال المؤتمر الإسلامي.. الذي كان الشيخ شلتوت مستشاره - دار التقريب ومجلتها.. وتفردت مصر - عندما أصدرت الموسوعة الفقهية- باعتماد المذاهب الفقهية الإسلامية الثمانية - الحنفي، والشافعي، والمالكي، والحنبلي، والجعفري، والزيدي، والإباضي، والظاهري - في هذه الموسوعة على قدم المساواة..

وهو موقف يتفرد به الأزهر الشريف بين كل الجامعات الإسلامية.. وتتفرد به مصر بين سائر الدول الإسلامية حتى كتابة هذه الصفحات!..

تلك إشارات إلى معالم بارزة ومتميزة في المدرسة الفكرية التي تربى فيها وعليها الشيخ شلتوت.. وإلى معالم سيرته التعليمية والعملية..

وإلى نماذج من الميادين التي تجلى فيها إبداعه الفكري بالاجتهاد والتجديد..

رحمه الله رحمة واسعة.. وجعل حياته.. وجهاده.. واجتهاده معالم على طريق أمتنا نحو التقدم والتحرر والنهوض.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.. وصلى الله وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى أصحابه وصحابته الطيبين الطاهرين.. ومن عمل بسنته، وسار على طريق جهاده إلى يوم الدين ■

الهوامش :

(١) [الفتاوى] ص٢٦٨، ٢٦٩.

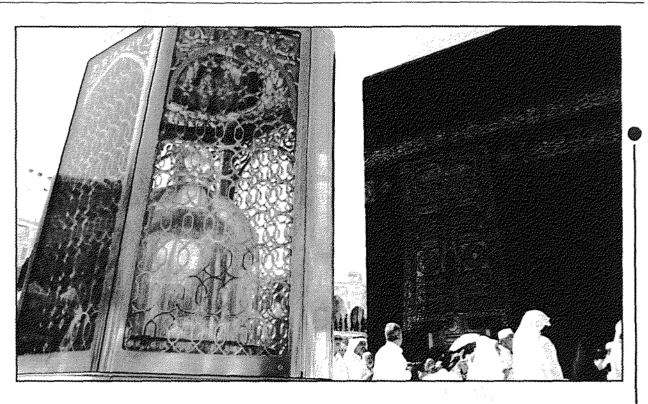
(٢) المصدر السابق. ص٢٧٣-٢٧٥.

(٣) [الإسلام عقيدة وشريعة] ص٢٠٦-٢١٣.

(٤) [الفتاوى] ص٤٠٩-٤١٤.

(٥) علي عبدالعظيم [مشيخة الأزهر] ج٢ ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٦) المرجع السابق. ج ٢ ص١٨٨.



بين عتبة العلم والعبادة

إن القارئ لأية رحلة حجازية علمية وخاصة الفهرسية منها، يتأكد من طواف الرحالة المغاربة على مراكز العلم بالمشرق لملاقاة كبار العلماء والأدباء والمشايخ طلباً لأعالي العلوم والمعارف، منطلقين من المقولة التي كانت سائدة، والتي تؤكد على إيجابيات أخذ العلوم من أفواه الرجال، وتجنب الاكتفاء بمطالعة الكتب والمؤلفات، ويؤكد على هذا قول ابن خلدون: "إن للرحلة في طلب العلم لاكتساب الفوائد ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم، فالرحلة لابد منها في طلب العلم، والفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال" (١).

ولعل الذي ساعد على تنمية هذا الاهتمام وعلى هذه الرغبة في الرحلة عند المغاربة هو الموقع الجغرافي للمغرب ببعده عن الشرق والحجاز من جهة، وإطلاله على القارة الأوروبية من جهة ثانية، ولهذا انتظمت رحلات المغاربة للأقطار المختلفة شرقاً وغرباً، بلاداً إسلامية وغير إسلامية، وإن كنا وجدنا أن الحجاز يستقطب أكثر المغاربة ويستهويهم، ويجذبهم نحوه، بل هو منتهى سفرهم، والمدينة المنورة دار للعلوم والمعارف.

من هذا المنطلق، يمكننا القول: إن هذا النوع من الرحلات نابع بالأساس - بكل عناصره الدينية والعلمية - من شعور المغاربة بالبعد المكاني عن المناطق المقدسة، ومن ثمة لم يكتف معظم الحجاج المغاربة بقضاء مناسك الحج مرة واحدة، بل بمجرد الرجوع إلى بلدهم "يسرعون إلى العودة من جديد.. ولشدة التعلق بالحجاز.. كان ركب الحجيج المغربي يطيل مقامه هناك، فيستقر لفترة طويلة بمكة أو المدينة أو بهما معاً، حتى يشبع رغبته ويروي ظمأه" (٢).

إن يوم خروج الحاج المغربي، حينما يكون متوجهاً إلى الحجاز، يكون يوماً موعوداً ومشهوداً قل من يبقى بالمدينة "إلا خرج، ودب ودرج. الرجال والولدان، والأحرار والعبدان، فما ترى أعجب من

د. عبدالمنعم الوكيلي

المغــرب

ذلك اليوم ولا أحسن منه منظراً أو مخبراً، يروق البصر ويميل بالفكر عادة جميلة استندوا إليها وطبيعة جبلوا عليها" (٣) ورغم ذلك لا يمكننا أن نسلم بأحادية الدافع إلى الرحلة، وتجاهل الدوافع الأخرى التي كانت نتيجة لها، وعلى رأسها الدافع العلمي، والمجاهد من أجله، والراحل في سبيله عن طريق الاتصال بكبار العلماء والأدباء والمفكرين لتحقيق الروايات وأخذ الأسانيد والإجازات، والإطلاع على المؤلفات، ومناقشة المسائل العلمية والنوازل الأدبية، حتى ينتهز الراحل فرصة هذا السفر الطويل الذي يبتدئ من المغرب مروراً بمصر وانتهاء بالحرمين الشريفين، وكانت هذه المناطق تمثل الخط الجغرافي الذي يسير فيه ركب الحجيج المغربي، من أيام بني مرين بحيث يقف الراحل بكل عواصم العلم التي يمر بها في طريقه، ويصفها ويذكر مساجدها ومآثرها، وعلماءها وأدباءها.

لقد كان الحج إذن يسمح بكثير من الاتصالات الفكرية بين العلماء فالمسافر كان يتوقف بطرابلس والإسكندرية، وأحياناً كان يصعد حتى اليمن، كما كان العالم المغربي يأخذ ويعطي بعض الدروس،

فكانت هذه الاتصالات - غالباً - تتوج بإجازات في مختلف العلوم والفنون والآداب، يتمانحها العلماء والأدباء فيما بينهم ويعتبر العلامة محمد ابن أبي بكر الدلائي وأبو سالم العياشي، وأحمد المقري من أوائل الرحالين إلى الحجاز، بحيث تعرفوا على الحياة العلمية والفكرية بالمشرق، واتصلوا بعلمائها وفقهائها، ودرسوا معهم مختلف القضايا المعرفية، كما درسوا وصنفوا وأضاءوا بفكرهم وعلمهم طلاب العلم هناك، بل والأكثر من هذا، منهم من جادت قريحته بتآليف، مثل أبي سالم العياشي، الذي ألف رحلته المسماة: " ماء الموائد"، كذلك الأمر بالنسبة لمحمد الحاج الدلائي، الذي ألف كتابين، هما: "فتح المتعال في مدح النعال" و "أزهار الكمامة في أخبار العمامة".

كما كانت هذه الرحلات المغربية إلى الديار المقدسة من الأسباب الأساسية للإبداع الشعري، وتفتق قرائح الشعراء، كما وقع للشاعر محمد المرابط، وهو يتهيأ للخروج في ركب للحج، فانشرح صدره، وازداد غبطة وسروراً، وتراءت له معالم طيبة، فأنشأ قصيدة طويلة يقول في مطلعها:

هذي معالم طيبة يا ساري

فأرق ماقي طرفك المدرار

فرحاً بمشهد خير من وطئ الثرى

وسمت به سروراً آل نزار (٤)

كما نظم ابن الشاعر محمد بن محمد المرابط في إحدى رحلاته إلى الديار المقدسة قصيدة دالية تناهز ستا وثلاثين ومائة بيت (١٣٦) سمَّاها "الرحلة المقدسة" وهي عبارة عن نظم للمراحل التي كان يمر منها حجاجنا المغاربة من باب الفتوح بمدينة فاس إلي المدينة المنورة، مروراً بطرابلس، ويستمر في رسم خريطة السفر، وبيان مميزات بعض الأماكن التي يمرون بها، ليخلص إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، خاتماً قصيدته بالتوسل والدعاء يقول في مطلع هذه القصيدة:

زم الهوادج واتئد يا حادي

فلقد حملت بها جميع فؤادي

وتركتني عافي الحشى متولهاً

ذا زفرة تذكي بقلب الصادي (٥)

هكذا إذن، تزايدت صلات أدباء وعلماء المغرب بإخوانهم في المشرق عن طريق رحلات ركب الحجاج المنتظم سنوياً، وما نتج عن هذه الصلات المتزايدة من إنتاجات فكرية وتلاقحات معرفية، نتيجة الأخذ والعطاء والتأثير والتأثر، وإذا أضفنا

إلى ذلك تبادل الإجازات بين علماء المغرب والمشرق وانتقال التصانيف العلمية والأدبية بين مختلف المراكز العلمية بين الجانبين، أمكن تصور جسر التبادل الثقافي والمعرفي بين البلدين.

وقد كان طالب العلم بالمغرب إذا ما اجتاز مرحلة تكوينه العلمي، يشد الرحال إلى المشرق بنية الحج الديني والحج العلمي - إن صح هذا التعبير -، وهذا ما جعل الحج من الفرائض التي يحرص كل مغربي على أدائها، والدارس والباحث ينتقل من مدينة علمية إلى أخرى من أجل الاستفادة والإفادة، وقد تطول مثل هذه الرحلات العلمية إلى المشرق، وتعاد أحيانا بحسب همة الباحث المعرفية وقوة تطلعه إلى الثقافة والفكر، وهذا ما يفسر لنا تأصيل فريضة الرحلة الحجية / العلمية عند المغاربة، فالرحلة العلمية دعت إلى الحج، والحج دعا إلى الرحلة العلمية، وكأنهما وجهان لعملة واحدة.

ونذكر من تقاليد ركب الحجيج المغربي أنه كان يحمل معه "هدايا للحرمين الشريفين، تتألف من مصاحف مهمة، وكتب قيمة، وجواهر فاخرة، كما يحمل هدايا فائقة لملوك الحرمين الشريفين، كما أن بعض الملوك المغاربة يضيفون لتلك الهدايا المتنوعة رسائل يهدونها لروح الرسول صلى الله عليه وسلم، يؤكدون فيها ولاءهم وإخلاصهم للجناب النبوي، ويتضرعون إلى الله في حل أزماتهم" (٦)

كان من الطبيعي إذن أن يحرص المغاربة على أداء فريضة الحج إلى البقاع المقدسة، وأن يصبح الحج من أهم الوشائج التي ربطت بين المشرق والمغرب، وعملت على توحيد الثقافة في سائر أنحاء الوطن الإسلامي، ولعل البعد الجغرافي بين المغرب والبقاع المقدسة قد زاد من حرص المغاربة على أداء فريضة الحج، والتردد على مراكز الثقافة العربية والإسلامية في المشرق، سواء في مكة والمدينة، أو البصرة والكوفة، أو بغداد ومصر، وغيرها من الأماكن العلمية الأخرى، كما كان الوسط الاجتماعي - طبعاً مشبعاً بالحس الديني، مما أدى إلى ارتباط عضوي وحميمي بين ما هو ديني وما هو علمي ■

الهوامش :

١- عبدالرحمن بن خلدون، "المقدمة"، ط ١، ١٩٩٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ص: ٤٧٦ .

٢- حسن الشاهدي: "أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني" مطبعة عكاظ، الرباط، ج١ / ٤٩ .

٣- محمد المنوني "ركب الحاج المغربي"، مطبعة تطوان، المخزن، طبعة ١٩٥٣، ص: ١٥ .

٤- محمد المرابط وابنه محمد "الديوان"، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم ٣٦٤٤د، ص: ١٢ .

٥- نفسه، ص: ١١٦ .

٦- محمد المنوني، مرجع سابق، ص: ٢٥ .



رحلة حج

إلى (عرفات)

□ في مختلف أرجاء (الجامعة) كانت تنتشر العبارات التوجيهية الداعية للتخلي عن (التدخين) المانعة له نظرياً فيها، بقوة (التوجيهات) الإدارية، وقليل هم من يسمعون، وقليل هم الذين يرتقي بهم إحساسهم الحضاري إلى احترام الضوابط والقانون حتى في غياب الرادع المادي المباشر.



أ.د. عمر بن قينة
الجــزائــر

أمام قاعة (المؤتمرات) في (الجامعة) كانت الحافلات التي تستعد لنقل (حجاج) من الجامعة إلى (مكة المكرمة) صباح (١٤٢٥/١٢/٠٨هـ) متوقفة بين الرصيفين مضى سائقوها يتنقلون بين الرصيفين، جميعهم تقبض أصابعهم على (السيجارة) بإصرار حميمي، فيتلذذ هذا أو ذلك بالسيجارة وهو يقبض عليها بحميمية أو تقبع في الزاوية بين الشفتين، في هناء واستسلام!

كان الموقف مثيراً للحزن والشفقة على هؤلاء المساكين، الذين لم يُجْد معهم لا قانون ولا إعلانات، ربما لم يطلعوا أيضاً عليها، وما كانوا فاعلين إن قُدِّرَ لهم العلم، ولا هم بعبارات التحذير من عواقب التدخين مبالين، يحدث أن تلفظ سيجارة أحدهم أنفاسها بين أصابعه، فيعوضها بثانية يشعلها من عقب المنتحرة المنطفئة التالفة التي لفظت أنفاسها ولم تخمد جذوة في عقبها.

حين صدرت إشارة الانطلاق نحو (منى) عبر (مكة المكرمة) اضطروا للتخلي عن هواهم.. بدا أن أحدهم باتت في نفسه حاجة من ألم وحرقة عن سيجارته التي تخلى عنها دون الثمالة حين صدر الأمر بالإقلاع، فانطلقت مخالفاته المرورية، حتى (مكة المكرمة) ثم (منى) حيث اصطدم بحاج إفريقي يسير دون الرصيف، فسقط أرضاً، يمارس أنينا من الصدمة، من رضوض في الرجل، وجرح في الساق.

التعريض بالتدخين، وشرح عواقبه السيئة والدعوة الملحة للتخلي عنه تمتلئ به أرجاء الجامعة، وتراه يستقبلك في (مكة المكرمة): "مكة من دون تدخين" لا تدخين في العاصمة الإسلامية المقدسة، ثم تتطور صيغ التوجيه التربوي الديني للناس لعلهم يعقلون، فرصة للحاج القادم من بعيد ليقاطع وسيلة موت بطيء، أشبه بعملية انتحار، محرمة شرعاً وطبعاً، دينياً وإنسانياً ومالياً، وهل يتفكرون؟ أم على قلوبهم أقفال لعالمهم لا يبرحون؟ فهم لا يفعلون؟

من النفوس نفوس مقهورة، تبقى دون الارتقاء بإرادتها، حتى في عاصمتنا الإسلامية المقدسة (مكة المكرمة) فتجد أناساً غير مبالين حجاجاً ومقيمين ومواطنين.

عند مغادرة المسجد الحرام إلى مواقف الحافلات تحت الأرض للذهاب إلى (منى) عصر يوم (١٤٢٥/١٢/٠٨هـ) سدّت أمامي وأنا أنزل السلم المتحرك زوبعتان قبيحتان من منخرين لرجلين لا تتجاوز المسافة بينهما مترين، وعلى (المدخل) العبارة الصارخة الداعية للإقلاع عن التدخين، لكنهم لا يفقهون! حتى في فضاءات (منى) من هذا المساء ترى أمامك حاجا مهزوماً روحياً، وأصابعه تداعب السيجارة في حنوّ تام، ثم تطّرد الصور على صعيد (عرفات) يوم الحج الأكبر، والمغرم بسيجارته يمتصها حتى العقب بشراهة، تحس معها أن الرجل على صعيد

(عرفات) ببدنه، لا بروحه، كأنما الوقوف بعرفات مجرد فعل رتيب.. ينبغي أن ينجز (جبرا) لا اختيارا عن اقتناع من العمق، وحب غامر للمناسبة، وسعادة بظلال المكان الروحية، وأبعادها الإنسانية، لترميم النفوس، وصقل المشاعر وتهذيب الطباع، وارتواء الأفئدة.

طريقة استقبال الكرم بتوزيع الأكل - أساسا (اللحوم) و(الرز) في صعيد (عرفات) على الحجاج (الفوضويين) غير المنضوين في وكالات الحج وبعثاته ومقاولاته - مؤذية، فهؤلاء جاؤوا بأساليب مختلفة ليحجوا بإمكانياتهم الخاصة، وهم الذين يتهافتون على تناول طعام الصدقات ومياهها، فترى بعضهم في صور مزرية لا تليق بكرامة إنسان جاء يعمق صلاته بخالقه: في حسن مظهر، وسمت، وتعفف، وخشوع. ترى (تدافعاً) على (أكياس) الرز المطبوخ، و(تخاطف) أشبه ما يكون بتدافع الغربان على جثة حيوان قضى قطع اللحم، حتى لترى الواحد منهم حين يظفر بنصف (دجاجة) أو كتف خروف مطبوخ يهرع بعيداً عن الكدسة وهو يمسك بما ظفر به وثياب إحرامه ملطخة.. مبعثرة، يعالج (غنيمته) بشراهة كما يفعل (غراب) انتصر في صراع الظفر بنصيب، سلوك لا يصدر عن مسلم صادق الإيمان، متشربا روح المناسبة، سمت روحه واندحرت غرائزه المؤذية التي يشجع عليها متبرعون بطعام وشراب بأساليب خاطئة.

لن تفارقك في (عرفات) الصور غير الحضارية الغريبة عن قيم الإباء الإسلامي، والكرامة الإنسانية، وعفة النفس السوية، في مقدمتها أشكال من التسول، لاستعطاف حجاج بيت الله الحرام، التسول بادعاء انقطاع السبل، وضياع مال أو سرقته، وأبشعها استدرار عطف الناس بالعاهات البدنية: التي يتصدرها فقدان يد أو يدين، أو رجلين، أو شللهما، ونحو ذلك.

حتى باتت الحاسة السادسة في النهاية تلازم المرء، فتعلن له أن معظم ضروب هذا التسول باتت (مهنة) بل صارت (تدر) دخلاً خيالياً لا يحلم به موظف جاد، وقد نشرت الصحف صورة (مقعد) تماماً، في ثياب الإحرام، مبتور الرجلين، معوج اليد، يهرع إليه بعض الناس عند الحاجة للصرف، فيصرف لهذا خمسمئة ريال (٥٠٠ ر.س) ويصرف لغيره مئتين حين ينعدم هذا الصرف لدى الباعة العاديين، فحين اشترى حاج بضاعة بمبلغ زهيد وقدم خمسمئة ريال للبائع لم يجد في حوزته صرف المبلغ فحوّله لذلك (المقعد) المتسول الذي أعطي في الصحافة اسم (الصراف الآلي) وقد قدمته الصحافة نفسها بوضوح وبالألوان في وضعيته تلك يقوم مقام (صراف) لا تنضب خزانته. وتقاسم الأدوار يضمن له من يأتيه في النهاية لتبتلعه سيارة فخمة ساخراً ربما من المتكدسين في حافلات هرمة، ومنهم من تصدق عليه بالريال، والثلاثة والخمسة. بئست حياة الأنذال، لا عزة نفس ولا كرامة بشرية.

ما أن تتدحرج الشمس متوارية حتى تخلو

ساحات (عرفات) من بائع، وداع خاشع، ومتسول نصاب، فتبدو لك هذه الساحات: كأنها كانت في حالة حرب، من بقايا طعام، وعلب، فيبدو لك التحول من حال إلى حال في أنصع صوره، من فضاء كان يعج بالحجيج وغيرهم: حركة ودوي دعاء وذكراً، وصخبا أيضا، إلى فضاء خلا من كل شيء؟ أليس هو مآل الإنسان؟ أليست هذه صورة للحياة الدنيا الصاخبة بخيرها وشرها تنتهي إلى صمت القبور، لا صوت، ولا رجع صدى.

هكذا تبدو الصورة في (عرفات) عند الغروب: الفراغ، الصمت، آثار تدل على أنه كانت ها هنا حياة هادرة، النهار كله، انتهت إلى صمت يوعز لكل واحد بالمآل، فهل من مُدَّكر؟ أفلا يتدبرون؟ لله الأمر من قبل ومن بعد!

وداعاً (عرفات) مع فضاءاتك.. وصمتك.. ومهابتك.. وظلالك.. نحو (المزدلفة) في الطريق إلى (منى).

نحو (منى) على (مزدلفة)

ما أن همت قوافل السيارات والحافلات المختلفة الأشكال والألوان تتحرك مع مغيب الشمس في (عرفات) إلى (مزدلفة) ومنها إلى (منى) حتى بدأت تتكدس، صفوفاً، حتى يخيل إليك أن القوافل ها هنا ماكثة حتى يدركها الأجل، التفافة طولها نحو خمسين متراً، كلفت الحافلة التي تقلنا ساعتين اثنتين، ثم تستأنف حبوها.. رويداً رويداً، للتوقف نحو ساعة! ما الذي يجري حتى بات من الممكن أن تخلفنا في حبونا أية سلحفاة هزيلة؟

لا أحد يظهر عليه قلق كبير، باستثناء السائق المتحفظ طول الوقت؟ أهي الأولوية لضيوف الدولة الرسميين.. الكثيرين هذه السنة؟ أخطأنا اختيار مرابض حافلاتنا؟ أم كلا الأمرين؟ ربما.. لكن المؤكد أننا دخلنا الطريق الرئيسي إلى (مزدلفة) بعد نحو أربع ساعات من (الحبو) الذي كان دون حبو السلحفاة.

قطعنا مسافة خُيِّل لي معها أننا في بداية (مزدلفة) بهذا رددت على اتصال من الأهل على الجوال، بينما احتجنا إلى نحو ساعة ونصف إضافية لنكون في قلب مزدلفة، مع منتصف الليل.

في (مزدلفة) صلينا المغرب والعشاء، والتقط كل واحد بضع حصيات بصعوبة، فالحصيات على نواصي الدروب في (مـــزدلفـــة) نادرة، وعليك بالابتعاد قليلاً لتظفر بحاجتك لرمي الجمرة الكبرى بعد الفجر، في انتظار الباقي لسائر أيام التشريق.

على صعيد (مزدلفة) تكدس النائمون بشكل فوضوي، على امتداد البصر تحت الأضواء، وهنا وهنالك نصبت (بعضهن) قدوراً لطهي طعام وقلي (بطاطا) وبيعها، كما يعرض آخرون وأخريات فواكه للبيع، مثل التفاح، والموز والبرتقال، مع اطِّراد ظاهرة (التسول) التي تعلن نفسها في كل سانحة!

مع الفجر، كانت الجموع تتدفق من (مزدلفة) إلى (منى) وما أن أشرقت الشمس حتى ازدادت

الكثافة في منطقة (الجمرات) فكان (الزحف) من أعلى إلى أسفل لرمي (الجمرة الكبرى) جمرة (العقبة) في آخر (منى) نحو (مكة) المكرمة.

هناك اصطفت المئات من الجيش، بالزي العسكري، من دون قطعة سلاح واحدة، متأهبين لكل طارئ، كما اصطفت عشرات من سيارات الإسعاف المجهزة بوسائل الإسعاف، وفي الجو تحلق مروحيتان للتنسيق مع العاملين على الأرض؟

كانت عناصر الجيش على أهبة الاستعداد لإحكام الطوق على أي معتد فاجر، أو سارق مغامر، وفك الزحام عند الاختناق، عليك بالحذر، أن ترمي خارج الحوض، أو أن يصيبك حجر من رام جاهل، ما أكثر الذين يرمون من بعيد فيسقط حصاهم دون الحوض وعلى رؤوس الحجاج.

مضيت بتؤدة.. حتى حافة الحوض، فرميت وانسحبت أشق طريقي بهدوء للخروج من الكتل البشرية التي يطبع سلوكها التدافع والحمية من دون سكينة ولا روية، في الدخول والرمي والخروج، هناك اندفاع جارف تغدو فيه أحياناً الأجساد كأمواج بحر هائج مدا وجزراً، هي الحالات التي تتدخل فيها قوات الأمن، كما تدخل في سواها.

تستمر هنا ظاهرة رمي (الجمرة) بالأحذية والأخشاب، وحتى الأكياس، ظنا من بسطاء أنهم أمام (الشيطان) الذي ينبغي أن يأخذ كل واحد ثأره منه! يا لجهلنا بديننا، برموز شعائرنا!

حين كنت أنسحب من بين الأمواج المتلاحقة.. المتلاطمة.. كانت وجهتي (المركز الصحي) لأستعين بحقنة في العضل، على بعض ألم في الطرفين السفليين، فوجدتني أمام حالة أولى ترجمت تحفز المئات من قوات الأمن التي يتجاوز أفرادها في منطقة (الجمرات) وحدها ألفا وخمسمئة فرد. كان هناك عسكريان يمسكان سارقا في (ثياب الإحرام) كان أسود اللون يتصبب عرقه، وراءه حاج للاحتياط، دون فرار المجرم. بعد نحو عشر خطوات: الصورة نفسها تتكرر، وتأتي الثالثة، لسارق ملتح، كان يحاول إخفاء وجهه على الناس، يمسك بعنقه من الخلف حاج، قد يكون الضحية أيضاً، ثم لا ألبث أن أعلم رسميا أن السارقين المقبوض عليهم في هذا اليوم الأول واحد وخمسون لصاً، في ثياب إحرام، كان ذلك بتطهير فعال لساحة مسلمين حجاج يكدّر عليهم مناسكهم الأنذال.

وجوه الأذى، ونفوس الشر تنغص على المؤمنين أمنهم وطمأنينتهم وتحرمهم التفرغ الروحي والذهني في حجهم. أسفت لوجود هؤلاء السفلة في أطهر بقاع الأرض، كما ابتهجت لليقظة الأمنية، متوقعاً صرامة في الجزاء، ومساءلة أولئك المتسولين، من أين جاؤوا؟ ولماذا؟

هنا لا تتأخر صورة (الافتراش) عن الإسهام في الأذى، وتشويه محيط طاهر ينبغي أن يبقى متسما بالنظافة، فهي أكثر اتساعا من (عرفات) لأن المكث في (منى) أطول، حيث تحتل الجموع ممن جاؤوا ربما بشكل فوضوي للحج: الأرصفة،

فتفترش الأرض، أو تقيم خيما سياحية صغيرة محمولة على الكواهل، ويكتفي بعضهم بالاستلقاء على الأرض من دون فراش، ويكتفي آخرون بافتراش ورق مقوى (كارتون).

لماذا جاء هؤلاء؟ ومن أين؟.. من أكثر من مكان، وبزعم الحج الذي يعني من استطاع، وهؤلاء منهم المتكلف وربما المرائي، ومنهم المستطيع لكنه (المقتصد) وهم من آلاف (الفوضويين) الذين لا يرتبطون بوفود أوطان ولا بوكالات حج ولا بحملات حجاج داخل ولا خارج.

هم يحجون أو يقولون ذلك، لكنهم يسيئون للإسلام، ويحرجون المسلمين، وكانوا سببا في تدافع أودى بحياة مئات في سنة (١٤٢٤هـ) وزاحموا (الرماة) هذه السنة في (الجمرات) وتسببوا في مشاكل، بسلوكهم وبأمتعتهم، يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، على ساحات (عرفات) و(منى) وأرصفتها وحتى طرق مشاة وسيارات، وقد (يتطفل) بعضهم على مطاعم رسمية لحجاج رسميين مموهين، ليطعموا ويشربوا مجاناً، ويأكلوا حراما.

الخزي والعار قبل الختام لكل مسيء للمسلمين وللإسلام، ممن يستهدفون المسلم في أمنه وماله وروحه، ويشوهون الإسلام في صورته وجوهره، حتى بالغُلوّ في أوامره ونواهيه.

وما أكثر مظاهر هذا الغلو منها (الاعتقاد) بأن حصى الرمي في الجمرات ينبغي أن يكون من (مزدلفة) وأن يكون مغسولاً، فتعدد تجار الحصى (المجلوب) من (مزدلفة) يقسمون بأغلظ الأيمان أنه من هناك، ومغسول، حتى صار حصى (مزدلفة) أغلى من الذهب. ومن ذلك أيضاً حرص ابن السبعين على جلب (الحصى) من قمة جبل (منى) فوصل وكان على وشك أن يلفظ أنفاسه هناك بين الصخور العتيدة، لولا الإشعار من (المروحية) السعودية التي تنبهت له، فهرعت إليه قوة إنقاذ أخرجته من الوهدة بمساعدة المروحية نفسها، وهو بين الحياة والموت.

هل يقل عنه غلوا هذا الشيخ المحمول على (عربة) وهو يرفض (التوكيل) في الرمي، ويصر على أن يدفع عربته وسط الزحام حتى الاختناق بين الجموع، أما هذه المرأة العجوز ذات التسعين سنة، فقد رفضت كل نقاش وأصرت على ولدها أن يحملها على كاهله حتى حافة الحوض لتضع فيه الحصيات بنفسها.

إنه الغلو في الدين الصورة الأخرى التي تسيء إلى إسلامنا السمح حتى جعلوا بسلوكهم: من يسره عسرا، فأغلقوا باب الرحمة الذي أراده الله لأمتنا بابا مفتوحاً، لا إفراط ولا تفريط.

وتبقى (منى) في كل الأحوال.. محطة كبرى، من محطات أكبر مؤتمر عالمي، يملأ الإسلام فيه أرواح المؤمنين الصادقين، لا فرق بين عربي وأعجمي ولا بين أبيض وأسود إلا بالتقوى!

بين خيمتي (عرفات) و(منى)

استقر الجميع تحت سقف خيمة واسعة الأرجاء.. بين آلاف الخيم التي كاد يفيض بها صعيد (عرفات) كل امرئ جلس حيث شاء..

واستطاع، إنه التاسع من ذي الحجة، الطعام والشراب مبذول كل الوقت.. في هذا المقصف المتنقل، وقد احتل مساحة قرب مدخل الخيمة في عرفات.. وآثر بعض الاستقرار قربه.. تجنبا لأدنى جهد ينجم عند الرغبة في لجة من طعام، أو عصير، أو قهوة أو شاي أو نحو ذلك.. لا شاغل منطقياً خارج هذا إلا قراءة في كتاب الله، وانصراف المرء لخالقه، داعيا لنفسه وأهله ووطنه وأمته الإسلامية جمعاء، استئناسا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير".

السكينة التي تطبع فضاءات المكان تغري بهذا، وتزهد في غيره، لكن من الناس من يرفض الزهد في لغو الكلام، ويرفض الكف عن إذاية الناس بلسانه، وبنظراته وحركاته، ولا يتجاوز سمعه إلى عمقه وروحه في (عرفات) قول الله تعالى: {فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج} فللفسوق أشكال من الممارسة، الجدل حالة لا تبرح نفوسا طبعت على الأذى، فلا تهنأ دون الخوض فيه، حتى في الحج نفسه، مؤتمر المسلمين أجمعين.

اخترت لي تحت سقف (الخيمة) مكانا نأيت فيه عن (المكيفات) تحاشيا لضررها بالنسبة لي، فرغت من صلاة ركعتين ودعاء، ثم أخذت لي من المقصف على بعد أربعة أمتار مني كوبا من القهوة، ثم اندمجت في التلاوة بعض الوقت، في لحظة استراحة ما.. كنت في حالة وجوم سارحا بالنظر في الفضاء عبر بوابة الخيمة.. حين جلس قربي.. مَنْ لا أعرف من أين أتى؟ ولم أره في تجمع السفر، ولا في الحافلة، ولا حتى في خيمتنا بمنى! أغرب ما في الأمر أنه خاطبني باسمي، محييا بكلمة (صباح الخير) لا بتحية (السلام عليكم) نما في نفسي شيء من بذور ودّ في البدء سرعان ما شرع التلف يصيبها.. وأنا أتأمل الرجل وحركاته وكلماته.. وفضوله المعقول إلا في هذا اليوم.. في هذه المناسبة.

لم يكتف بالسؤال عن تخصصي في الجامعة، ولا عن ظروف عملي، وعلاقاتي، ممعنا في الخصوصية - ياللغرابة - عن راتبي في الجامعة، وأهلي وأولادي، وإن كانوا جميعا معي.

كنت في البدء أجيبه باقتضاب، حين وصل إلى حديث (الراتب) و(الأهل) قلت بامتعاض واضح: هذه خصوصيات لا تعني أحدا سواي، ولا تعنيني أنا اليوم، ثم أخذت (المصحف) استعداداً للتلاوة، فأدركته الرسالة سريعاً تقول له: "رُفِعَت الجلسة".

ما تحركت بعد ذلك في (الخيمة) داخلا أو خارجاً، أو رافعاً بصري من تأمل وقراءة.. إلا ورأيته يدور بين الناس، يحادث هذا ويمازح ذلك ويعلق على أمر، في حالات سكينة معينة كتلك التي صحبت فراغنا من الصلاة ترى عينيه لا تكلان من الدوران بين الناس.

لم أره قط، ولم أرتح إليه تماماً، فهو إنسان

غير سويّ حسب ما عكست ذلك أفعاله التي اطردت معنا، في خيمة (منى).. فهو (عالم دين) يفتي، و(رجل سياسة) عنده علم اليقين، لا ينم فيه شيء ما.. مهما كانت ضآلته عن بذرة إيمانية.. كل ما فيه ينم عن فكر (غير سويّ) يصلي مع المصلين طبعاً، وبدأ يمارس حركات تقدمه في صورة التقي النقي، وإن لم أره نهض لصلاة فجر، بل رأيته في (منى) ينام في صف مقابل إلى الصف الذي أنام فيه حتى ما قبل الظهر بقليل، معلنا في الناس: أن الذين ذهبوا للرمي قبل الزوال: رميهم باطل، فأية (رخصة) مردودة، أما الذين أفتوا بجواز (الرمي) على مدار الساعة فهم (ضالون) ! حين واجهه أحدهم، ردّ بحزم: أنت رميت قبل الزوال، إذن حجك باطل، انظروا يا قوم: هذا رمى قبل الزوال، بحجة (التعجل) كان ذلك قبل منتصف النهار في الثاني عشر من ذي الحجة، لماذا التعجل: أنا سأضيف يوماً آخر هنا عن (أيام التشريق) فمن يرافقني؟

ثم لاذ بالصمت الكئيب، وهو مصب نظرات ساخرة، فيها بلاغة وبيان! ربما كانت تلك آخر صورة رأيته عليها، فقد عصفت ريح عاتية، كان بعض يتأهب لآخر رمي، وآخر يجمع أشياءه للإقلاع قبل صلاة العصر، واختار بعض زيارة مقصف المخيم: للاستعانة على المكابدة في طواف الوداع مساء.

شرعت الريح تربك الجميع، مع رذاذ مطر يتحاشاه بعض ولا يبالي به آخرون، فمنهم من بكّر بالذهاب إلى الطواف باكراً، أو بوسيلة نقل عمومية، أما الأغلبية فقد مكثت، المتعجل منهم والمتأخر، فالمتأخرون لإتمام اليوم الثالث عشر هادئون، ومنهم نائمون، أما المتعجلون فقد دعوا إلى ركوب الحافلات في الساعة الثالثة بعد الزوال، للانطلاق إلى طواف الإفاضة، أو الوداع، أو هما معاً، حسب حال كل حاج، وخطواته في المناسك.

في قلب السيول!

ريح عاتية سرعان ما هدأت، تبعها صمت مريب، في حناياه شيء ما توحي به غيوم تعم فضاء (منى) وسحب كثيفة تنزل بكلكلها على الجبال المحيطة، في هذا اليوم الثاني عشر من ذي الحجة ١٤٢٥هـ وقد أخذت جموع من الحجاج المتعجلين مواقعها في حافلات (الوكالات) و(الحملات).

كانت الحافلة التي امتطيناها رابضة أمام المخيم، وقد امتلأت كراسيُّها، لا أعلم ماذا كان المنظمون ينتظرون.. هو الارتباك الذي طبع برنامج النقل، وجعل حجاجاً معنا يحتجون عن هذا الارتباك الذي يتسبب في تأخر بعض دون غيرهم.. لخلل ما.. وتسيب.. يبقى مصدره مجهولاً.

أما الثابت فقد بدأت قطرات المطر تستحيل سيلا من السماء سرعان ما جاوبته سيول الأرض، يهطل المطر، يهطل، يشتد هطوله، ونحن على الحافلة، فجأة تنهمر السيول من الأعلى، من خلفنا، وعلى يمين حافلتنا وشمالها، تدفع السيول

بسيارة صغيرة فتدكها في حافلة أمامها، وتقذف بسيارة أخرى، على الرصيف، فتحاصرنا الأمواج، فيتسرب الفزع إلى النفوس، يكبر الفزع.. يكبر والسيول تسحب من الأعالي في (مجر الكبش) الحجارة والأتربة، والدراجات النارية نفسها، فتداهم الأمواج الخيام، وتشرع في كنس ما بداخلها، من أفرشة وأغطية وأرائك وأمتعة ومؤن وغيرها.

ما هي إلا لحظات حتى كبرت الأمواج حاملة معها كل ما بداخل خيمنا، من حشايا، وأغطية ومخدات وحقائب ونحوها، حتى الشارع، وبدأت تعيق تدفق السيول التي كانت تحاصرنا من كل جانب، وقد بدأ يتكدس حوالينا على الحافلة في الشارع بعض من تلك الحشايا والمخدات والأرائك؛ فاستقر بعضها تحت الحافلة، والتصق بعضها الآخر بجوانبها مفسحاً المنافذ.. السيل ينحدر إلى أسفل، والعيون مشدودة إلى تكسر الأمواج على الجدران، والحافلات، حاملة معها إلى أسفل كل ما اعترض طريقها إلى المنحدر نحو الهاوية، وحافلتنا بما عليها ومن عليها، رغم ضخامتها وقوتها وثقل حمولتها التي تشدها إلى الأرض باتت مرشحة كلقمة سائغة في فم الأمواج العاتية التي توشك أن تبلغ النوافذ فتقتحمنا منها في الحافلة، صخبت الأرض وأظلمت السماء، أرعد الجو، حتى يخيل للمرء أنه قاب قوسين أو أدنى من هلاك محتوم.

بجانبي شاب: أخرج جواله، وراح يودع زوجته باكيا، يوصيها خيراً بطفلهما ثم ينتقل إلى أمه وهو يذرف الدمع يطلب رضاها ومسامحتها، ويلح عليها أن تطلب الرضى والسماح من أبيه، معلنا أنه في الطريق إلى الآخرة.

لم يكن وحده في ذلك، كان نحيب النساء في الحافلة واضحاً، ودموع بعضهنَّ مدرارة، وبعضهن الآخر يعشن الوجوم والذهول، وأصوات الدعاء والاستعانة ترتفع من جوانب الحافلة، برز فيها صوت أستاذ جهير وقف في الممر وسط الحافلة مرددا: "يا مغيث أغثنا" فيردد الشاب الباكي معه، كما يردد مع غيره: "يا لطيف ألطف بنا" ويتلو بعض سورا من القرآن الكريم، ويكرر بعض آيات معينة {يا أرض أبلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء واستوت على الجودي} كما يلوذ آخرون بأدعية أخرى، ويبقى بعض آخر صامتا ذهلاً، وربما نطق متوسلا إلى الله اللطف في القضاء، في سرِّه أو في خفوت دعائه، راضياً بما يقضي اللّه ويقدر، من دون أن يبرحه التفكير في أهله، ووقع الخبر عليهم بهلاكه.

يستمر هطول المطر، وترتفع الأمواج، تعيث في الخيم، وتحمل محتوياتها إلى الشوارع، فتصطدم الأشياء والأمواج بالجدران والحافلات محولة الشوارع إلى أودية صاخبة، وصيغ الدعاء ترتفع من جنبات الحافلة: "لا إله إلا اللّه العظيم، لا إله إلا اللّه رب العرش العظيم، لا إله إلا اللّه رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم" "اللهم حوالينا، لا علينا" ويكمل آخر (اللهم على الآكام

والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر، حوالينا، لا علينا".

يلح الأستاذ الدكتور المنتصب في الممر وسط الحافلة، يلح على الركاب في ترديد الدعاء محذرا المذعورين من الاندفاع إلى جانب الحافلة لمراقبة الموج، خوف ميلانها وسقوطها وسط الأمواج العربيدة، كل ذلك وهو يردد في فزع واضح الأدعية، مركزاً على صيغتي "يا مغيث أغثنا" "اللهم حوالينا لا علينا"!

في لحظة ما اقتحم ذهني مآل ذلك (الانسان غير السويّ) في ثوب إنسان بالمخيم، يتهم الجميع بقلة علم، أو علماء سلطان، على جرأة عجيبة في (الإفتاء) يدس أنفه في كل صغيرة وكبيرة، مشغولا بحركات غيره وسكناتهم، فخيل إليَّ وقد داهمته الأمواج في مرقده أنه نهض مرعوباً واثقاً في الوقت نفسه، معلنا أنه سيأوي إلى جبل يعصمه من الماء، كما فعل (ابن نوح) الضال، الرافض لنصح أبيه؛ لا عاصم اليوم من أمر الله، حتى حال بينهما الموج، فكان من المغرقين.

سرعان ما استحال هطول المطر رذاذاً، ثم توقف تماماً، لكن السيول لا تزال مندفعة، استبشر الركاب خيراً بتوقف المطر، وبقيت أعينهم مشدودة إلى السيول المندفعة، والأستاذ يلح في الدعاء، يا ناس تابعوا الدعاء، تابعوا، الدعاء مفيد، ها هو ذا المطر يتوقف، ها هو ذا المطر يتوقف، ها هو اندفاع الأمواج يخف.. انظروا.. انظروا هنالك، ها هي حافة الرصيف تظهر.. اللهم لطفك.. تابعوا الدعاء يا إخواني.. تابعوا، الله استجاب.. ها هو ذا الفرج.

لحظة سمحت بتقدم عناصر (الدفاع المدني) منا، محذرين لنا من النزول، ثم بعد دقائق أقدموا فنظموا إجلاءنا من الحافلة إلى الشارع، وقد هدأ كل شيء رغم المياه الخفيفة التي لا تزال تسيل في الشارع، فاقتحمت وسط الماء والطين باب مخيمنا الذي كان عامرا منذ ساعتين بالغادي والرائح، فبات ممزق الحنايا، أطلالا، كأن لم يكن هنا ذات يوم بشر.

وجدت الأوحال تملأ المكان، اختلطت فيها بقايا الأشياء، وضاعت كل المعالم، تعبّر عن هول التحول من حال إلى حال، فجسدت الصورة هنا بوضوح على الطبيعة صورة المد البحري الزلزلي في (آسيا) وغيرها (تسونامي) الذي كان هولا عالميا، وكارثة إنسانية. ولله الأمر من قبل، ومن بعد، وهو على كل شيء قدير، فعال لما يريد، رؤوف رحيم بعباده المؤمنين.

بين طواف قدوم ووداع

تتحرك الكتل البشرية متراصة حول الكعبة المشرفة في مكة المكرمة في ثامن يوم من ذي الحجة (يوم التروية) من هذه السنة (١٤٢٥هـ) كآخر يوم لطواف قدوم لحجاج جاؤوا من كل فج عميق، من حجاج داخل وحجاج شتى البقاع من

القارات الخمس، وتتكرر الصورة نفسها في (طواف الوداع).

تتحرك أمواج من الحجاج ككتل تتراص، لا يزال الظهر متأخرا، تمضي وسط الأمواج التي تتحرك في بطء، يصير توقفا للحظات على مستوى الحجر الأسود، لا مكان لقدم إضافية إن لم يكن لها منطلق ما في فرصة ما.. الوصول إلى (الحجر الأسود) يكاد يكون المستحيل الأول في هذه الأيام.

تسمو روحك، تحلق في فضاء روحي نوراني والعرق يسح سحا من بدنك رغم السحب المتلاحقة وإطلالة شمس حبيبة متأنية أو كالمتأنية، تفقد الإحساس بما حولك، بقدميك. قدماك لا تحتاجان أيضاً منك لدفعهما، فهما يندفعان أو يدفعان دفعا في الكتلة الكثيفة، إنها أمة (محمد) صلى الله عليه وسلم كالجسد الواحد، ليت ذلك تألق فتجاوز الأبدان إلى الأرواح، كما يوحي بذلك الحديث النبوي الشريف.

تمضي روحك مشرقة مجنحة ساهية تماما عن آلام بدنية، عن متاعب جمة بل ناسية لذلك، هناك طاقة جديدة لا عهد لك بها خارج المكان واللحظة، تحسبها تسري في شرايين جسدك تمضي وقد يحدث (كدر) ما.. رغم سموك الروحي في أقدس بقعة على وجه الأرض! ومتى خلت حياتنا المادية والروحية من أكدار؟ حتى حول بيت الله الحرام؟ لبعض الأكدار مبررات معقولة ولا مبرر لأخرى غيرها!

من الأولى، هذه الصورة لمواطني (دول) تكاتفت عناصرهم متماسكي الأيدي والأبدان، فكونوا ما يشبه القطار التحمت عرباته التحاما لا تنفصم عراه، فلا حركة للاحق لهم إلا بحركتهم، وتتكرر صورهم بشكل أشد في السعي لدرجة جعلت مرات عديدة الكتل البشرية تتوقف منتصبة طويلا كأنما الجميع أقاموا أمام (إشارات مرورية ضوئية) في لحظة الذروة. ومن الثانية في الموقف المؤسف جدا الذي كان له الفعل الجارح في النفس في لحظة سمو روحي في الجموع المتراصة حتى الذوبان حول الكعبة المشرفة: فقد انطلق وسط الموجة صوت في وقت مدروس بكلمات حق صار لها لبوس مريب: ردّد الصوت العالي حريصاً على إسماع كل من استطاع أن يبلغه صوته (لا إله إلا الله محمد رسول الله وأن الحسن والحسين حفيدا رسول الله صلى الله عليه وسلم...) إلخ من كلمات فاتني ضبطها، فقد كنت خارج فضائها الأرضي، قوتها و(قصيدتها) أفسحتا لما علق بالذهن من مطالعها فسحبت الذهن من فضاء روحي.. إلى فضاء مادي على الأرض.

تجاوبت مع الصوت لخطة مسبقة حسب السرعة بضعة أصوات (أحصر بضعة وليس غير) مرددة الكلمات نفسها بعض الوقت لينطق قربي صوت أول مناوئ ثم ثان فثالث، فدعا هؤلاء الناطقون المناوئون بالسوء على أصحاب (البدع) ودعاة (التفرقة) ثم أضاف ملتح بجانبي بصوت

جهير: اللهم ردّ عليهم كيدهم في نحورهم وبصر المؤمنين بهم، فردّ عليه صوت من المجموعة الأولى وهو يمسك زوجته ويلتصق بها في الموجة المندفعة: لماذا هذا الدعاء؟ ماذا يزعجك في كلامنا؟ فردّ الشاب الملتحي من دون التفاتة لصاحبه يساره: اعفونا من دسائسكم إنكم تفسدون علينا عبادتنا.

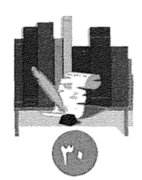
كل هذا يبلغ سمعك بوضوح في لغة استفزازية واضحة، مما يشعرك بوجود قوم في الحج بأبدانهم لا بأرواحهم، وهم يمارسون بعناد وإصرار سلوكا منهيا عنه شرعا، في الحج نفسه، فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج؛ فتتراجع ظلال الصورة الروحية العميقة في حضور النزغ السياسي والنعرة الطائفية والأهواء الحزبية.

{ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه} لمن كان ذا عقل، فوعى؛ دون ذلك الذين قد يصير قبول (حجهم) عند الله أمراً مشكوكاً فيه، بل هو مردود كما عبر عن ذلك (ابن عمر) رضي الله عنهما حين قال: "الركب كثير والحاج قليل".

انطلقنا لرحلة الأمل والشوق من (الجامعة) في (جدة) وإلى نفس الموقع كانت العودة. حُجَّ.. وكرّر حجك التطوعي، فلن يفتر حنينك إلى هذه الفضاءات الربانية، لن ينطفئ: عمرة.. وعمرة.. وعمرات.. فما أن يصل موسم الحج حتى يغمرك إحساس غامر من الشوق والحنين لممارسة تلك المتعة الروحية في فضاء رباني غامر، وقد لا تصمد حججك في الرضى بما سلف.. وبما تنجز من (عمرات) قد لا تجديك مبرراتك في كونك أديت الفريضة وينبغي عدم المضايقة للأفراد الآخرين ممن يحجون للمرة الأولى، فترى في ذلك شيئاً من إثم، قد يتأكد هذا الإثم حين يخالف المرء قانون البلد الذي لا يسمح للمرء بالحج مرة أخرى إلا بعد خمس سنوات، فتخامر نفسك نية للتحايل على ذلك بسبل مختلفة، لتكرار الحج من جديد فتحس أن هذا التحايل قد يكون ضربا من الغش؟! أتسمح لنفسك بالغش؟ أتستطيب (ثوابا) تناله بإثم؟ هنا حيرة ما!.. تدخلك في حوار مع نفسك وصولاً إلى طمأنينة كنت دائماً تنشدها.

حضرت هذه الطمأنينة النفسية وهذا الصفاء الروحي مع رضى الضمير وقد انقضت خمس سنوات بتمامها وكمالها عن حجك الأول (الفرض) فلتشد الرحال! هكذا جاء الصوت من أعماق النفس للانغماس في هذه التجربة الروحية التي بدأت بطواف قدوم وبسعي، وانتهت بطواف وداع.

وما رأيت هذه الحشود المتراصة في الحج السابق ولا في عمرات عديدة حتى في العشر الأواخر من رمضان، بل في السابع والعشرين منه، إنه الحج، فما أروعه! ما أروعه حين يكون هذا الحج (مبرورا) من دون رفث ولا فسوق ولا جدال؛ فلا جزاء له إلا الجنة، اللهم ارزقنا إياها مع المؤمنين الصادقين ولا تؤاخذنا بما يفعل الظالمون منا، ممن لا يراعون حرمة بيتك، ويخدشون وحدة أمتك التي اجتمعت على حبك وحب نبيك وإخلاص العبادة لك دون سواك ■



التصوير الفني في القرآن الكريم

تأليف: الأستاذ/ سيد قطب

احتلّ هذا الكتاب مكانةً مرموقة في الدراسات البيانية لكتاب الله سبحانه وتعالى، فمنذ صدر من أكثر من نصف قرن، وكاتبو هذه الدراسات يتفيئون ظلاله، ويستمدون من أفكاره، لأنه كان فتحا جديداً في تفهم الصورة البيانية الرائعة في كتاب الله، ولا أقول إن المكتبة العربية لم تحفل بكُتُب تتحدث عن الصورة البيانية، ففي الصفحات التي سطرت في هذا الكتاب عشرات الشواهد الناطقة بهذا الاحتفاء، ولكن البحث في التصوير الفني على النهج الذي ابتدعه مؤلف الكتاب الأستاذ النابغة سيد قطب رحمه الله كان جديداً في أسلوبه، جديداً في تعبيره، جديداً في تقسيمه، منبسطاً في شموله، ذلك إلى احتوائه على نظريّة أدبية تجمع خصائص البيان القرآني كما ارتسمت في ذهن الكاتب الكبير، وقد تعددت طبعات الكتاب، وقامت عنه دراسات مستقلة في رسائل جامعية، مما يثبت مكانته القوية في الدرس البياني.

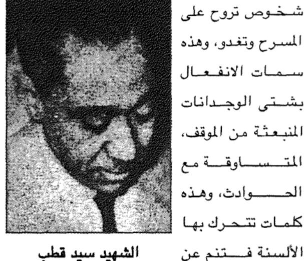
يتلخص الهدف المباشر لهذا الكتاب في سطور قويّة واضحة عبّر عنها الكاتب الشهيد الأستاذ سيد قطب في قوله الحاسم: (١)

"التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبّر بالصورة المحسّة المتخيّلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حيّ، وإذا الطبيعة البشرية مجسّمة مرئية، فأما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيردّها شاخصة حاضرة فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة، وحتى ينقلهم نقلا إلى مسرح الحوادث الأول الذي وقعت فيه أو ستقع، حيث تتوالى المناظر، وتتجدد الحركات، وينسى المستمع أن هذا كلام يُتلى، ومثل يُضرب، ويتخيل أنه منظر يُعرض، وحادثٌ يقع، فهذه



أ.د. محمد رجب البيومي

عضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

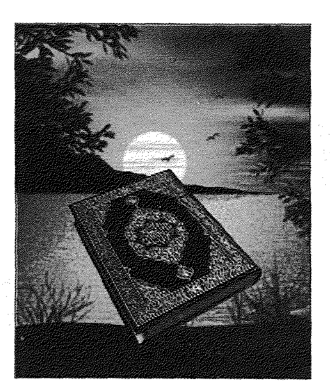


الشهيد سيد قطب

شخوص تروح على المسرح وتغدو، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات المنبعثة من الموقف، المتساوقة مع الحوادث، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة فتنم عن الأحاسيس المضمرة، إنها الحياة، وليست حكاية الحياة".

هذا هو المعنى الأدبي الذي يدور حوله الكتاب، وهو معنى تتّسع مئات الصفحات للاستشهاد على واقعه الملموس من كتاب الله، لأن الصور الأدبية في القرآن الكريم تعبر عن جلّ المعاني التي نزل بها أفصح كتاب يقرؤه الناس، والإحاطة بهذه المعاني تفسيراً وتحليلاً وتصويراً وتعبيراً ممّا تتسع له عشرات المجلدات، وقد أجاد المؤلف فيما رسمه من التحديد الدقيق لما يريد من التصوير البياني لهذه المعاني حيث رتّبها في عناصر محدّدة، ومع كل عنصر استشهاداته الدالة بحيث انطلق البحث البياني متسلسلاً واضحاً، تقرؤه وكأنك من شدة استمتاعك تقرأ قصة جميلة، ولا تطالع بحثاً علمياً، والكاتب الممتلئ بحقائق موضوعه يريح القارئ حين يسير به في خط مستقيم يبعُد عن الالتواء، أما الكاتب الذي لا يعرف هدفه العلمي بوضوح فيتنقل بقارئه من موضوع إلى موضوع، ومن خاطرة إلى خاطرة دون أن يكون له صراط واضح يسلكه، وقد كان المؤلف الكبير متشبعاً كلّ التشبع بفكرة موضوعه، محيطاً بدقائقها العميقة، متمتعاً بنعمة البيان المشرق، مخلصا كل الإخلاص في صدق التعبير عما يحس ويشعر وبذلك كله قدّم للدارس مفتاحا جيدا لأبواب كثيرة من البيان القرآني كانت موصدة مغلقة، فجاء هذا المفتاح لتنفرج الأبواب في يسر، فيتيح للقارئ أن يلج إلى شاسع الأبهاء، وأنيق الحجرات، شاكراً للمؤلف ما وُفق إليه من التسديد والإتقان.

قال الأستاذ إن القرآن يعبّر بالصورة عن اتجاهاته الفكرية في كل موضوع وحدّد هذه الاتجاهات في عناصر واضحة بدأ في سردها مشفوعة بالأدلة الكثيرة من نصوص القرآن، وسأشير إلى هذه العناصر مكتفياً ببعض الأمثلة



الدالة أمّا الإحاطة بكل ما كتب المؤلف فموردها كتابه الحفيل

تحدث الأستاذ أول ما تحدث "عن المعاني الذهنية التي تخرج في صورة حسّية" نذكر من أمثلتها قول الله عز وجل "إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط"(٢) وقوله تعالى "مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون على شيء مما كسبوا" وقوله تعالى "يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمَن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب أصابه وابل فتركه صلدا" (٣) ولا أستطيع أن أوالي ما استشهد به في كل عنصر لأن معناه أن أنقل الكتاب جميعه، والقارئ الدارس يرى المعاني الذهنية في صور شتى في صورة الجَمَل الذي يستحيل أنْ يلج سمّ الخياط، وفي صورة الرماد الذي اشتدت به الريح في يوم عاصف، وفي صورة الصفوان الذي اكتسح المطر ما عليه من التراب فلا ينبت شيئاً!

هذا عن المعاني الذهنية كما صوّرها كتاب الله، أما تصوير الحالات النفسية والمعنوية فقد استشهد له الكاتب بآيات بينات منها قوله تعالى "قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا " (٤)، وقوله عز وجل "واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين، ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث" (٥) ومثل قوله تعالى "أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم" (٦)، ولا أبرع من تمثيل الضال عن سبيل ربه بالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى فلا يستطيع، وتمثيل الذي كفر بآيات الكتاب بعد أن عرفها واتبع هواه بالكلب يلهث إن تحمل عليه وإن تتركه، وتمثيل المنافق المتذبذب بمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم" وكُنت أوثر أن يأتي المؤلف بالآية كاملة دون حذف ليشّع نورها على وجهه المضيء! لأن ما تركه الأستاذ من التذييل السديد يخدم الفكرة التي اتجه إليها التصوير البياني وهو مأخذ له وجاهته ولعلّ المؤلف يعلم أن القارئ يحفظ سلفا كتاب الله، فهو يقرأ الآية جميعها من خاطره ولكن ليس جميع القراء حَفَظَه، بل منهم غير المسلم الذي لم يقرأ الكتاب أصلاً!

أما النموذج الإنساني المجسم للعيان كي يعبّر بتجسيده الشاخص عن حالته النفسية فقد مثل له الأستاذ بمثل قوله تعالى {ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون} (٧) وقوله عز وجل "ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل" (٨) وقوله "ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا

أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال، رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت" (٩) والصور الثلاث تعطي المثل المجسم الناهض للعيان، مثل الذي صعد في السماء ورأى الحقائق فلم يؤمن بها، وقال إن عيني قد سكرت وإني قد سحرت، ومثل الذي يجادل عن الباطل بلسان ألدّ، ويُظْهر البراءة الكاذبة مع أنه إذا ملك الزمام أفسد الحرث والنسل، ومثل الذي أدركه الرعب فزاغ بصره وجعل ينظر لمن حوله نظر المغشي عليه من الموت! تلك صور لا يكفي أن يعبرها القارئ دون أن يتخيلها بذهنه وأن يقف أمامها مطيلا التأمّل، وهو لا يشبع من ترداد النظر، لأن أثرها النفسي لا يُغالب.

وأتابع هذا التصوير في اتجاهاته المتنوعة لأستشهد ببعض ما ذكره عن التصوير المشخّص للحياة الواقعة، وقد اختار الأستاذ فيما اختار قول الله عز وجل "يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها، وكان الله بما تعملون بصيرا، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً، وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً" (١٠) والمشهد في غزوة الأحزاب وما نزل بالمسلمين من الرعب إزاء اجتماع القبائل كلها على حرب القلّة من المسلمين لا يفصح عنه غير هذا التصوير الرائع!

أما الأمثال القصصية التي تعرض لها الدارس تعبيراً عن اتجاهها التي في التصوير الملموس، فكيفى أن أشير إلى بعضها لأن كل تقي كريم يشمل قصة بأثرها، كقصة أصحاب الجنة في سورة نون، حين أقسموا ليصرمُنّها مصبحين فطاف عليها طائف من ربك، وقصة صاحب الجنة في سورة الكهف الذي قال لصاحبه أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا، وقال عن جنته: ما أظن أن تبيد هذه أبدا، وما أظن الساعة قائمة، وقصة إبراهيم وهو يرفع القواعد من البيت، وقصة نوح وهو ينادي ابنه: اركب معنا ولا تكن مع الكافرين، فكلّ هذه القصص قد اختار الأستاذ آياتها البينات ليبرز موقعها النفسي من خلال روعتها التصويرية، والقصة بتأثيرها القوّي تنفذ إلى أعماق القارئ دون حجاب، ولكن المؤلف يُرسل الأضواء الكاشفة ليعطي مزيدا من التأثير وفيضا من الإحساس.

ثم انتقل إلى إيضاح مشاهد القيامة من نعيم وعذاب فوصف آيات الزلزلة والحشر والنعيم والعذاب كما وردْت في سياقها، وكلها مشاهد تصويرية تفوق قدرة الباحث عن سماتها الأصيلة، وللمؤلف كتاب مستقلّ عن مشاهد القيامة سأتكلم عنه بعد حين،

التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن الكريم (سيد قطب)

التناسق الفني.. هو في رأيي أبدع أبواب الكتاب

محمد رجب البيومي

وكأنه أحس أن كتاب التصوير مهما حفل بالنماذج المصورة لا يكفي لإيضاح مافي القرآن الكريم من روعة خالبة في تصوير هذه المشاهد، فخصها ببحث منفرد.

وتتوالى فُصول رائعة عن التخييل الحسيّ والتجسيم، وعما يسمى بالتشخيص لدى أصحاب النقد الحديث، وقد ألهمه الله في اختيار النصوص الدالة على تقرير آرائه الفنية، لأن سلامة الاختيار هي أول خطوات النجاح في تحليل النصوص الأدبيّة عامة والنص القرآني بنوع خاص، وأعْني بسلامة الاختيار التوفيق في انتقاء الآية المناسبة للسمة الأدبية التي يتحدث عنها، وإلا فالقرآن كلّه منتقى مختار، وجهد الدارس في أن يَعْلَم موضع الآية من العنوان الأدبي الذي تندرج تحته، إذ أنّ كثيراً من الدارسين لا يوفّقون في تحليل النصّ القرآني على وجهه الصحيح، إذ يكتفون بالملمح البياني الظاهر غافلين عما وراءه من الرمز، وما يوحى به من المثل، ولعلّ أقوى الأبواب في هذا الكتاب هو باب (التنسيق الفني) إذْ أحْسن المؤلف إيضاح درجات هذا التناسق البديع، فبين كيف يأتي التنسيق في تأليف العبارة حين يُختار لها اللفظ المناسب مندرجاً في سياق كلُّه منتقى مختار، كما يأتي التنسيق فيما يحدثه اختيار اللفظ المناسب من إيقاع موسيقي لا يقف عند الصوت الظاهري بل يتغلغل في ما وراء الصوت من معانٍ مرتبة متساوية في نسق يبدع الإيقاع الداخلي ومن وراء ذلك يأتي التسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات، والتناسب في الانتقال من غرض إلى غرض وقد قال الكاتب إنّه في هذا البحث لا يريد أن يكرر ما قاله البلغاء من قبل، ولكنه يحاول أن يأتي بالجديد مما فتح الله به عليه، وهُنا أتى بعدّة أمثلة للفظ القرآني الموحى مثل (إثّاقلتم) وإن منكم لمن (لَيُبَطِّئَن) ومثل (أنلزمكموها) وأنا أعرف أن هذه الألفاظ قد تحدث عن إيقاعها الصوتي وأدائها المعنوي بعض المفسرين والجديد عند المؤلف أنه سلط عليها الضوء، وهو صادقٌ حين يقرر أنه لم يطالع شيئا عنها، إذ ليس في وسعه أن يقرأ كل ما قيل في هذا المجال، وقد حاولت أن استشهد بعض الأمثلة الدالة على إصابة الباحث الكبير في تحليله البياني فرأيت أني أظلم نفسي إذ أختار وأترك، لأن الجميع جيد مختار، وحسبي أن أقول إن موضوع (التناسق الفني) هو في رأيي أبرع أبواب الكتاب، وأكثرها توفيقا وقد ختمه بقوله (١١)

"وهكذا تنكشف للناظر في القرآن آفاق وراء آفاق، من التناسق والاتساق، فمن نظم فصيح إلى سرد عذب، إلى معنى مترابط، إلى نسق متسلسل، إلى لفظ معبر، إلى تعبير مصور، إلى تصوير مشخص، إلى تخييل مجسم إلى موسيقي منغمة، إلى اتساق في الأجزاء، إلى تناسق في الإطار، إلى توافق في الموسيقى إلى تفنّن في الإخراج، وبهذا كله يتم الإبداع، ويتحقق الإعجاز".

وهذه الأوصاف جميعها قد استدل عليها الباحث بنصوص واضحة من القرآن، أحسن عرضها وتحليلها، قبل أن يوضح مكان الشاهد الفني منها،

وجاء بعد ذلك حديث القصة في القرآن، ليفصح الكاتب عن أغراض القصة في كتاب الله غَرضاً غرضاً مع التدليل بالأمثلة الموضحة، فانتقل إلى ما سبّبه خضوع القصة القرآنية للغرض الديني من اتجاه متميز، يتجلى في تكرار القصة الواحدة موضحاً أن الحلقات الأساسية في النص القرآني قد بعدَتْ عن التكرار غالبا، فإذا عرض لها التكرار أضاف الجديد إلى المعلوم فلا يكون تكراراً خالصا، وعلى القارئ أن يفطن إلى ما يظنه موضع التكرار، حيث يجد من أنواع الاختلاف ما يبرر وجود هذا التكرار، وأنا أقول إن التكرار في القصة القرآنية قد ورد، ولا يستطيع إنكاره باحثُ، ولكن السؤال لا يتجه إلى التكرار بل يتجه إلى مناسبته التي حتمته، فإذا أوحت به المناسبة، وكان ضرورياً في سياقها المتصل فقد أدى رسالته البيانية، لا سيما إذا اختلفت الجمل في تعبيرها، وتنوعت بين الإسهاب والإيجاز، وبين التصريح والتلويح، وقد قرر الكاتب في وضوح أن خضوع القصة للغرض الديني لم يمنع بروز الخصائص الفنية في عرضها ولذلك أفرد فصلا تاليا يتحدث عن مظاهر التنسيق الفني في القصة مستشهداً بقصص الأنبياء في إيضاح هذه المظاهر. وقصص الأنبياء في أكثرها ذات طول يمنع أن نأتي بها على نسقها المطمئن في كتاب (التصوير الفني في القرآن)، أما التصوير في القصة، فقد رزق الباحث توفيقا في إيضاحه، وقد قرأت أكثر ما قيل في هذا المنحى فرأيت المؤلف سابقاً، له تابعوه، وهو في هذا الفصل بالذات مُجلٍّ سباق.

وتتابعت الأبواب التحليلية تتحدث بإفاضة عن النماذج الإنسانية، والمنطق الوجداني وطريقة التعبير، ولعل من الأوفق أن أشير إلى ردود هادفة تعقبت الكاتب الناقد وأظهرت بعض الخلاف فيما كتب، والخلاف هنا شيء طبيعي لأن الكاتب في كثير من الفصول يرتاد أرضاً مجهولة لم يطرقها مكتشف من قبله، وسبيل هذا الرائد أن يجتهد ما يجتهد، وسبيل قارئه الناقد أن يتأمل في إكبار ما انتهى إليه من السداد، ثم لا يمنعه إعجابه الكبير أن يبدي وجهات النظر المخالفة لأن القرآن الكريم عزيزٌ على المسلمين جميعاً، وكل مسلم مثقف حريصٌ على أن يبدي رأيه فيما يقالُ في تحليله فذلك فرض عين لا سبيل إلى الخلوص منه إلا بأدائه، واختلاف النظر في الموضوع - أي موضوع - لا يعني خطأ أحد، وصواب أحد آخر، فقد تكون الوجهتان صحيحتين، ولكن كل ذي وجهة، يراها أولى من غيرها بالاعتبار، وهكذا دار النقاش حول بعض أفكار الكتاب، ولم يفت المؤلف أن يعقب على كل رأي قيل، والذين تابعوا النقد والرد قد ازدادوا يقيناً بما يطالعون، كما حمدوا للمناقشين سلامة القصد، ونزاهة اللسان، والتطلع إلى الحق المنشود.

كتب الأديب البليغ الأستاذ عبدالمنعم خلاف نقداً لكتاب التصوير الفني في القرآن، قدم له بمديح صادق قال فيه (١٢) إن الكتاب حديث جديد عميق في أسرار البيان القرآني، وأنه انتقال بالبلاغة من النظرة الجزئية إلى النظرة الكلية- وهذا حق- وأنه ذو تعبير يرتفع بأسلوب البحث العلمي إلى مستوى الأسلوب الأدبي، كما أنه ينم عن ذوق الفنان، وحاسة المصور اللماح.. وبعد ذلك قال إن ما قرره الأستاذ سيد قطب من أن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن يقتضي الاعتماد على الإحصاء

الدقيق لنعلم كيف غلب التصوير في الأسلوب القرآني حتى صار هو المفضل، وإذا كان ذلك في رأي المؤلف سر إعجازه فإن إدراك هذا السر يجعل القرآن غير معجز، إذ يستطيع نابغة ما أن يفهم السر فيعمل على احتذاء أسبابه كما أن أخطر ما في الكتاب أن يكون المنطق الوجداني هو أداة الإقناع في كتاب الله، بمعنى أن يكون الوجدان لا الذهن باب الإقناع، مع أن العقل أساس الإقناع في كتاب الله، وإذن فليس الموطن الأول لهذه العقيدة هو الوجدان، بل موطنها هو العقل المدرك المميز، ونحن في سبيل البحث عن حجة لله على الناس جميعاً لن تكون هذه الحجة في أغلب الأمر إلا عن طريق العقل والذهن الدقيق الذي يحاكمنا الله إليه دائماً في الحياة والقرآن معا، وإذا كان الموطن النهائي للعقيدة الحارة هو الضمير والوجدان، فذلك يأتي بعد أن يُصدر العقل رأيه، ولولا العقل ما انقاد الوجدان، والقرآن يفرض الفكر ميزانا مستقلاً بذاته عن الإنسان ثم يُعَجِّبه بما يراه في الوجود كأنه زائرٌ غريبٌ يشاهد الأشياء ليحكم عليها، وإذن فالموقف الأول من الكون والإيمان بالله وحده موقف الجزم بالذهن والحكم العقلي!

هذا خلاصة النقد الذي سجله الأستاذ خلاف، وقد قرأه المؤلف قراءةً فاحصه، وردّ عليه في نقاط محصورة (١٣) أولها أنه قام بالإحصاء الذي يريده الناقد فثبت لديه أن التصوير هو الطريقة المفضلة، وثانيها أنه لا خوف من إدراك سر الإعجاز، لأن إدراك هذا السرّ لا يجعل إنساناً يأتي بمثله حين يدرك سرّه، بل يظل العجز قائما مع هذا الإدراك، وإذن فلا خوف.

أمّا الاحتكام إلى العقل، فلم يُنكره الأستاذ، لأنه لم يقل إن منطقة الدين هي الوجدان وحده، بل قال إن الذهن في هذا المجال منفذ من المنافذ المختلفة، مريداً بذلك الا يجعله كل شيء في الإقناع كما أراد الأستاذ خلاف أن يقول، ولكنه يرى أن يشترك الوجدان والعقل معا في الإقناع! والحق أن دِقّة ملاحظة الأستاذ خلاف هي التي أوجبت على الأستاذ سيد قطب أن يُعلن مكانة العقل الصريحة، لأن حديثه قد اطّرد كثيرا عن قيمة المنطق الوجداني، حتى ظن القارئ أنه كل شيء

هذا عن الأستاذ خلاف، أما الأستاذ نجيب محفوظ فقد قرأ الكتاب وأعجبه، ووجه إلى المؤلف خطاباً على مجلة الرسالة مهد فيه لبعض النقدات بالثناء الكثير على اتجاه المؤلف، وقال بعد تحليل شافٍ لبعض الآراء في الكتاب: مخاطبا المؤلف: (١٤).

"إنك تحدثت عن التصوير والتخييل والتجسيم والتنسيق الفني، وكل أولئك روح الشعر ولبابه قبل كل شيء، أفلم يخطر لك أن تحدد نوع كلام القرآن على ضوء بحثك هذا؟

ثم إنك في حديثك عن النماذج الإنسانية قد استشهدت بما يدل على الطبائع البشرية لا النماذج، لأن النموذج الإنساني بمعناه العلمي شيء أشمل من هذا، وهو يحوي الكثير من هذه الطبائع كما قد يحوي غيرها، والنماذج محدودة معروفة، أما الطبائع فلا حصر لها، فلعلك قصدت الطبائع لا النماذج.

وقد ردّ الأستاذ سيد قطب على الملحظ الأول (١٥) بأنه ذكر في كتابه قول الله عز وجل "وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن

مبين" وصدق القرآن الكريم فليس هذا النسق شعرا، ولكن العرب كذلك لم يكونوا مجانين يوم قالوا عن هذا النسق العالي إنه شعر، إذ راع خيالهم بما فيه من تصوير بارع، وأَخَذ أسماعهم بما فيه من إيقاع جميل، وسحر وجدانهم بما فيه من منطق ساحر وتلك خصائص الشعر الأساسية على أن النسق القرآني قد جمع بين النثر والشعر معاً، ففاق النثر والشعر (البشريّين) جميعا، فالقرآن ليس بشعر، وإن أَخَذ من الشعر خصائصه الفنية فهو نثر، ولكنه النثر الذي يرتقي فيه التناسق الفني آفاقا وراء آفاق، على النحو الذي وَضح في باب (التناسق الفني).

أما ملاحظة النماذج والطبائع، فسيد قطب يرى أن اختيار كلمة نماذج أقرب إلى ما يفهم من طبيعة التعبير القرآني حين يقول مثلا {ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة} وحين يقول {ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه، وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويُهلك الحرث والنسل} فقوله تعالى (ومن الناس) يعني: وفريق من الناس أو صنف من الناس، وكل إنسان تغلب عليه طبيعة إنسانية معينة تصبح له سمة، ويُعرف بها وتدل عليه إنما يصبح نموذجاً؟

أما أستاذنا المغفور له الشيخ عبداللطيف السبكي فقد أخذ على الكتاب نقدات أهمها (١٦) أن المؤلف في حديثه عن مراودة امرأة العزيز ليوسف قد جعله (كاد يضعف) لولا أنه كان واعيا حصيفا يخشى أن تأخذه عين الرقيب! يقول الأستاذ السبكي: وهذا تصوير غير فني لإنسان هيأه الله للنبوة، وكتب له العصمة من قبل ومن بعد.. ومضى الأستاذ في شرح ذلك بما يقنع ويفيد.

وقد أسرع المؤلف بالرد (١٧) فذكر أنه قال (كاد يضعف) ولم يقل إنه ضعف فعلا، وليس في ذلك ما يخالف معنى العصمة، ثم قال إن العصمة النبوية تحتاج إلى أفق أوسع في النظر إليها، ولست ممن يميلون إلى أنها التجرد من جميع النوازع البشرية، وان كنت أومن أنها الانتصار على جميع النوازع البشرية، وكلام الأستاذ سيد قطب لا يزال في حاجة إلى تصحيح، ولست معه فيما قرر، فالعصمة هي العصمة! ولا شيء غيرها..

أخطر ما في الكتاب أن يكون المنطق الوجداني هو أداة الإقناع في كتاب الله

(عبدالمنعم خلاف)

قُلتُ عند حديثي عن مشاهد القيامة بهذا الكتاب إن الأستاذ قد أفرد كتابا خاصا بتحليل هذه المشاهد، سمّاه (مشاهد القيامة في القرآن) وقد ابتدأه بحديث عن رأية الجازم بأن التصوير هو الأداة المفضلة في الأسلوب القرآني، وكأنه يتابع الرد على الأستاذ خلاف مرّة ثانية بعدما قاله بمجلة الرسالة، وقال إنه في ضوء هذه الطريقة سيتناول مشاهد القيامة في القرآن، وقد ذكر أنه كانت أمامه (١٨) عدة طرق لعرض هذه المشاهد وتبويبها، ولكنه

اختار الطريق الاستعراضي مراعياً الترتيب التاريخي على قدر الإمكان، ولذلك عرض هذه المشاهد مرتبة في السور القرآنية حسب نزولها، وقد اعترف بأنه عمل تقريبي لا جزم فيه ولا أدري لماذا اختار المؤلف أن يتحدث عن هذه المشاهد في السور متفرقة غير مجتمعة تحت عنوان واحد، لقد كان الأوفق في رأيي أن يضم الآيات للمشهد الواحد من جميع السور القرآنية تحت عنوان واحد، فيقال في عنوان أول مثلا مشهد البعث وفي عنوان ثان مشهد الحشر وفي عنوان ثالث مشهد الصراط وفي عنوان رابع مشهد الميزان وفي عنوان خامس مشهد الجنة وفي عنوان سادس مشهد النار، وهكذا تكون الأبواب ذات غرض محدد، وهذا يمنع ما شاب الكتاب من تكرار لم يستطع المؤلف تعليله في كل سورة بما يقرر لزومه في سياقه! وكأن المؤلف قد لاحظ ذلك حين قال في المقدمة (سرت إذن على طريقة ترتيب هذه المشاهد حَسَبَ ترتيب السور التي وردت فيها، وهي طريقة – على ما بها من مآخذ – تهيء للقارئ أن يستعرض هذه المشاهد خالصة وسيتجلى جمالها الفني بعيداً عن حذلقات التبويب والتقسيم! وأنا أسأل الكاتب البارع متى كان التبويب والتقسيم حذلقة! وأول شرط في الكتاب الجيد أن يكون جيد التقسيم والتبويب!

ولا أستطيع أن استشهد بمثال من السور الطويلة فقد يبلغ الاستشهاد عدة صفحات، ولكني أنقل ما كتبه المؤلف خاصاً بسورة العاديات حيث قال الله عز وجل

"والعاديات ضبحا، فالموريات قدحا، فالمغيرات صبحا، فأثرن به نقعا، فوسطن به جمعا، إن الإنسان لربه لكنود، وإنه على ذلك لشهيد، وإنه لحب الخير لشديد، أفلا يعلم إذا بُعثر ما في القبور وحُصّل ما في الصدور، إن ربهم بهم يومئذ لخبير".

قال المؤلف (١٩)

في هذا المشهد صورةٌ، وإطار للصورة، صورةٌ ليوم يبعثر فيه ما في القبور بعثرة شاملة بغير تخصص أو تحديد، ويؤخذ الخافي في الصدور أخذاً شديداً شاملاً، فذلك يعبر عنه بالتحصيل أي جمع المحصول، كأن ما خفي فيها وما عملته في دنياها حصادٌ يجمع ويحصل، بعد ما تنثر القبور وتبعثر.

وإطار للبعثرة وما فيها من إثارة، إطارٌ من منظر الخيل العادية الراكضة، تصيح بأصواتها اللاهثة، وتورى الشرر بحوافرها القادحة، حينما تُغير صبحا وعلى حين غفلة فتثير النقع وتعكر الجو، وتتوسط الجمع في اندفاع وقوة، يقسم بهذا كله على أن الإنسان جاحد لربه، منكر لفضله، شديد الأثرة، ينطوي صدره على الحب البغيض لذاته، غير مفكر في اليوم الذي تبعثر فيه القبور، ويكشف عما في الصدور، والإطار من جنس الصورة، والمشاهد كلها مبعثرة مغبرة، فيها المفاجأة والعنف، وفيها الشدة والدفع، والموسيقى المصاحبة تلقى مثل هذا الأثر في الحسّ، وفيها التناسق الملحوظ بين الصورة والحسّ.

هذا نموذج لبعض السور القصار، ويُخيل إليَّ أن المؤلف في كتاب المشاهد قد تعجل كثيراً في صوغه ففاتته لفتات نعهدها منه، فهو قدير على الاستشفاف الذوقي الذي يفيض على قلمه في هذه السورة وغيرها أكثر مما كتب، وأنا أعذر كل مؤلف في ذلك القصور ـ لا المؤلف وحده – لأن الكاتب أثناء التأليف بشر تعتريه أوقات ضعف فلا يجد ما يعهد

من القوة، ثم هو لا يستطيع الصبر حتى يأتي زمان القوة، إذ يحس بسائق يدفعه إلى ضرورة الانتهاء من عمله على وجه سريع، لذلك نجد لدى الكاتب وثبات رائعة تليها هبوط مفاجئ، وهو يعلم مكان الوثبات ومكان الهبوط، ولكنه يكتب مسيَّراً كالمخيّر، ولا يستطيع أن يمتنع، إلا من عصم، على أن المؤلف في وثباته الكثيرة حقق ما يبتغيه حين قال عن هدفه المراد في مقدمة الكتاب (٢٠).

وفي اعتقادي أني لم أصنع بهذا الكتاب وسابقه -يريد كتاب التصوير الفني- إلا أن أرد القرآن في إحساسنا جديداً كما تلقاه العرب أول مرة فسحروا به أجمعين، واستوى في الإقرار بسحره المؤمنون والكافرون، هؤلاء يسحرون فيفرون ويقولون: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون، وأولئك يسحرون فيلبون، يملأ نفوسهم الإيمان واليقين، والقرآن هذا الكتاب المعجز الجميل، هو أنفس ما تحويه المكتبة العربية على الإطلاق فلا أقلّ من أن يعاد عرضه، وأن ترد إليه جدّته، وأن يستنقذ من ركام التفسيرات اللغوية والنحوية والفقهية والتاريخية والأسطورية، وأن تبرز فيه الناحية الفنية، وتستخلص خصائصه الأدبية، وتُنبّه المشاعر إلى مكامن الجمال فيه، وذلك هو عملي الأساسي في مكتبة القرآن".

هذا ما سجله الأستاذ في المقدمة ولا اعترض إلا على قوله وأن يُستنقذ من ركام التفسيرات اللغوية والنحوية والفقهية والتاريخية والأسطورية! أما الأسطورية فنعم، فقد كانت بإسرائيلياتها الكاذبة ضباباً كثيفاً ستر المعاني الجميلة وحاول أن يقذف بها إلى ضد ما تريد، وأما التفسيرات اللغوية والنحوية والفقهية والتاريخية، فلكل نوع قراؤه المتخصصون، ومؤلفوه الباحثون وهم يُحاولون أن يتخذوا من أسلوب القرآن ظهيراً على القاعدة النحوية أو اللغوية! أما الحكم الفقهي فأصْلٌ أصيل في كتاب الله وما نزل القرآن إلا لهداية الناس بهذه الأحكام.

وإذا تحدث عن المكتبة القرآنية التي كان يريد إبداعها، فقد عوضه الله عنها بكتابه الرائع (في ظلال القرآن) بإلهاماته الفائقة وتحليلاته الرائعة، وليس هنا مكان الحديث عنه، إذ يحتاج إلى درس صابر، وجهد حفيل ■

الهوامش والمراجع:

(١) التصوير الفني في القرآن ص٣٤ طبعة عاشرة
(٢) الأعراف ٤٠
(٣) البقرة ٢٦٤
(٤) الأنعام ٧١
(٥) الأعراف ١٧٥، ١٧٦
(٦) التوبة ١٠٩
(٧) الحجر ١٤
(٨) البقرة ٢٠٤، ٢٠٥
(٩) محمد: ٢٠
(١٠) الأحزاب من ٩ إلى ١٣
(١١) التصوير الفني ص١١٨
(١٢) مجلة الرسالة- العدد- ٦١٧/ ١٩٤٥/٤/٣٠م
(١٣) مجلة الرسالة- العدد ٦٢٠- ١٩٤٥/٥/٢١م
(١٤) مجلة الرسالة العدد ٦١٦- ١٩٤٥/٤/٢٣م
(١٥) مجلة الرسالة العدد ٦٢٠ ١٩٤٥/٥/٢١م
(١٦) الرسالة- العدد ٦٢٠ ١٩٤٥/٥/٢١م
(١٧) الرسالة العدد ٦٢١ ١٩٤٥/٥/٢٨م
(١٨) مشاهد القيامة ص١٠ ط دار المعارف
(١٩) مشاهد القيامة في القرآن ص٦٢
(٢٠) مشاهد القيامة في القرآن ص(٩)

الخنساء .. ومغالطة تاريخية عمرها تسعة قرون

□ *الخنساء، الصحابية الجليلة، سيدتنا تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية، لقبت بالخنساء فغلب عليها، كما لُقبت بسيدة الرثاء العربي، اذ فاضت قريحتها بأرق الأشعار بكت ورثت فيها أخويها - صخراً ومعاوية - اللذين فُجعت بهما قبل الإسلام، وما توقفت عن البكاء عليهما طيلة عمرها، حتى بعد أن أكرمها الله بالإسلام، ولما عاتبتها أم المؤمنين (عائشة) رضي الله عنها وذكرتها أن الحداد لا يحل فوق ثلاث، إلا أن تحدَّ الزوجة على زوجها، قالت بأنها كانت تبكي حزناً قبل الاسلام، وبعده صارت تبكي رحمة لهم إذ لم يدخلوا الإسلام.*

ويمتاز شعر الخنساء بالرصانة والرقة والحلاوة، وقد ضارعت في ذلك فحول الشعراء، ويرى النابغة وبشار وجرير أنها أشعر من الرجال لما في شعرها من قوة الرجولة ورقة الأنوثة.

أما الجانب الشخصي من حياتها فيقول ابن قتيبة في كتابه (الشعر والشعراء) أن الشاعر (دريد بن الصمة) خطبها فردته، ثم خطبها (رواحة بن عبد العزي السلمي) فتزوجته وأنجبت منه (عبد الله)، ثم خلف عليها (مرداس بن أبي عامر السلمي) فولدت له زيدا ومعاوية وعمروا، وتوفيت (رضي الله عنها) سنة ٢٤هـ. ولها ديوان شعرى، شرحه ابن السكيت وابن الأعرابي والثعالبي[١].

ونسب إليها كثير من المؤرخين وأهل الأدب والسير حكاية مفادها أنها حرَّضت أبناءها الأربعة على الجهاد في معركة القادسية سنة ١٤هـ وقد استشهدوا جميعاً فما زادت على قولها: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم أو باستشهادهم، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته»[٢].

والواقع أن هذه القصة لا تمت للخنساء بأية صلة على الإطلاق، وإنما صاحبتها امرأة عربية

مسلمة اخرى، تشابه اسمها معها.

صاحبة القصة هي (خنساء بنت عمرو النخعية)، وقد ذكرها ابن الجوزى في كتابه الجليل (صفة الصفوة) ـ باب (ذكر المصطفيات من عابدات العرب وأهل البادية)، وذكر القصة بإسناده، وهو:

أخبرنا المحمدان ابن أبي منصور وابن عبد الباقي قالا: أنبأنا جعفر بن أحمد، قال: أنبأنا أحمد بن علي التوزي قال: أنبأنا محمد بن عبد الله الدقاق، قال: أنبأنا الحسين بن صفوان قال: حدثنا أبو بكر بن عبيد قال: حدثني أحمد بن حميد[٣].

عن عبد الرحمن بن مغراء الدوسي عن رجل من خزاعة قال لما اجتمع الناس بالقادسية دعت خنساء بنت عمرو النخعية بنيها الأربعة، فقالت: يا بني إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم، والله ما نبت بكم الدار ولا أقحمتكم السنة ولا أرداكم الطمع والله الذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنوا امرأة واحدة ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ولا غيرت نسبكم ولا أوطأت حريمكم ولا أبحت حماكم فإذا

محمد فتحى راشد الحريري

الامارات العربية المتحدة

كان غداً إن شاء الله فاغدوا لقتال عدوكم مستنصرين الله مستبصرين فإذا رأيتم الحرب قد أبدت ساقها وقد ضربت رواقها فتيمموا وطيسها وجالدوا خميسها تظفروا بالمغنم والسلامة والفوز والكرامة في دار الخلد والمقامة، فانصرف الفتية من عندها وهم لأمرها

طائعون وبنصحها عارفون فلما لقوا العدو شدّ أولهم، وهو يقول:

يا اخوتي إن العجوز الناصحه

قد أشربتنا إذ دعتنا البارحه

نصيحة ذات بيان واضحه

فباكروا الحرب الضروس الكالحه

فإنما تلقون عند الصائحه

من آل ساسان كلاباً نابحه

قد أيقنوا منكم بوقع الجائحه

فأنتم بين حياة صالحه

أو ميتة تورث غنماً رابحه

ثم شدّ الذي يليه وهو يقول:

والله لا نعصي العجوز حرفاً

قد أمرتنا حدباً وعطفا

منها وبراً صادقاً ولطفاً

فباكروا الحرب الضروس زحفا

حتى تكفوا آل كسرى كفا

وتكشفوهم عن حماكم كشفا

إنا نرى التقصير عنهم ضعفاً

والقتل فيهم نجدة وعرفا

ثم شدّ الذي يليه وهو يقول:

لست لخنساء ولا للأخزم

ولا لعمرو ذي السناء الأقدم

إن لم تزر في آل جمع الأعجم

جمع أبي ساسان جمع رستم

ثم شدّ الرابع وهو يقول:

إنّ العجوز ذات حزم وجلد

والنظر الأوفق والرأي السدد

قد أمرتنا بالصواب والرشد

نصيحة منها وبرّاً بالولد

إلى آخر القصة، ولم يشر ابن الجوزي لاستشهادهم، إلا أنّ ما ذكره هو نفسه ما يورده أهل السير منسوباً لتماضر، مع زيادة بعضهم لمواقف الأولاد في المعركة وهم يتواصون بينهم بوصية أمهم العجوز.

اما ملاحظتنا على القصة فهي :

١ ـ تقول صاحبة القصة إنّ أبناءها من رجل واحد، أما الخنساء (تماضر)فان لها ثلاثة أولاد من زوجها الثاني (مرداس) والرابع ترتيبه الأول وهو عبد الله من زوجها الأول (رواحة) كما ذكرنا آنفاً، أي أنهم من رجلين اثنين.

٢ ـ صاحبة القصّة تحمل اسم (خنساء) فهو لها اسم لا لقب، وهي نخعية، أما تماضر الخنساء فهي سلمية وصحابية جليلة ، أما صاحبة القصة

فهي تابعية على ما يبدو، ولم تُشر المصادر إلى أن لها صحبة.

٣ ـ قال من نسب الحكاية إلى تماضر الخنساء أنها رثت أبناءها الأربعة وديوان الخنساء ليس فيه أثارة من ذلك.

٤ ـ ذكر ابن الجوزى، صاحب صفة الصفوة ـ وهو ثقة ثبت في تراجم الأعلام ـ أن (خنساء) صاحبة القصة هي من عابدات العرب والبادية، ويشير بذلك إلى أنها ليست الخنساء الشاعرة إطلاقا، لأنه ذكر في مصنفه من الرجال والنساء، العدد الكبير ونسب كل شخص إلى بلده.

والقصة ـ بالرغم أنها من مفاخر المسلمين ـ اذ جعل الله فيهم من النساء من وصل إيمانها الى هذا المستوى الرائد، وهو ليس مستغرباً أبداً على سلفنا الصالح، فلقد نقل لنا التاريخ نماذج رائدة في كل مجال، فبحثنا لا يقلل من قدرها. مع الإشارة الى أننا ابتعدنا عن الكلام في إسناد القصة، وما قيل في رجال الإسناد، وخاصة ما قيل في (جعفر بن أحمد) المشهور بالكذب والوضع، كما قال ابن عديّ (صاحب الكامل) وما قيل في ابن عبد الباقي وابن أبي منصور وغيرهما[٤].. إذ لم يسلم من الجرح من رجال هذا الإسناد إلا عبد الرحمن بن مغراء الدوسي وأحمد بن حميد (ولعله الطريثيثي)[٥].

إلى جانب عيب آخر في الإسناد وهو الانقطاع، اذ أن ابن مغراء يحدثُ عن رجل لم يسمه، وهذا ضعف واضح في إسناد الخبر، وترك البحث في الإسناد إنما لورود القصة من طرق أخرى، وحديثنا حول نسبتها للخنساء الشاعرة الصحابية السلمية، وقد اتضح لنا بشكل يكاد يكون قاطعاً أن الحكاية لخنساء أخرى، ومن الأمانة العلمية والتاريخية أن ننسب الاحداث لاصحابها.. والأمر مطروح لأهل البحث.

هذا والله أعلم، وعليه التكلان وبه الاستعانة ■

الهوامش :

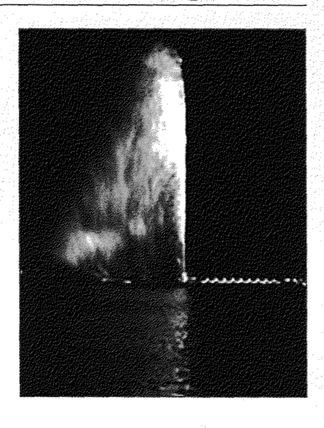
(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) ص ٢١٨. ولم يذكر ابن قتيبة شيئاً عن أولاد للخنساء استشهدوا يوم القادسية، رغم استقصائه لحياتها الشخصية.

(٢) تاريخ الأدب العربي للزيات ص ١٠٩ وما بعدها، وذكر صاحب المنجد في (أعلامه) أنها رثت أبناءها الأربعة بشعر عذب، ومن المآخذ على الزيات حين حديثه عن تماضر قوله أن الاسلام لم يؤثر فيها من قريب ولا بعيد، وقد جانب الزيات وصاحب المنجد ـ كلاهما ـ الحقيقة.

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) المكتبة التجارية في مكة المكرمة/ ص ٢٧٠ ج٤.

(٤) الكامل في الضعفاء لابن عدي ص ٢٢٥ برقم ٣٤٨ و٣٤٩.

(٥) عبد الرحمن بن مغراء، صدوق توفي سنة بضع وتسعين (تقريب التهذيب) لابن حجر ص ٣٥٠، وأحمد بن حميد ثقة حافظ مات سنة ١٢٠هـ كما في التقريب أيضاً ص ٧٩.



محمود عارف شاعر عروس البحر الأحمر

كان رائداً من رواد الأدب العربي السعودي الحديث إنه الشاعر الذي ترجم بريشته عن الحياة والإنسان والكون وذلك بقصائد اتسمت بالعذوبة ومقطوعات دعت إلى الخير.. إلى القيم الرفيعة والمبادئ القوية والأهداف السامية - كما أنه كان ناثراً مجيداً عبر بقلمه عن انطباعات عقله ونبضات قلبه.. فالبساتين الخضراء والجبال الشاهقة والوديان الفسيحه.. تبرز ولعه بالجمال.. جمال الطبيعة وبالتالي تهز وجدانه وتحرك فكره وتثير الحيوية والحرارة في قلمه فيأتي بالتعبير الفني الجميل.

ولد الشاعر محمود عبدالخير عارف في مدينة جدة عام ١٣٢٧هـ والتحق في طفولته بكُتاب (الشيخ العظيم) الكائن في قصبة الهنود بمحلة الشام حيث تلقى في غرفه تعليمه الأولى وبعد ذلك التحق بالصف الأول في مدرسة الفلاح بجدة حتى تخرج منها سنة ١٣٤٢هـ وعمل بعد تخرجه مدرساً بها. ومنذ أن عرف القراءة وتعلم الكتابة نمت في نفسه هواية القراءة .. فقد كان غزير القراءة في آدابها وبخاصة ما كاز متصلاً بالشعر حتى أصبح مجدداً للفكر ومشحوناً بالإحساس والشعر. واهتم نادي جدة الأدبي بدو اويز الشاعر السعودي محمود عارف إذ تجد في أسواق الكتب مجموعة كاملة من شعره في مجلدين تحت عنوان (ترانيم الليل)

المجلد الأول

احتوى هذه الدواوين:

١- المزامر ٢- الشاطئ والسراة ٣- في عيون الليل ٤- على مشارق الزمن ٥- الروافد ٦- أرج ووهج.



محمود عارف

كما احتوى المجلد الثاني الدواوين التالية:

١- أيام من العمر ٢- مدينتي جدة ٣- مشاعر على الضفاف، هكذا تجد في هذه الدواوين أبياتاً ندية بأريج الشعر وأريج الصفاء النفسي فالشاعر أحب أمته على اختلاف مذاهبهم وتباين صورهم.. وتتجلى روائع عارف في الحديث عن الليل حيث يطيب السرى والنجوى: ففي قصيدة (ليالي دمشق) (١)

ثمل الليل والنجوم نشاوى
من هوى البدر ضاحكاً في البطاح
عربدت حوله النسائم عبقى
حين ناجت بهمسها قلب صاح
ما غفا البدر والخلائق غرقى
في سبات من زلة وجناح
أي لوم وأي ذنب جناه
قلب بدر منور الألواح
آه ما أعذب الليالي في الشام
وأحلى الهوى بجانب لاح
ذكريات كاللحن باق صداها
كرؤى الحلم في دنا الأشباح



عثمان محمد مليباري

مكة المكرمة

هكذا نحس أن شعر الشاعر مرسل على سجيته دون تصنع أو افتعال.. إن شعره مكنون قلبه ونبضات وجدانه لذا جاءت قصائده مفعمة بالرقة المتناهية والإنسانية الرحبة إلى موسيقى متدفقة بين الكلمات والجمل تجد في قصيدته (من وحي الهدا) صور رائعة للخضرة والماء والهواء.. صورة لسحر الطبيعة الخلاب فدوالي الربى كعذارى السهب في الأفق والورد في الغصن هيمان في عطره العبق.. الهدا بستان ومنتجع لحاضرنا المزدهر:

هذا "الهدا" يتراءى وهو منشغل
عن الربى بجمال فيه متسق
"لبنان"، "أبها" وما أندى جمالها
وفي الهدا الحسن في الأعلى من النسق
إن غار لبنان من بردي وغوطته
فالطائف الفذ نشوان ولم يفق
هنا دوالي الربى في كل مرتفع
كأنهن عذارى الشهب في الأفق
من كل ذات جنى تحنو لقاطفها
وتستريح إلى أشواق معتلق
هن الحوامل بالأعناب دانية
والتوت والتين في لونيه كالشفق

إلى أن يقول:

ياسعد من عاشق في روض الهدا كلفاً
بالحسن يكرعه صفواً بلا مذق

كالطير في أيكه يزجي صوادحه
كأنه عاشق.. مضنى من الأرق
والنرجس الغض نعسان الجفون ترى
أحلامه البيض تستشرى من الحدق
والورد في غصنه هيمان لا عجب
أن تستلذ الهوى في عطره العبق
عطر الورود أحاسيس مرهفة
ينداح رفاقه كالنور في الغسق (٢)

وصور شاعرنا آلام نفسه .. صور فجعته بصدق دون تكلف ولا ابتذال ... عبر الشاعر عارف عن نبضات قلبه المتأجج باللوعة والأسى حين سماعه نبأ وفاة زميله الشاعر السعوي (أحمد صالح قنديل) وذلك في قصيدة عنوانها (..وانطفأ القنديل) (٣)

ماذا اقول وقد أطلت بكائي
في موت قنديل وطال شقائي
ياصفوة الأحباب من ميلادنا
حتى الشباب الى الشيب النائي
يامبكى الأخوان غاب سميرهم
من مجلس متكامل .. الزملاء
ذرفوا الدموع عليك وهي روافد
وانفض سامرهم بغير صفاء
قد كنت "قنديلا" توهج نوره
ماكان أسرعه الى الاطفاء
وعلى الدروب تركت " ابراج" العلا
تبكى قصائدها بدمع رثاء
حسب " الاغاريد" الحزانى قد بكت
بملاحن مكلومة " الاصداء" (٤)

الى ان يقول:

لك في البيان مآثر مزهوة
مرسومة في القلب في الأحشاء

والأستاذ/ عبد الفتاح أبو مدين ذكر في كتابه (هؤلاء عرفت) الذى صدر عن النادي الأدبي الثقافي بجده عام ١٤٢١هـ.

ذكر أن أستاذه (محمود عارف) كان قدوة بين أقرانه وبين الناس وله معارف وعلاقات ببعض كتاب مصر وشعرائها حين كان يتردد على مصر قبل أكثر من خمس عشرة سنه .. ومن وفاء الأستاذ عارف اننا حين نكرم أديبا من أدبائنا يسارع الى المشاركة بقصيدة يشيد فيها بأدب المكرم وكذلك حين يرحل عن هذه الحياة أديب من أدبائنا أو من اصدقائه في مصر يأتيه القريض انثيالاً فينظمه مدحاً او رثاء تقديراً للراحل العزيز وعندما انتقل الشاعر المصري (أحمد مخيمر) الى رحمة الله تعالى ذكر صفاته الحميدة وأخلاقه الكريمة في قصيدة عنوانها (رثاء الشاعر أحمد مخيمر).

في مأتم الأشعار تبكي عيوننا
ومن عيلم الآلام تهمى السحائب
"مخيمر" في أخلاقه متواضع
شمائله كالزهر وهي مناقب
وفي مستوى الآداب كان مثقفاً
على منهج "العقاد" منه التجارب
يقدر الأنداد اذ كان هادئا
على وجهه نور السماحه ثاقب
عفيف لسان ما سمعنا له أذى
على أهله والناس وهو المخاطب

ثقــافــتــه زخــارة في شــبــابه
وفي شـيـبـه وهو الكميُّ المحارب
فــفـى كل حـــرف خطه يراعـــه
دفـاع عن الفـصحى وفـيـه الأطايب (٥)

ولقي شاعرنا احتفاء كبيراً من قبل سعادة الأستاذ: عبد المقصود خوجه إذ أقام له أمسية ماتعة لقاء خدمته للحرف منذ خمسين عاماً اذ نشر في صحفنا السعودية أجمل المقالات وأحسن الخواطر ورسم ابداع اللوحات الشعرية حتى أثرى المكتبة العربية بالكتب النثرية والدواوين الشعرية.

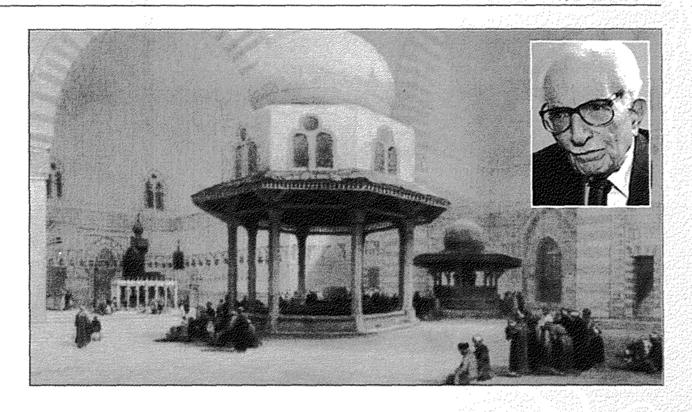
وفي هذه الأمسية ألقى الشاعر المرحوم (طاهر عبدالرحمن زمخشري) كلمة قال فيها (إن الأستاذ : محمود عارف احد ابناء جده البررة لذلك اطلق عليه لقب شاعر عروس البحر الأحمر) (٦) وختاما أورد أنغام شاعرنا في مدينته جدة المتجددة حيوية وجمالاً (٧).

أهواك يا جدتي يا أرض ميلادي
فيها نشأت وفيها غرس أولادي
يا مستراد شبابي في نضارته
على مشارفه زخرفت أمجادي
ياملتقى حلمي المعسول أبلغه
حقيقة تجتلى من غير ميعاد
اني عرفت الهوى في جدة عجبا
وفتنة فذة في الشاطئ الهادي
يا شاطئ الحب .. فيك الحسن أبلغه
اعجاز مكتمل يبقى لآماد
في صفحة العمر .. من مكنونه غرر
مجلوة عبر أرواح وأخلاد
والحسن في (جدة) أسمى مفاتنه
مخلد فيك لا يعنو لصياد
وصائد الحسن كم أغرته رائعة
فراح يلعن عجزاً بين أشهاد
هواك يا " جدتي" لا استهين به
وفرط حسنك سحر غير معتاد

وأصدر شاعرنا الأستاذ محمود عارف في حياته مجموعة من الكتب النثرية أهمها : أصداء قلم عام ١٤٠٢هـ وأوراق منسية عام ١٤٠٧هـ وحصاد الأيام عام ١٤٠٧هـ ليل ونهار عام ١٤٠٣هـ وتحتوي هذه الكتب الثقافية على دراسات أدبية وقضايا متعلقة بالأدب السعودي وتراجم لبعض أدبائه بحيث ألقت الضوء على جوانب من حياتهم العملية والأدبية معاً اضافة الى عرض ونقد لبعض الكتب الصادرة من قبل المؤلفين المعاصرين ■

الهوامش :

(١) ص ٤٦ من المجلد الأول (ترانيم الليل) من منشورات النادى الأدبي الثقافي بجده الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م.
(٢) المصدر السابق ص (٣٠١).
(٣) المصدر السابق ص (٤٤٠) .
(٤) ابراج- وأغاريد وأصداء أسماء دواوين الشاعر أحمد قنديل
(٥) ص (٣٥٢) من المجلد الثاني (ترانيم الليل من منشورات النادي الأدبي الثقافي بجده الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م.
(٦) ص (٣٠١) الى (٣٣٥) من كتاب (الإثنينية الجزء الأول ١٤٠٣هـ الناشر/ عبد المقصود خوجه/ جده.
(٧) ص (١٩٥) من المجلد الثاني (ترانيم الليل) من منشورات النادي الأدبي الثقافي بجده الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م.



المؤرخ العربي

نقولا عبده عبدالله زيادة

(١٩٠٧ - ٢٠٠٦م)

﴿ ولد بدمشق في الثاني من ديسمبر (كانون الأول) ١٩٠٧م لأسرة فلسطينية من الناصرة، وكان والده يعمل مهندساً في سكة حديد الحجاز، والتحق بمدرسة الفرير بدمشق منذ سنة ١٩١١م، ثم تركها إلى مدرسة أخرى لكنه ما لبث أن عاد إليها مرة أخرى.

بعد وفاة والده سنة ١٩١٦م عاد مع أسرته إلى الناصرة، وأقام في جنين فيما بين سنتي ١٩١٩-١٩٢٤م، فأكمل دراسته وتخرج من دار المعلمين بجنين في يوليو ١٩٢٤م، وعمل مدرساً في ترشيحا لمدة سنة واحدة ١٩٢٤-١٩٢٥م، ثم عمل مدرساً في مدرسة عكا الثانوية فيما سنتي ١٩٢٥- ١٩٣٥م.

يقول عن تجربته في التعليم: (عندما يُعلّم المرء سبعاً وستين سنة في مدارس تبدأ بالضيعة ثم في مدرسة ثانوية ثم في كلية ثم في جامعة مع زيارات

لجامعات أخرى فليس من الغريب أن تكون له تجارب متنوعة هنا وهناك).

ويصور نقولا زيادة تلك المرحلة من حياته كما يلي: (علَّمت السنة الأولى في ترشيحا في قضاء عكا. أنا كنت أعي نوع التعب الذي كانت أمي تقوم به لإعالة أربعة أطفال أنا كبيرهم. لذلك، أصبحت معلماً ولي مرتب فكرت في أن أريح أمي. بدأت وأنا في ترشيحا أبحث عن سكن لنا جميعاً. لكن في السنة التالية (١٩٢٥م) نقلت إلى مدرسة عكا الثانوية. حطيت عيني على بيت يناسبنا جميعاً. تمهيداً في هذا اليوم الذي كنت فيه أخطط جاءتني برقية تخبرني أن أمي توفيت. أسرعت في الذهاب إلى نابلس فوجدتها في الكنيسة "في رفيديا" في حالة الجناز.

تألمت أولاً لأنني فقدتها من دون أن أتمكن من سد بعض دينها علي، وثانياً لأن معنى هذا أنه أصبح علي أن أربي أسرة فيها أخت أصغر مني بسنة واحدة وأخوان في الثانية عشرة والعاشرة، مسؤولية كبيرة، لكن الله أخذ باليد. تعاونَّا. كان مرتبي كافياً وكانت أختي مدبرة في البيت).

حصل في سبتمبر (أيلول) سنة ١٩٣٥م على بعثة علمية لدراسة التاريخ في جامعة لندن وحصل على درجة البكالوريوس في التاريخ سنة ١٩٣٩م، ثم حصل من الجامعة نفسها على درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي سنة ١٩٥٠م.

وما أن وطأت قدماه أرض بريطانيا حتى أدرك أنه جاء إلى البلد الذي يخطط لإقامة وطن قومي لليهود في وطنه فلسطين، وقد عبر عن ذلك بقوله: (إنني آت من فلسطين. من بلد كانت بريطانيا تطبق فيه سياسة الانتداب التي كان وعد بلفور الأساس

د. فرج الله أحمد يوسف

الريـاض

فيها وعرفت المواقف القمعية التي لجأت إليها حكومة الانتداب لتيسير نقل الأراضي إلى اليهود والمحاباة التي كان اليهود يعاملون بها، وأنا الآن في العاصمة التي تطبق القرار السياسي الذي اتخذته أيام الحرب العالمية الأولى وأنا وجهاً لوجه أمام أولئك الذين يفعلون ببلدي الكثير).

ومن اللافت أن وجوده في بريطانيا قد عزز لديه الانتماء إلى العروبة، وقد أوضح ذلك بقوله: (إنني عربي - ولنترك جانباً قضية القومية العربية وتفاعلاتها والوحدة العربية ومتناقضاتها- ولنعد إلى الشعور العفوي المنبثق من داخل نفوسنا والمتمثل بشكل خاص بلغتنا هذا هو الشعور العربي الذي كانت جذوره فيما أشعر أنا مرتبطة بالأرض التي أحيا فوقها والتي كانت حباله تشدني إلى أولئك الذين أعيش بينهم ولم يساورني قط شك في هذا الانتماء بل الذي أستطيع أن أسميه ولاء دون قيد أو شرط فأنا العربي المسيحي الأرثوذكسي عربي في ثقافتي البسيط منها والمعقد الحديث منها والقديم. عربي في نظرتي إلى الأمور أي أنني أراها من منظار عربي أداته وآلته هي اللغة العربية).

وبعد قيام الكيان الصهيوني في فلسطين سنة ١٩٤٨م أقام نقولا زيادة في لبنان منذ سنة ١٩٤٩م، وعمل أستاذاً للتاريخ بالجامعة الأمريكية في بيروت (١٩٤٩-١٩٧٣م)، كما عمل أستاذاً بالعديد من الجامعات العربية والغربية منها على سبيل المثال لا الحصر: جامعة هارفارد (١٩٥٧م، ١٩٦٣م)، والجامعة اللبنانية (١٩٧٤-١٩٨١م)، والجامعة

الأردنية (١٩٧٦-١٩٨٧م) وجامعة القديس يوسف ببيروت (١٩٧٣ - ١٩٨٧م).

صنف أكثر من ٣٢ مؤلفاً جمعت في ٢٣ مجلداً بعنوان: "الأعمال الكاملة"، وترك المئات من الأبحاث العلمية، والمقالات، ومن مؤلفاته:

- الرحالة العرب (دار الهلال، القاهرة ١٩٥٦م).

- تونس في عهد الحماية من ١٨٨١-١٩٣٤م (معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٦٣م).

- الحسبة والمحتسب في الإسلام (المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٣م).

- ليبيا في العصور الحديثة (معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٦٦م).

- أبعاد التاريخ اللبناني الحديث (معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٧٢م).

- الجغرافية والرحلات عند العرب (الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٢م).

- عالم العرب جغرافيته، تاريخه، ومصادر ثروته (الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٤م).

- رواد الشرق العربي في العصور الوسطى (دار لبنان، بيروت ١٩٨٦م).

- قمم من الفكر العربي الإسلامي (الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٧م).

- أبعاد الثورة العربية الكبرى (وزارة الشباب، عمان ١٩٨٨م).

- شاميات: دراسات في الحضارة والتاريخ (رياض الريس للكتب والنشر، لندن ١٩٨٩م).

- إفريقيات: دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي (رياض الريس للكتب والنشر، لندن ١٩٩١م).

- أيامي: سيرة ذاتية (هزار للنشر والتوزيع بالتعاون مع الأهلية للنشر والتوزيع، لندن ١٩٩٢م).

- لبنانيات: توزيع وصور (رياض الريس للكتب والنشر، لندن ١٩٩١م).

- مشرقيات في صلات التجارة والفكر (رياض الريس للكتب والنشر، لندن ١٩٩١م).

- إيقاع على أوتار الزمن (مجلة العربي، الكويت ٢٠٠٢م).

وترجم العديد من الكتب إلى اللغة العربية، من الكتب التي ترجمها:

- أزمة الإنسان الحديث (تأليف تشارلز فرنكل، مؤسسة فرنكلين، بيروت ١٩٥٩م).

- تاريخ المغرب في القرن العشرين (تأليف روم لاندو، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٢م).

- ليبيا الحديثة: دراسة في تطورها السياسي (تأليف مجيد خدودي، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٦م).

- العلاقات العربية الهندية (تأليف مقبول أحمد، الدار المتحدة، بيروت ١٩٧٤م).

- تاريخ البشرية (تأليف أرنولد توينبي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٨م).

وإلى جانب كونه مؤرخاً فقد كان نقولا زيادة أديباً لكنه لم يكتب الشعر وعندما سئل عن سبب ذلك أجاب على النحو التالي: (ما أكثر ما كنت أسأل ولا أزال أسأل هل نظمت شعراً. وكانت الأجوبة دائماً لا لم أحاول. وعندئذ يأتي السؤال الآخر ولماذا؟ لأنك أنت مؤرخ؟ كان جوابي دائماً الشعر لا يرتبط نظمه بالعمل الذي يقوم به المرء.فكان لدى أفقان من الشعر، الواحد الفصيح والثاني الذي يكتب باللغة الدارجة سمها عامية أو سمها ما شئت. المهم في نظري وبالنسبة إليَّ أن يكون هناك رنّة موسيقية في الشعر فأقرأه. ولذلك لما جاءت قصيدة النثر لم أستطع أن أجد فيها شعراً ولا أكتمكم أنني قلّما أقرأ قصيدة من قصائد النثر. أنا واثق من أنني أحرم نفسي من الأشياء الكثيرة لكنني أنا أقرأ

الشعر للمتعة والمتعة التي أريدها، أن يكون فيها إيقاع موسيقي رنة دنة طنطنة سموها ما شئتم. ولذلك أرجو أن يعذرني كتاب الشعر وكتاب القصيدة النثرية إن أنا لم أبتع ديواناً من دواوينهم وقلّما أقرأ قصيدة من قصائدهم. لكنني لا أزال أحب الشعر الموزون ذا القافية المتنوعة والموسيقى التي ترقصني على نحو ما يبدو من قراءة "جفنه علّم الغزل ومن الحب ما قتل".

هذا الشعر الذي أحبه. أحب أن أرقص معه طبعاً لا رقصاً مادياً وأنا بدأت في التاسعة والتسعين من عمري لكن أن يرقص قلبي معه أن أفرح به سواء كان مدحاً أو وصفاً أو رثاء أو أي نوع من أنواع الشعر الراقي اللطيف المعبر. إن الشعر بحد ذاته عامل من عوامل توسيع الأفق عند القارئ الذي يفهمه ويتمتع به. ولذلك فأنا أحب الشعر لكنني لم أكتب الشعر ولست نادماً).

ونصح نقولا زيادة في أحد مقالاته المنشورة في شهر يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٦م العرب بأن لا يكتفوا بالتغني بأمجاد الماضي بل عليهم المساهمة في صنع الحضارة الحديثة، ومما جاء في نصيحته: (للعرب أفضال كافية كي تجعلهم بين الأقوام التي أنشأت جزءاً كبيراً من حضارة العالم بأكمله، ونفحته بالكثير من الأفكار والآراء وهذا كاف لها في القديم. ولكن نحن ما نريد أن نفعله لأننا لا نستطيع أن نقوم بشيء جديد وكل مانعمله هو أن نقف عند هذه المعالم القديمة ونتحدث عنها ونقول دائماً كما قال توفيق جدع الخطيب الملهم الحيفاوي في اجتماع عقد في جامع الجزار في عكا سنة ١٩٢٦م أو ١٩٢٧م حضرته، قال: "يقولون عنا أنهم يسمعون جعجعة ولا يرون طحناً وقد نسوا أننا لما جعجعنا في قريش كان الطحن في الأندلس").

توفي نقولا زيادة يوم الخميس السابع والعشرين من يوليو (تموز) ٢٠٠٦م بمنزله في بيروت، ووري الثرى قبل ظهر يوم الجمعة التالي في مأتم صغير في مدافن كنيسة سيدة النياح في شارع المكحول (الحمراء).

نعته صحيفة "الحياة" بكلمات نقتطف منها: (كان ينقصه عام ليصبح عمره مئة عام... ويقضي قرناً بكامله، كان هو واحداً من الشهود الكبار له وعليه. نقولا زيادة، الرجل الموسوعي، لم يدع القلم يسقط من بين أصابعه حتى اللحظات الأخيرة. لم يكن نقولا زيادة مؤرخاً، مجرد مؤرخ، بل كان واحداً من الذين صنعوا "علم" التاريخ.. كان مبدعاً في تاريخه ذا نزعة أدبية بينة، ميالاً إلى الأدب ولطائفه. وكان نصه التاريخي نصاً نثرياً، متين السبك، بهي الجمل، قوياً ومتماسكاً. وهذا الاعتناء بجمالية اللغة نابع من ذاته، هذه الذات التواقة دوماً إلى الجمال والمعرفة).

ونعته صحيفة "السفير" بكلمة جاء فيها: (تحت المائة بعام سقط نقولا زيادة وأسقطته في الغالب عاصفة هذا الصيف العاتي هو الذي كان يهيئ لعيد ميلاده المائة متأكداً من بلوغه، لبناني من أصل فلسطيني مولود في دمشق. تقول سيرته أنه العربي الطائر وما كنا نجد بداية أفضل من هذه لمؤرخ جمع المشرق العربي في ولادته وأضاف إليها المغرب فدرس في ليبيا وغدا خبيراً بالمغرب العربي كله. كان نقولا زيادة من النخبة التي صنعت هذا القرن) ■

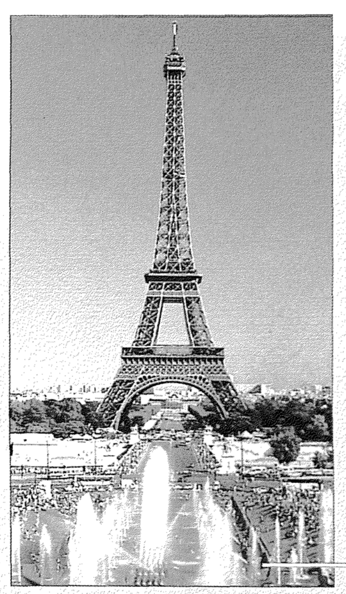
المراجع :

نقولا زيادة:

-أيامي: سيرة ذاتية (هزار للنشر والتوزيع بالتعاون مع الأهلية للنشر والتوزيع، لندن ١٩٩٢م).

- من بيتي إلى الجامعة الأمريكية ص٣٦ -٤٥ (تاريخ العرب والعالم، العدد ١٣٥، السنة ١٢، جمادى الآخرة ١٤١٢هـ/ كانون الثاني - شباط ١٩٩٢م).

- مجموعة مقالات في صحيفة الحياة (٢٠٠٥-٢٠٠٦م).



أيام في فرنسا

□ الرحلات من أوسع أبواب المعرفة الإنسانية والكتابة عنها إحياء لفن عربي قديم في أدب الرحلات تقاعس الكثير من الأدباء العرب عن إحيائه بعد أن كان أسلافنا هم أصحابه ورواده وأربابه.

فقد كان أسلافنا متفردين بذلك بدءاً من رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة في القرن الثالث الهجري إلى رحلة ابن جبير في القرن السادس الهجري ورحلة شيخ الرحالين ابن بطوطة لدول العالم في القرن الثامن الهجري التي سجلها في سفره الممتع (تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) وكذا رحلة خير الدين التونسي لأوروبا في القرن الثالث عشر الهجري التي دونها في كتابه (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) وغيرهم من الرحالة.



عبد الله بن حمد الحقيل
- الرياض -

وفي هذه الرحلات التي أكتبها أقدم للقارئ خطرات وصوراً صادقة عما شاهدته أو لمسته أو انطبع في ذهني عن تلك الأقطار والبلدان التي أزورها وعسى أن أكون بذلك قد خدمت اللغة والثقافة العربية التي كانت تعنى بهذا الجانب.. ولقد لاحظت اهتمام الأجانب بالرحلات والكتابة عنها حيث نشاهد في المكتبات العربية الكثير من كتب الرحلات المترجمة للرحالة الأجانب.. إن أدب الرحلات يشكل ثروة معرفية كبيرة فضلاً عن كونه مادة مشوقة لنشدان معرفة الآخر وعالمه.. ويسرني أن أكتب عن رحلة قمت بها إلى فرنسا.

وفي يوم السبت الموافق ١٤٢٦/٦/٣هـ أقلعت بنا الطائرة السعودية إلى باريس مروراً بمطار روما في الساعة الواحدة والنصف ليلاً كان الإقلاع من مطار الرياض. وقد أعلن المضيف أن الرحلة سوف تستغرق ست ساعات وسيطير على ارتفاع خمسة وثلاثين ألف قدم، وكان الطيران مريحاً مع هدوء الرياح وسكون الليل ليس فيه ما يزعج لولا أزيز المحركات في بعض منخفضات الجو؛ وانطلقت الطائرة في يسر وسهولة وتجاوزنا مدينة الرياض وكنا نشاهد الأنوار المتلألئة ولم نتمكن من رؤية سواها حيث نحن في سواد الليل؛ لقد كنت أحرص دائماً على أن يكون مقعدي قرب النافذة حتى أرى معالم الطريق والسحب والبرق والمطر والهضاب والجبال وكان بجواري أحد الإخوان الذي قدم من جدة للنزول في روما فكانت فرصة طيبة للحديث عن جدة وعن وجهة سفره ولماذا اختار إيطاليا.. والسفر بطبيعته يفرض على المسافرين التعارف ويذيب الحواجز، كما أن الرحلات من أوسع أبواب المعرفة والثقافة الإنسانية للاطلاع على العالم والآثار والاستمتاع بمشاهد التاريخ ومعالم الحضارات ومظاهر الحياة وبدائع صنع الله.

سفر الفتى لمناطق وديار
وتجول في سائر الأمصار
علم ومعرفة وفهم واسع
وتجارب ورواية الأخبار

ثم قدم الطعام وبعد الانتهاء من تناوله أطفئت أنوار الطائرة فاسترخى كل إنسان في كرسيه، وفي الصباح الباكر وصلنا باريس وهذه المرة الثالثة التي أزور فيها هذه المدينة المميزة وهذه الرحلة بصحبة الأولاد والأحفاد، ولن تتم للآباء سعادة لا تشمل الأبناء وما أصدق عمران بن حطان في قوله:

وإنما أولادنا بيننا
أكبادنا تمشي على الأرض
لو مرت الريح على بعضهم
لامتنعت عيني عن الغمض



فهي مدينة ضخمة مفعمة بالحياة الممتدة على ضفاف نهر السين شريانها الرئيسي وجامعة السوربون الشهيرة والحي اللاتيني والمتاجر الضخمة، ومن المطار توجهنا نحو باريس إلى أحد الفنادق التي حجزنا بها ولقد كان المطار بعيداً عن المدينة وكان سائق السيارة أحد أبناء الجزائر فكان الحديث عن فرنسا والجزائر وعن مدينة وهران التي أقضيت فيها سنوات مدرساً للغة العربية وآدابها في عامي ١٣٨٥هـ، ١٣٨٦هـ، وجرى الحديث معه على حد قول الشاعر كثير عزة:

أخــذنا بأطراف الأحــاديث بيننا

وســـــالت بأعناق المطي الأباطح

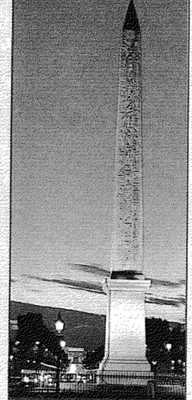


وقد كانت الخضرة والأشجار وحبات المطر تضفي على الطريق جمالاً مردداً قول القائل: نزلنا بها واستوقفتنا محاسن... فنحن في عاصمة الفنون والآداب والعطور والموضات، وكنت أتذكر ما كتبه الدكتور طه حسين وغيره من الأدباء الذين عاشوا في رحابها ودرسوا في جامعة السوربون.. وشاهدنا في طريقنا نهر السين الذي يخترق المدينة واجتزنا العديد من الجسور والشوارع والأرصفة الفسيحة المصممة منذ القرن التاسع عشر لتقدم مشهداً خلاباً لقوس النصر وبرج إيفل، ووصلنا مقر السكن.

وبما أن باريس مدينة ضخمة عامرة بالمعالم والمشاهد فلا بد من وضع برنامج نتمكن من خلاله من الزيارة والاطلاع على المعالم والمناطق والمراكز والمكتبات والآثار والأحياء القديمة والحديثة، فهذه المدينة تاريخها قديم من ٢٥٠ قبل الميلاد وقد جذب موقعها الاستراتيجي أنظار يوليوس قيصر الذي فتحها عام ٥٢ قبل الميلاد وكانت الأراضي الممتدة على ضفتي النهر كثيرة المستنقعات فوسع الرومان حدودها وتوغلوا بها إلى داخل الضفة اليسرى أي ما يعرف اليوم بالحي اللاتيني، وفي متحف اللوفر مشاهد لفنون القرون القديمة والوسطى ولقد مرت بمد وجزر وغزوات منتظمة وعرفت المدينة ركوداً طويلاً حتى تولى هوغ بيه عرش فرنسا عام ٩٨٧م إذ جعلت سلالته من المدينة عاصمة فرنسا الاقتصادية والسياسية وكان نهر السين مفتاح الازدهار التجاري.. وهذا ما يذكرني بمقولة ابن خلدون أن المدن في حضارتها لا تنشأ إلا على ضفاف الأنهار وأن ما يجعل باريس مدينة حضارية سياحية هو جمالها ومعالمها ونهرها وميادينها فهي تمثل أحد مراكز الحضارة الغربية.

وخلال وجودنا في باريس حرصنا على زيارة مختلف المعالم والمتاحف ويلاحظ السائح أن هناك

اهتماماً بترميم المباني وإخراجها إلى عالم النور لتفوز باريس بلقب مدينة النور.. والواقع أنها تمتلك هذا اللقب بفضل ما حباها الله به من نهر وشمس وواجهات حجرية يطفو عليها اللون الأبيض ففي الصباح تضاء صفحة السين بألوان فضية وزرقاء، أما عند العصر فتفيض ساحة الكونكورد Place de la Concorde والأبنية الأنيقة التي ترتفع على جزيرة سان لويس Ile sf- louis ببريق ذهبي ساطع، ولقد شاهدنا العديد من الجسور وهي تزيد على واحد وثلاثين جسراً تمتد فوق نهر السين وينفرد منها بجماله وأناقته الأخاذة، وهذه الجسور تعكس صورة حقيقية لباريس.. وحرصنا على الاستراحة بعد جولة في أحد أهم شوارعها وهو "الشانزليزية" حيث توقفنا على شرفة أحد المقاهي لمشاهدة الشوارع المكتظة بالسائحين المتوجهين إلى الأماكن السياحية من خلال وسائل المواصلات والرحلات النهرية في السين وهي من أفضل طرق التعرف إلى المدينة.. أثناء الرحلة يقوم معلق سياحي يتكلم عدة لغات بالتعريف على المشاهد التي تمر أمام الأنظار.. وتعمل هذه المراكب صباحاً ومساء حتى الحادية عشرة ليلاً، وقد تجولنا من خلالها على مختلف المعالم والضواحي الشمالية الشرقية، ولقد لاحظت أن غالبية السواح يفضلون التعرف على المدينة من خلال السير على الأقدام، وفي محطات المترو تقدم خرائط مفصلة للمناطق والشوارع وحدائق المدينة وساحاتها، وتنقسم باريس إلى عشرين دائرة تبدأ من الوسط حول اللوفر وكل دائرة تحتضن عدة مراكز وأحياء وأبراج وشوارع ومساكن كما تضم باريس ٣٦ جسراً تعبر نهر السين وتربط ضفتيه اليمنى واليسرى.. وخلال جولتنا مررنا بعدة ساحات تحمل أسماء زعماء فرنسا وما أكثر الشوارع التي تحمل أسماء القديسين في هذه المدينة الجامعة بين المتناقضات.



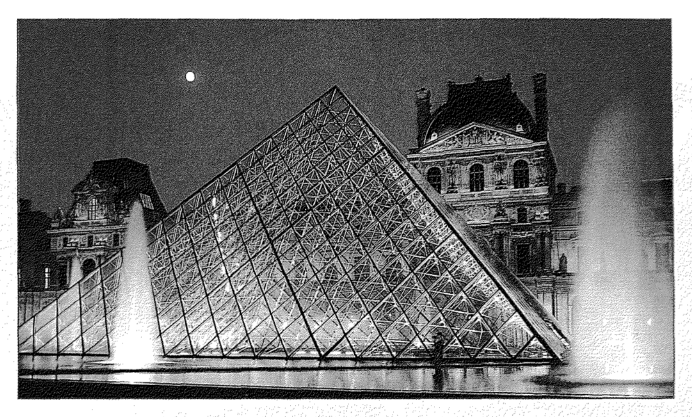
وذهبنا لزيارة برج مونبارناس المؤلَّف من ٥٩ طابقاً، ولعل هذا البرج هو أبرز مكان لرؤية المدينة وقل أن يأتي سائح إلا ويذهب لهذا المكان، وبعد قضاء وقت ممتع واستراحة في أحد مقاهي البرج الذي يعج بالمئات والأشكال والتقاليع والغرائب والمتناقضات، حقاً ما أجمل بلادنا وأروع صحراءها ومناظرها ولقد صدق أبو الطيب المتنبي حين قال:

الموقدون بنجد نار بادية
لا يحضرون وفقد العز في الحضر

وما أبلغ قوله حينما يشاهد المرء فتيات باريس:

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها
مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

ثم قمنا بزيارة للحي اللاتيني وزيارة جامعة السوربون ودخلنا مبنى الجامعة التي تعتبر أشهر وأقدم جامعات أوروبا ولها دور في الحضارة الأوروبية. وقد كانت في الأصل كلية صغيرة بناها روجردي سوربون SARBONNE في عام ١٢٥٣م للدراسات



الدينية وقد ألحق بها مكتبة كانت تضم العديد من المراجع والمخطوطات كما أنها كانت تتمتع بأساتذة مختارين.. وقد أعاد رويشيلو بناءها إذ هو مؤسسها الثاني في عام ١٦٢٤م وقد أغلقت السوربون خلال الثورة الفرنسية وفي عام ١٨٢١م أصبحت مقراً لجامعة باريس التي أعيد تنظيمها فيما بين ١٨٨٥ و١٩٠١ حيث أعيد بناؤها تماماً، وقد أمضيت زهاء ساعتين متنقلاً بين أقسامها ومكتبتها، وما كان الوقت متسعاً لزيارة جميع القاعات والأقسام وقد أعيانا المشي، فاسترحت مع أحد الأصدقاء في المقهى المواجه لمدخل الجامعة لمشاهدة جو الطلاب في الجامعة وبعد قضاء برهة من الوقت توجهنا لبرج مونبرناس وركبنا سيارة أجرة وقطعنا الطريق خلال دقائق رغم الازدحام الهائل حيث كان الجو صافياً كما أن منظر نهر السين الذي يخترق المدينة أضفى عليها جمالاً.

الحياة في باريس غالية لأن الدخل مرتفع وحالة الناس فيها مادياً واجتماعياً ممتازة والفرنسيون يتحدثون دائماً عن بلادهم بشيء من الفخر والاعتزاز، ويرون أنهم قد وصلوا إلى أوج الحضارة والمدنية، ونسبة التعليم مرتفعة. ولاحظت أن أكثر الفرنسيين يكرهون الملونين من السود والصفر والسمر.. ورغم ذلك فلديهم أعداد كبيرة من المهاجرين من أفريقيا ممن أقاموا مدة طويلة.

ثم قمنا بزيارة إلى متحف اللوفر أحد أكبر المتاحف في العالم وهو قصر ضخم واسع وبه معروضات شتى ترجع في تاريخها إلى القرن السابع قبل الميلاد وحتى القرن التاسع عشر الميلادي وتغطي مساحات ثقافية وجغرافية شاسعة، لقد كان هذا المتحف في بدايته قلعة ثم تحولت إلى واحد من أكبر قصور العالم.. ويضم متحف اللوفر بين جوانبه العديد من المكاتب الإدارية والقاعات ومتحف الفنون الزخرفية وبه كنوز شتى وأعمال فنية مبدعة كما تتميز واجهاته بأهمية معمارية خاصة، وقد عُمِّر في القرن الثالث عشر واكتمل بناؤه في القرن السابع عشر.

ثم قمت بجولة شاهدت خلالها برج إيفل وقصر رئاسة الجمهورية وشارع الشانزليزيه. والمسلة المصرية التي نقلت من مصر رغم طولها.. وبقيت بارزة شامخة في نهاية شارع الشانزليزيه وعلى ضفاف نهر السين وكذا محكمة العدل وسجن الباستيل الذي يقول فيه الشاعر:

ومـــا البـــاســـتـــيل إلا نبت أمس

وكم أكل الحـــديد بهـــا ســـجـــينا

ومررنا ونحن في السيارة بعشرات الشوارع الرئيسية مثل سانت جرمان وسان ميشيل وكنيسة نوتردام وقوس النصر والأوبرا، ثم وقفنا عند نهر السين الذي يخترق المدينة ويقف الناس على ضفافه حيث باعة الصحف والمجلات والكتب والرسامين بلوحاتهم وبعد ذلك توجهنا للاستراحة في أحد مقاهي الشارع الجميل "الشانزليزيه" وهو من أجمل وأروع الشوارع في أوروبا كلها وعلى جوانبه المحلات التجارية الضخمة ومكاتب البنوك وشركات الطيران والمطاعم الفخمة والمقاهي الجميلة كل شيء موجود ولكن بأسعار مرتفعة، وفي هذا الشارع يشاهد المرء أصنافاً شتى من البشر حيث يوجد سائحون كثيرون من عرب وعجم وأشكال وألوان متباينة نشاهدهم في هذا الميدان رائحين جماعات ووحدانا منهم من يمشي الهوينا ومنهم من يسير على عجل.

خلال تجولي في هذا الشارع الجميل وفي مقاهيه الأنيقة التقيت بعدد من الإخوان والأصدقاء من سعوديين وكويتيين وقطريين ممن أعرفهم سابقاً ومنهم من جرى التعارف معه ولعل الفضل في تعارفنا في هذه الديار كما يقول الشاعر:

وكل غـــريب للغـــريب نســـيب.

وخلال هذا اللقاء أنست بلقاء الإخوة حيث أمضينا وقتاً جميلاً تحدثنا فيه عن هذه المدينة الصاخبة ومظاهر الحياة فيها.

وفي هذا الشارع دخلت العديد من المكتبات التي تحفل بالكتب المتنوعة ولعل جهلي باللغة الفرنسية من الأسباب التي لم تمكني من معرفة قيمة هذه الكتب وفائدتها، ثم ذهبت لزيارة متحف الشمع وقصر شيو وساحة الكونكورد والباستيل والأحياء القديمة.

ومع مجموعة من السائحين توجهنا صوب برج إيفل ذلك البرج الحديدي الذي أقامه جوستاف إيفل وبناه ليكون مركزاً للمعرض الفني عام ١٨٨٩م وقد عارضه في ذلك الوقت مجموعة من الشخصيات الفرنسية بحجة أنه غير مأمون ومعرض للسقوط، وقد حكى لنا أحد المرشدين الواقفين بجواره قصصاً شتى عنه، منها: أن الألمان حينما احتلوا فرنسا حاولوا تفكيكه وأخذ حديده وغير ذلك من الأحاديث التاريخية..



وقد شاهدت الناس يتفرجون على البرج وتعرضت لأسئلة كثيرة من قبل سائحين آخرين عن هذا البرج بلغات شتى وكنت أكتفي بهز رأسي.. وتركنا البرج للذهاب في رحلة لجبل السان ميشيل وهو يبعد عن باريس ثلاث ساعات إلا أن زيارته متعة للسائح حيث مشاهدة الريف الفرنسي حيث المدن والقرى الجميلة والمزارع الخضراء البديعة وهو يقع بين منطقتي البريثانية والنورماندي اللتين مع بحري المانش والأطلنطي.. وهاتان المنطقتان غنيتان بالجمال الطبيعي مما يشد السائح ويدفعه للتجول ورؤية هذه الأماكن والصخرة التي يجثم عليها هذا الجبل بتعرضها للمد والجزر. وهذا الجبل يعود لفترة طويلة من الزمن يعود إلى القرن الثامن الميلادي كما حكى لنا المرشد الفرنسي أساطير وحكايات متعددة حول هذا المكان مما هو قابل للصدق والكذب، ولعل منظر المدينة وأسواقها ومنازلها التي تطل من جهات متنوعة على البحر مما يلفت نظر السائح ويجعله ينعم بجو من الهدوء والانسجام والتأمل.. ثم جلسنا في أحد المقاهي للاستراحة.

ومن حديث إلى حديث سرعان ما امتلأت السماء بالغيوم الكثيفة وقبل أن يتساقط المطر عدنا إلى باريس استعداداً لرحلة يوم آخر إلى قصر فرساي الشهير، مردداً قول الشاعر:

ارحل وشاهد به ما قد سمعت به
شتان عندي بين الخُبْرِ والخَبَرِ

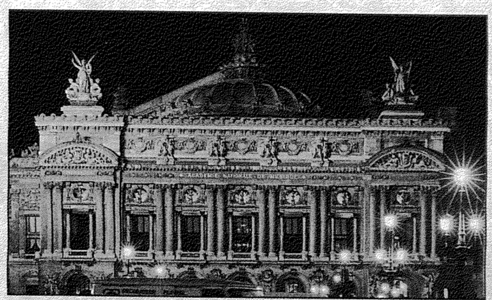
وفي الصباح توجهنا بصحبة بعض الإخوان إلى قصر فرساي وقد كان الجو صافياً جميلاً وكان الطريق ممتعاً، فقد حبى الله هذه البلاد بجمال طبيعي أخاذ يسرُّ الناظر وينشرح له القلب مردداً قول الشاعر:

الأرض قد كسيت رداء أخضرا
والطل ينثر في رُباها جوهرا

ولأهميته التاريخية سوف أعطيك أيها القارئ لمحة تاريخية عنه.. قصر فرساي - يشمل القلعة والحدائق وبهو الأعمدة - ويصور المدى الذي وصل إليه الفن الفرنسي. فزوار هذا المكان منذ القدم يبهرهم فن المعمار، الديكورات، وروعة الحدائق، فهو من أعظم قصور ملوك فرنسا.

وقد كان هذا القصر في البداية جناحاً متواضعاً خُصص لرحلات الصيد جرى تحويله أولاً إلى مقر ريفي ثم اتسع كي يصبح قلعة حقيقية تحيط بها الحدائق.

وجرى استكمال القصر بعد ذلك ببناء مدينة حتى تم اختياره في النهاية كمقر رسمي للملك وبلاطه لإدارة شؤون البلاد.



وقد قام الملوك الأربعة الذين حكموا فرنسا منذ عام ١٦١٠ إلى ١٧٨٩ بإحداث تغييرات كبيرة على القلعة وما يُحيط بها من بيوت كل بما يتفق مع ذوقه ومفهومه لمعنى القلعة، وفي هذا القصر وُقِّعَتْ معاهدة فرساي المشهورة في أعقاب الحرب العالمية الأولى بين الألمان والحلفاء وذلك عام ١٩١٩م.

لكن الموقع كان من الجمال بحيث دفع لويس الثالث عشر عام ١٦٣١م لأن يطلب من فلبرت لي روي PHILIBERT LERAY أن يبني به قلعة من الطوب والحجارة وتكون سقوفها من الألواح الأردواز واستمر هذا القصر في أداء دوره التاريخي واليوم يستمر قصر فرساي في القيام بدور المتحف التاريخي.

ففي الجناح الشمالي تمثل غرف القرن السابع عشر مقدمة إلى جولة بين الحجرات الرسمية يمكن الاستمرار بعدها إلى قاعة المعارك. أما الحجرات في الجناح الجنوبي فقد خصصت لعصر نابليون. ومع تجديد حجرات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تكتمل هذه البانوراما الضخمة لتاريخ فرنسا.

لقد ترك ملوك فرنسا بصماتهم على قصر فرساي الذي أصبح يضم كنوزاً لا تحصى بالنسبة لكل من الزائر المتلهف للمعرفة ومؤرخ الفن.

فالرائي يحس في قلعة لويس الثالث عشر بروح الفن في أواخر القرن السادس عشر والفن الكلاسيكي في القرن السابع عشر حيث تلمس التطور الرائع في الفن الفرنسي. ورغم تنوع الآثار التي خلفها سكان القصر بأذواقهم المتباينة فإن القصر يعطي انطباعاً متكاملاً شاملاً في الانسجام والتوافق الفني.

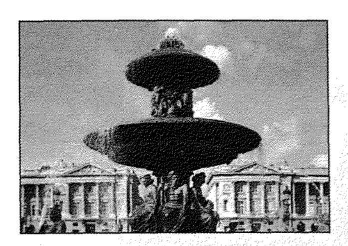
ووسط هذا الجو عاش ملوك فرساي، وفي حدائق القصر ترى البساط الأخضر تتناثر عليه أحواض الزهور ذات الألوان والنافورات المزخرفة وبرزت أهمية فرساي حيث أصبح مقراً دائماً للمعارض والمؤتمرات.

وبعد أن انتهينا من التجوال في القصر وحدائقه قمنا بالسير في البلدة التي تمتاز بمناظرها الساحرة ومتاجرها الأنيقة وشوارعها الفسيحة حيث تزخر بالحركة والنشاط السياحي، ثم عدنا بعد ذلك إلى العاصمة وخلال الطريق كنا نشاهد الريف الجميل، وننعم بالمناظر الرائعة حيث الأزهار والأشجار والحدائق والحقول الممتدة مرددين قول الشاعر:

كست الطبيعة وجه أرضك سندساً
وحبت نسيمك إذ تضوع طيبا
بسط تظللها الغصون فأينما
يممت خلت سرادقاً منصوباً

وعلى بعد ٣٠ كيلا من باريس قمنا برحلة إلى مدينة ديزني لاند التي تشتمل على كل ما يمكن للأطفال أن يستمتعوا به وأمضينا في رحابها يوماً كاملاً حيث استمتع الأولاد بالألعاب المسلية، وقد ذهبت إليها منقاداً لرغبة الأبناء فأنا لا أرتاح إلا لزيارة المكتبات والحدائق والمتاحف.

ولقد حرصت على زيارة معهد العالم العربي في باريس وجرى الحديث مع الصديق الدكتور عبدالرحمن الشبيلي خلال اللقاء به في مقهى "الفوكيت" برغبتي بزيارة المعهد العربي والمكتبة الوطنية ومسجد باريس والسفارة السعودية وقام مشكوراً بترتيب تلك الزيارة وجرى تحديد صباح يوم الجمعة حيث التقينا في قاعة فندق هيلتون وانطلقنا منه إلى معهد العالم العربي في باريس وكان في استقبالنا عدد من المسئولين وذهبنا معهم إلى مكتب المدير العام للمعهد حيث كان في انتظارنا وهو الدكتور مختار طالب بن دياب من



الجزائر ثم دعانا مدير عام المكتبة والمتحف الأستاذ عدنان الشافعي للاطلاع على مرافق المعهد ولمرافقتنا في هذه الجولة، لقد تأسس هذا المعهد سنة ١٩٨٧م في قلب باريس التاريخي ومن أهدافه تطوير وتعميق التعريف بالعالم العربي وفهمه في فرنسا ويضم المعهد متحفاً للفن العربي الإسلامي ومكتبة للمطالعة تضم بين جنباتها خمسة وثمانين ألف مجلد.

ويضم المعهد متحفاً للفن العربي الإسلامي ومركزاً للغة والحضارة العربية ومكتبة لبيع الكتب وقد أسس نتيجة لشراكة فرنسية وعربية ويقدم في كل عام برامج غنية تتطرق إلى كل ميادين الفن والثقافة والمعارض والتراث والندوات والأنشطة التربوية كما يقام بالمعهد عدة أنشطة ثقافية مهمة ويزوره أعداد كبيرة من الفرنسيين والأوروبيين وقد رأيناهم في قاعات المعهد ويتجاوز عددهم في كل عام بأكثر من مليون زائر وبذلك صار المعهد جزءاً لا يتجزأ من المشهد الثقافي الفرنسي والأوروبي ولقد قمت بتقديم بعض مطبوعاتي مع كتب أخرى عن نهضة المملكة وتطورها العلمي والثقافي.

ومن المعهد توجهنا لمسجد باريس لأداء صلاة الجمعة ثم إلى المكتبة الوطنية في باريس التي تتكون من خمسة وعشرين طابقاً.

المكتبة الوطنية العامة في باريس:

حدثني الدكتور عبدالرحمن الشبيلي عن هذه المكتبة وذكر أن فيها ما يغري بزيارتها وقد زارها مع رئيس مجلس الشورى خلال زيارتهم فرنسا منذ سنوات ورغبني في زيارتها وكنت قد عزمت على السفر خارج باريس فأجلت زيارتها وقررت ألا أغادر باريس قبل زيارة تلك المكتبة واتصلت هاتفياً بالمكتبة وأخبرتهم برغبتي في زيارتها وهي تتكون من خمسة وعشرين طابقاً وأجمل ما شاهدته قاعة الفهارس والمطالعة وحسن ترتيب الكتب وتجليدها التي تضم ملايين الكتب والدوريات، وبها قسم الكتب العربية والمخطوطات، وأمضيت في رحابها ثلاث ساعات وشاهدت مئات الزوار والباحثين حيث كانت القاعات غاصة بهم وتمنيت خلال ذلك معرفة اللغة الفرنسية حيث لم تكن لدي معرفة بها سوى كلمات بسيطة حتى أدرك خصائص الثقافة الفرنسية ومميزاتها لذا فلم استطع أن أدرك ما ينبغي وصفه لهذه المكتبة ومثل هذا لا يستطيعه إلا المتمكن من اللغة ودراسة تاريخ هذه البلاد وثقافتها والاستزادة منها علماً ومعرفة ولم أتمكن من الاطلاع على محتوياتها لضيق الوقت وطلب الفهارس يستلزم وقتاً طويلاً.

حدائق اللوكسمبورغ:

وبعد تناول الغداء في أحد مطاعم الحي اللاتيني أستأنفنا الجولة على الأقدام فقصدنا حدائق اللوكسمبورغ حيث تعد بأزهارها الزاهية أجمل المساحات الخضراء في الضفة اليسرى ويستمتع الأطفال باللعب على ضفاف البركة ويركبون في ملاعب مدينة الملاهي إنها حديقة واسعة ذات زهور مختلفة الألوان والنباتات وفيها أمكنة معدة للاستراحة بقرب

نافورة كبيرة محاطة بالأشجار المزهرة وفي الحديقة تماثيل كثيرة لمشاهير فرنسا من ملوك وأدباء وعلماء وفنانين وغيرهم، ومن الحديقة خرجنا لزيارة بعض المعالم الشهيرة لمركز بومبيدو الواقع في الدائرة الرابعة في ضواحي باريس ثم ذهبنا إلى محلات التحف القديمة في الضفة اليسرى حيث شاهدنا تحفاً يرجع تاريخها إلى عهد لويس الخامس عشر كما يتوزع تجار أثريات وتحف قديمة في نفس المكان. كما شاهدنا باعة الكتب القديمة المستعملة حيث يعطف باعة الكتب المستعملة على أرصفة السين خاصة بين جسر سان ميشال وجسر الفنون.

وفي صباح يوم ممطر جميل توجهنا إلى معلم سياحي آخر وهو جبل مونماتر Montmarte ووجدناه ممتلئاً بالسياح من كل البلدان وهو قرية قائمة على قمة هضبة مع شوارع ضيقة متعرجة وطرق مسدودة قد اقترنت هذه المنطقة في القرون المنصرمة بالفنانين والبوهيمين وشاهدنا من خلال هذا الجبل المنطقة بكاملها، ومشاهدة مدينة باريس، وتناولنا طعام الغذاء في أحد المطاعم وكان يعمل بها عدد من الشباب التونسيين والجلوس في هذه المطاعم من أكثر الأمور إمتاعاً، ومشاهدة الأماكن التي تعج بالسياح وفي هذا المكان تزدهر تجارة الرسامين والفنانين كما أن هذا الجبل يحتوي على كنيسة قديمة في سفح الجبل.

وخلال عودتنا إلى الحي اللاتيني مررنا بكنيسة نوتردام التي اتخذ الكاتب فيكتور هيجو من أحدبها بطلاً لروايته "أحدب نوتردام" وهي رمز باريس منذ عهد الجنرال ديجول الذي قام بتحرير باريس عام ١٩٤٤م حيث أقيم بها حفل وقداس وفي وفاته عام ١٩٧٠م أقيم حفل تأبيني لرحيله، ثم ذهبنا للمتحف الوطني للقرون الوسطى حيث توجد تحف فنية يتراوح تاريخها بين القرن الأول للأمبراطورية الرومانية وعام ١٥٠٠م وكذا مشاهدة بعض أعمال الرسامين والنحاتين.. وهكذا باريس تشتمل على العدد الكبير من المتاحف للعلوم وللفنون الجميلة والحديثة والقديمة وغيرها.

وبعد رؤية مشاهد عديدة في هذه البلاد وجولة في ربوعها التي تعج بالحياة والحركة غادرناها حيث انطلقت بنا السيارة إلى مطار شارل ديجول للعودة إلى بلادنا الزاهرة الزاهية:

بلادي بها ما يملأ العين بهجة
وتسلي عن الأوطان كل غريب

إن حب الوطن فطرة فطر الله عليها الإنسان ومن أساليب التعبير عن هذا الحب البوح بالحنين إليه عندما يكون المرء بعيداً عنه وأشير إلى ما ذكره الجاحظ من أن الحنين إلى الأوطان أمر تشترك فيه جميع الأمم والشعوب ومن يرجع إلى كتب اللغة والتراث يجد أن الكلمة وطن معاني كثيرة ومن هذا قول ابن الرومي:

ولي وطن آليت ألا أبيعه
وألا أرى غيري له الدهر مالكا

وقول أمير الشعراء أحمد شوقي حيث يعبر عن اشتياقه لوطنه مصر وهو في الأندلس:

وطني لو شغلت بالخلد عنه
نازعتني إليه في الخلد نفسي

ونختم القول بما قاله المؤرخ والشاعر خير الدين الزركلي:

العين بعد فراقها الوطنا
لا ساكنا ألفت ولا سكنا

خواطر أندلسية

كلما ذكرت الأندلس تراكضت في ذاكرتي مجموعة من أسماء مشاهير الأعلام بعضهم قادم إليها من المشرق العربي، وبعضهم من المغرب العربي في طليعة الفاتحين، وكثير منهم نبت ونشأ في تلك الربوع، وفي مقدمة تلك الأسماء موسى بن نصير وطارق بن زياد، الذي خلد اسمه بجميع اللغات على جبلها، ثم صقر قريش عبدالرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية في الأندلس، وزرياب الذي نشر الموسيقى والذوق الرفيع في تلك الربوع، وقد قدم كلاهما من عاصمة الرشيد، ومن الأسماء التي تقفز إلى الذاكرة بمجرد ذكر اسم الأندلس: عباس بن فرناس الذي حلق في السماء بجناحين صنعهما لنفسه قبل أن يفكر الطيارون في التحليق عالياً في الفضاء.

ويقفز إلى الذاكرة اسم ولادة بنت المستكفي الشاعرة التي أسست نادياً أدبياً يضم الشعراء والكتاب والوزراء، وكانت لمكانتها في المجتمع، تستطيع أن تكتب على ثوبها هذين البيتين:

أنا والله أصلحُ للمعالي ... وأمشي مشيتي وأتيه تيها
أمكنُ عاشقي من صحن خدي ... وأمنح قبلتي مَن يشتهيها

وأذكر ذا الوزارتين الشاعر الناثر ابن زيدون الذي طالما تغزل بولادة في أشعاره، ومن أشهر ما قاله فيها قصيدته التي تشوق فيها إليها عندما سُجن لوشاية جرها الحسد وتوكأتْ على السياسة نترك تفصيلها لأن الخوض فيها يطول، وفي سجنه ناجَى ولادة بقصيدة مطلعها:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لُقيانا تجافينا

وتراود الذاكرة أسماءُ لم تكن تروقنا لسوء ما فعله أصحابها بهذا الشاعر الذي أحببناه، منهم ابن عبدوس الذي طالما زاحم ابن زيدون في حبه لولادة وربما سبّب له الأتعاب والأوصاب، وطالما استحلينا ما قاله فيه ابن زيدون في رسالته التي سخر به فيها أيما سخرية.

أما المعتمد بن عباد ملك أشبيلية، فطالما أحببناه وأعجبنا بألمعية صاحبته الرميكية التي نالت إعجابه عندما رآها تسقي ماشيتها من عين ماء هبت عليها نسمة زرّدت سطحَها فطلب من وزيره ابن عمار أن يُجيز قوله:

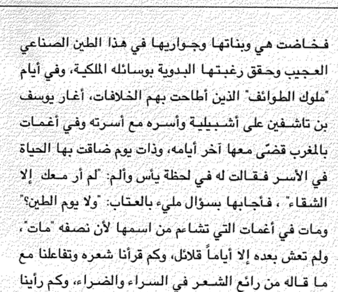
صنعَ الريحُ على الماء زرَدْ

فسبقت الوزيرَ مجيزة:

أي درع لقتال لو جمدْ

فنالت إعجابه وتزوجها واشتق لها من لقبه الملكي اسمها "اعتماد".

وكم رددنا قصصه الطريفة معها التي منها أنها اشتهت أن ترى الثلج في إشبيلية، عاصمة ملكه، كما كانت تراه في غرناطة، فأمر بزرع أشجار اللوز حول قصره فكانت ترى أزهارها على الأغصان كالثلج عندما تُزهر في فصل الشتاء، ومن حكاياتها الطريفة معه أنها رأت بعض نساء البادية بإشبيلية يبعن اللبن في القِرب وهن ماشيات في الطين حافيات، وذكرها ذلك المنظرُ أيامها الخاليات في البادية فاشتهت عليه أن تفعل فعلهن، فأمر بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد وصيرها جميعها كالطين في قصره وجعل لها قرباً وحبالاً من الحرير

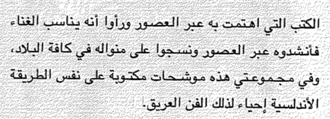


فخاضت هي وبناتها وجواريها في هذا الطين الصناعي العجيب وحقق رغبتها البدوية بوسائله الملكية، وفي أيام "ملوك الطوائف" الذين أطاحت بهم الخلافات، أغار يوسف بن تاشفين على أشبيلية وأسره مع أسرته وفي أغمات بالمغرب قضّى معها آخر أيامه، وذات يوم ضاقت بها الحياة في الأسر فقالت له في لحظة يأس وألم: "لم أر معك إلا الشقاء" ، فأجابها بسؤال مليء بالعتاب: "ولا يوم الطين؟" ومات في أغمات التي تشاءم من اسمها لأن نصفه "مات"، ولم تعش بعده إلا أياماً قلائل، وكم قرأنا شعره وتفاعلنا مع ما قاله من رائع الشعر في السراء والضراء، وكم رأينا قصره يحفل بالشعر والشعراء والعلم والعلماء.

ولا تنفك الأسماء تتزاحم على الذاكرة من أعلام الأندلس من أمثال ابن عبدربه الذي ألف كتاب "العقد الفريد"

لكن الشاعر الوزير المشرقي "الصاحب بن عباد" تلا عندما قرأه: "هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا". لأنه وجده لا يروي إلا أخبار وأشعار أدباء المشرق الذين نبتوا في الجزيرة العربية في غرب آسيا وهو أدرى بها، وكان يبحث فيه عن أخبار وأشعار أهل المغرب فلم يظفر بها فيه، لذلك يخطر ببالي دائماً ابنُ بسام الذي ألف كتاب "الذخيرة في محاسن شعراء الجزيرة" وكأنه استجاب به لرغبة الصاحب بن عباد ورد به على مواطنه صاحب العقد الفريد، فلم يتحدث إلا عن أدباء الجزيرة الغربية في غرب أوروبا: أندلس الأمس.

ويكفي شعراء الأندلس فخراً أنهم ابتكروا فنا شعرياً جديداً لم يعرفه شعراء البلاد العربية قبلهم، نوعوا أوزانه وعددوا ضروبه ولونوا قوافيه، ونال هذا الابتكارُ إعجابَ شعراء المشرق العربي فاقتدوا بهم فيه، وقد حفلت المدونة الشعرية بكثير من



أ. د. نور الدين صمود

تونس

الكتب التي اهتمت به عبر العصور ورأوا أنه يناسب الغناء فأنشدوه عبر العصور ونسجوا على منواله في كافة البلاد، وفي مجموعتي هذه موشحات مكتوبة على نفس الطريقة الأندلسية إحياء لذلك الفن العريق.

ورغم ضياع الفردوس المفقود فإن آثار العرب باقية فيه وما زالت مزاراً للوافدين من كل حدب وصوب ومن أكبرها وأعجبها "قصر الحمراء" الذي زُخرفت جدرانه بهذه الكلمة الخالدة: (ولا غالب إلا الله) التي أجاب بها الخليفة المنتصر الهاتفين بنصره: "أنت الغالب". وقد بقيت تلك الكلمة متغلغلة في الأندلسيين ينقشها المزخرفون على الأخشاب ويرسمونها على الورق والحرير وينقلونها من مخيلاتهم لأنهم حفظوها عن ظهر قلب أباً عن جدٍّ، منذ اليوم الذي خرج فيه أجدادهم من غرناطة.

وأخيراً أذكر بكامل الرهبة قول أم آخر ملوك الأندلس لابنها الطفل أبي عبدالله عندما بكى ضياعَ ملكه يوم سقوط غرناطة.

إنكِ مثلَ الأطفال ملكا مُضاعاً ... لم تصُنْهُ كما يصونُ الرجالُ

ورغم كل شيء فإننا مازلنا نعيش بأفكارنا وأشعارنا في الفردوس المفقود، وما زلنا نجد في أندلس الأمس وأسبانيا اليوم أخبارنا وآثارنا ونقول للعالم أجمع.

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثارِ

ولو أني تركت العنان لأفراس الذكريات في هذا الميدان لما توقفت عند غاية، لذلك أجدني مضطراً لكبح جماحها وإيقافها عند هذه النهاية، وربما تكون لي عودة إليها في مناسبة أخرى ■





مكانة المتلقي في أدب الجاحظ

ظل المتلقي عنصراً مهملاً إلى حد ما في الثالوث الذائع: المبدع (صاحب الأثر الفني)، والأثر الفني نفسه (النص)، والمتلقي، بيد أن أصحاب نظريات حديثه عُرفت بنظريات التلقي (Reception Theories) جعلت من القارئ (المتلقي) محوراً لها، ومن ثم أولته اهتماماً كبيراً، ولم يَعُد المؤلف أُس المرجعية في فهم المعنى باعتبار مقصد المؤلف، أو أن أثره الأدبي تعبير عن خلجات نفسه ومشاعره.

وقد حظى المتلقى باحتفاء كبير في النصف الأخير من القرن المنصرم ففي ألمانيا برز ذلك الاهتمام على يد علمين كبيرين هما: ولفجانج إيزر W.iser، وهانز روبرت ياوس (H.R.jauss)، وكانت آراؤهما بمثابة العامل الأساس لتأسيس نظرية جديدة في السبعينيات لمحاولة فهم الأدب ودراسته، بعدما استقر في أذهان كثيرين أن النقاد الجدد ظلوا ينظرون إلى النص بمعزل عن المتلقى، وأن له وجوداً موضوعياً قائماً بذاته.

وقد بلغ الاهتمام بالمتلقى مداه منذ أن كتب رولان بارت مقاله الذائع سنة ١٩٦٨م وجعل عنوانه دالاً "موت المؤلف"، ذلك المقال الذي كان مأخوذاً فيه بنظرية التلقي الجمالية، تلك النظرية التي مهّدَ



عبدالمرضى زكريا خالد

كلية الشريعة واللغة العربية - رأس الخيمة

لها السابقون لبارت (Barthes) إبان متابعتهم لتعددية التلقي، الأمر الذي أعلا مكانة المتلقي، وجعله صنواً للمؤلف، أو لنقل مؤلفاً آخر يقتفي أثر المؤلف الأصلي الذي مات أو أُلغى عن طريق استيعاب النص الجديد في إطار سياقاته وتداعياته، ومن ثم فإن النص المبْدَع وحده، وظروف تشكيله هما اللذان يوجهان عملية التلقى، بل يجعلان لها وجوها متباينة متعددة.

نقول ذلك مع تسليمنا بنتيجة الموقف النقدي إزاء ما يرومه صاحب النص أو يقصده، وقد أسفر ذلك عن رأيين كليهما يتسم بالتحيز: أحدهما إلى مؤلف النص، والآخر إلى متلقيه، وليس بخافٍ أن أنصار الاتجاه الأول قد اتكأوا على كل ما من شأنه تبيان مقاصد صاحب النص، فربطوا من ثم بين النص وصاحبه، ومناسبة تأسيسه، وسياقه الزمني، وأسقطوا ذلك كله في النهاية إلى معرفة مقصده.

وحرى بالذكر أن الرأي المتقدم ذكره قد قُوبل بعاصفة عاتية من أنصار الاتجاهين: البنيوي والتفكيكي معاً (١)، فقد أعطى التفكيكيون القارئ حرية شبه مطلقة في قراءة النص كيفما شاء، وهو ما سُمى بتعددية القراءة وأحقيتها، دون أن يكون لأية قراءة سابقة حق التسلط على القراءات اللاحقة، ولا غرو إذن في أن تصبح "أركان النص كلها في اتجاه واحد: لا نهائية الدلالة، والانتشار -Dis semintation، وكل قراءة للنص الأدبي إعادة قراءة" (٢).

والذي يعنينا في هذا المقام التأكيد على أن المتلقي أياً كان _قارئاً عادياً أو ناقداً أو مجموعة قراء- يعد مفتاح الأثر الأدبي، بل نزعم أن بقاء الأثر الأدبي وخلوده مرهون به، إنه المانح للأثر رؤية ما في كل زمان وأي مكان، فالمبدع لا يكتب لنفسه، وإنما يكتب لقارئ أو جمهور، وبذا يدخل المبدع برسالته (أثره الأدبي) مع المتلقى في علاقة حوارية، وقد أنصف و. إيزر (iset) عندما رأى أن مهمة الناقد "ليست شرح النص حيث هو موضوع، بل موضوع شرح الآثار التي يخلقها النص في القاريء، فالنصوص بطبيعتها تُتيح سلسلة من القراءات الممكنة".

ولا نبالغ إذا قلنا إن المتلقى قد حظى باهتمام وفير في تراثنا الأدبي، وينبئ تراثنا الشعري _فن العربية الأول- عن علاقات وشيجة بين الشاعر وجمهوره، من ذلك ذهاب الشاعر ببضاعته _إلى متلقيه عارضاً عليهم في تلك المحافل بضاعته،

الجاحظ زعيم البيان العربي ورائده

شهدت بذلك عكاظ ومجنة وذي المجاز والمربد.. وسواها.

ونقتصر في هذه المقالة على زعيم البيان العربي ورائده الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) الذي يُعد بحق علماً بارزاً من معالم ثقافتنا العربية، وحسبنا في هذا المقام ماذكره أحد الباحثين(٤) من أنه لم يدع علماً من العلوم، ولا فناً من الفنون، ولا نوعاً من أنواع المعرفة الشائعة في زمانه إلا حدَّ أصوله، وفرَّع فروعه، وقعَّد قواعده، وبيَّن مناهجه.

وقد حظى المتلقى بعناية الجاحظ، ويبدو ذلك جلياً في كثير من مؤلفاته الذائعة، ويتجلى هذا الاهتمام والاحتفاء بالمتلقى في عدة مظاهر منها:

[١] الاستطراد بوصفه لازمة من لوازم الجاحظ الأسلوبية، وخاصية اتسم بها أدبه النثرى الفني، إذ لا يعدم المتتبع لتصانيفه الثرة التي خلفها ملاحظة تنقل الجاحظ من موضوع إلى موضوع، والولوج بالقارئ إلى أفكار كثيرة، متنقلاً به من فكرة إلى أخرى.

وفي ظني أنه بصنيعه هذا كان حريصاً على استمرار متلقيه وافر النشاط، عظيم الاهتمام بمتابعة تلقي أثره الأدبي، وكأنه بذلك يخشى إصابة متلقيه بسآمة أو إطالة في موضوع بعينه، فلِمَ لا يسري عن متلقيه؟ وهو الواسع في معرفته، الضليع في ثقافته، العظيم في خبرته، الرحب في عقله وتفكيره، ومن ثم فليس غريباً أن نجد ظاهرة الاستطراد جلية في جل تصانيفه، حتى إننا لنجد في كتابه الذائع "الحيوان" الذي يدل اسمه على أن موضوعه في علم التاريخ الطبيعي، لما يزخر به من حديث عن طبيعة الحيوان وصنوفه وأشكاله، وحياته وطباعه.. وما إلى ذلك، نقول على الرغم من ذلك كله، فإن الكتاب يزخر بأعلام العلماء والرواة، والأخبار والسير، وفنون القول بين المنظوم والمنثور، والأحاجي والألغاز، ويُعزى ذلك في ظننا إلى حرص الجاحظ على متلقيه، إذ نراه يقول: "فإن أراد -يقصد القارئ- قراءة الجميع لم يُطل عليه الباب الأول، حتى يهجم على الثاني، ولا الثاني حتى يهجم على الثالث، فهو أبداً مستفيد ومستطرف، ولا يزال نشاطه زائداً، ومتى خرج من آى القرآن، صار إلى الأثر، ومتى خرج من أثر، صار إلى خبر، ثم خرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعر إلى نوادر، ومن النوادر إلى حكم عقلية، ومقاييس سداد، ثم لا يترك هذا الباب، ولعله أن يكون أثقل والملال إليه أسرع، حتى يفضى به إلى

فـرح وفكاهة، وإلى سَـخَف وخـرافـة، ولستُ أراه سـخـفـا إذا كنت إنما اسـتـعملت سـيـرة الحكماء وآداب العلماء"(٥)

وحديث الجاحظ المتقدم من الأهمية بمكان، لأنه يحدد منهجه، واحتفاءه بالمتلقي، ورغبته، بل حرصه على توفيـر كل مـا من شـأنه عـدم الإثقـال عليـه، وجذب نفس المتلقي إلى الراحـة، وتشويقه لمتابعة التـلقـي عن طـريق التـنـويـع تـارة، والتـلويـن تـارة أخـرى، ولذا دأب الجـاحـظ على توشـيـح كـتـابـه الحـيـوان – الذي قـبـسنا منه النص السـالف – بنوادر من ضـروب الشـعـر وضـروب الأحـاديث.. لماذا؟

يجـيـب الجـاحظ نفـسـه بقـوله: "فـإني رأيت الأسمـا ع تمل الأصوات المطربة، والأغاني الحسنة، والأوتار الفصيحه إذا طال ذلك عليها، وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أورثت الغفلة"(٦)

[٢] مـا يراه الدكـتـور عـبـدالحكيم بلبع من مقصد الجاحظ من تأليف كتابه "البيان والتبيين"، وهو هدف تعليمي ليس إلا.. تعليم البيان وتيسير سُبله للناس (المتلقين)، ولذلك فـإنه يعـرض فنوناً مـخـتـلفـة من الآثار والأخـبـار والأشـعـار والخطب وأقوال السابقين في شتى المناحي.(٧)

ولعل ممـا يؤيد مـا ذهب إليـه الدكـتـور بلبع مـا نجـده لدى الجـاحـظ من احـتـفـاء باللفظ، ودعـوة صـريحـة إلى ضـرورة الوضـوح وعـدم التكلف، لما عـسى ألا يسلس ولا يسـهل إلا بعـد الرياضـة الطويلة، فنراه يقـول في البيـان والتـبـيين: "ولكل صناعـة ألفاظ قـد حـصلت لأهلها بعـد امـتـحـان سـواها، فلم تلزق عنهم إلا بعـد أن كانت مشـاكلاً بينها وبين تلك المعاني، وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة، أو في مخاطبة العوام والجار، أو مخاطبة أهله وعبده وأَمَته" (٨)

ومذهب الجاحظ في الألفاظ منتشر في ثنايا كـتابه البيـان وكتبـه الأخرى، وكـذا في رسـائله، ودعوته صريحـة للمواءمة بين الكلمة ومعناها، وهو يوصى الكُتَّاب دائماً بحتمية مراعاتها، وإدراك الصلة بين الألفـاظ والمعـاني بغـيـة التناسب والانسـجـام اللذين من شأنهما مساعدة المتلقي، وتيسير السبيل أمامه لإدراك مـاهيـة النص الأدبي، والوقـوف على مـا به من جماليات.

الأسماع تمل الأصوات المطربة إذا طال ذلك عليها

[٣] ويُعْـزى اهـتـمـام الجاحظ بالحديث عن اللفظ

إلى عنايته بالمعنى الذي هو قبل التعبير لديه، لأن المعنى قبل التعبير عنه يكون مكنوناً خفياً، فلنستمع إلى قوله في كتابه البيان والتبيين: "المعاني القائمة في صدور العباد مستورة خفية، وبعيدة وحشية، وموجودة في معنى معدومة، وإنما تحيا المعاني في ذكرهم لها، وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها، وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجليها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهراً، والغائب شاهداً، والبعيد قريباً، وهي التي تخلص الملتبس، وتحل المنعقد، وتجعل المبهم مقيداً، والمقيد مطلقاً، والمجهول معروفاً، وعلى قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، ورقة المدخل، يكون إظهار المعنى، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع" (٩)

والعبارة الآنفة في غير حاجة إلى القول بأن صاحبها يدعو إلى طابع البساطة والسهولة على المستويين: الأدائي والتعبيري، والبعد عن الغموض والإلغاز والتعقيد.

لا غرو إذن أن نجد أبا عثمان الجاحظ دائم الحرص على توصية المبدعين بضرورة إعادة النظر فيما يكتبون بعد الفراغ من إبداعهم، وما ذلك كله إلا من أجل المتلقي الذي ربما يعيب ما في النص من مثالب، ويأخذ على صاحبه الكثير من المعايب، يقول الجاحظ: "وينبغي لمن كتب كتابا ألا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء، وكلهم عالم بالأمور، وكلهم متفرغ له، ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلا، ولا يرضى بالرأى الفطير، فإن لابتداء الكتاب فتنة وعجبا، فإذا سكنت الطبيعة، وهدأت الحركة، وتراجعت الأخلاط، وعادت النفس وافرة، أعاد النظر فيه، فيتوقف عند فصوله توقف مَنْ يكون وزن طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب"(١٠)

وغني عن البيان أن مقولة الجاحظ السابقة تنصح المتلقين _كُتاباً كانوا أو قراءً- بما ينبغي أن يتبعوه في كتاباتهم سواء أكان العلم نظرياً أو تطبيقياً، إنه الجاحظ الباحث الذي يَسْتقري الظاهرة المدروسه، ويفكر في المنهج الذي يدرسها به، مع حرصه التام على الدقة والموضوعية، للوصول إلى حقيقة الأشياء كما هي في جوهرها وطبيعتها، وربما لهذا كله نالت مؤلفات الجاحظ عناية كبيرة من كبار العلماء: قدامى ومحدثين، وكانت مصدراً لكل من كتب في الأدب والنقد والفكر، وحسبنا في حرص أمير البيان العربي على استقراء جزئيات الظاهرة وكلياتها قوله: "أوصيك ألا تحقر شيئاً أبداً لصغر جثته، واعلم أن الجبل ليس بأدل على الله من الحصاة"(١١)

وعن منحاه في التأليف يذكر أستاذنا المرحوم عبدالسلام هارون(١٢) في مقدمة تحقيقه كتاب الحيوان أن همّ الجاحظ لم يكن مثل غيره من المؤلفين في الجمع والرواية والحفظ، وإنما وُكْدُه أن يبتكر وأن يُطرف، وأن يخلق للناس بديعاً، يمسح على جميعها بالدعابة والهزل، ويشيع الفكاهة في أثناء الكلام، فجمع بذلك قلوب القارئين إليه، واستولى منهم بذلك على شتى ميولهم إلى ما يكتب.

[٤] ما نلقاه لدى زعيم البيان العربي ورائده (الجاحظ) في فاتحة كتابه الحيوان، ذلك الذي ينبئ عن تعيين لنوعية المتلقي ومراعاة درجاته ومقداره، إذ نراه يحدثنا عن ذلك بقوله: "وهو كتاب يحتاج إليه المتوسط العامي، كما يحتاج إليه العالم الخاصي، ويحتاج إليه الرّيِّض، كما يحتاج إليه الحاذق... لأن كل من التقط كتاباً جامعاً، وباباً من أمهات العلم مجموعاً، كان له غُنْمه، وعلى مؤلفه غُرْمه، وكان له نفعه، وعلى صاحبه كدُّه، وهذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العُرْبُ والعجم، لأنه وإن كان عربياً أعرابياً، وإسلامياً جماعيا، فقد أخذ من طَرَف الفلسفة، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم

كتاب الحيوان : جمع بين معرفة السماع وعلم التجربة

الكتاب والسُّنة، وبين وجدان الحاسة، وإحساس الغريزة، ويشتهيه الفتيان، كما تشتهيه الشيوخ ويشتهيه الفاتك، كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعب ذو اللهو، كما يشتهيه المجد ذو الحزم، ويشتهيه الغفل كما يشتهيه الأريب، ويشتهيه الغبى، كما يشتهيه الفَطِن" (١٣)

والنص السالف في غير حاجة إلى بيان، إذ إن الجاحظ يحدد ملامح المتلقين وطبقاتهم ودرجاتهم، وينبئ عن درايته ووعيه بهم، ومراعاة مستوياتهم في الفهم والإدراك، بل مراعاة التواصل مع المتلقي، الذي إما أن يكون عادياً، أو متوسطاً، أو عالي الثقافة، ولذا كان حرص الجاحظ أن تكون مادته: موضوعاً وتعبيراً متنوعة تجمع بين المعرفة السماعية، وعلم التجربة، وطرف الفلسفة، والكتاب والسنة، وتنوع المادة مضموناً وأداءً من شأنه أن يشتهيه الفتيان والشيوخ على حد سواء، وكذا الفاتك والناسك، ويشتهيه اللاعب ذو اللهو، كما يشتهيه المجد ذو الحزم...، وهكذا يمكننا القول بأن الجاحظ يقر بتعدد طرائق التعبير التي تؤدي مهمة

كتاب الحيوان: جمع بين علم الكتاب والسُنة وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة

التوصيل للمتلقي الذي تتباين مستوياته المعرفية والثقافية هو الآخر، وحسبنا أنه القائل: "إذا كان كلام الناس في طبقات، فالمتلقون طبقات" (١٤).

[٥] فاتحة كتاب الجاحظ "البيان والتبيين" تلك التي يقول فيها: "اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن، ونعوذ بك من السلاطة والهَذَر، كما نعوذ بك من العِيّ والحَصَر، وقديماً ما تعوذوا بالله من شرهما، وتضرعوا إلى الله في السلامة منهما" (١٥).

وقد ذكر الجاحظ _وفقاً لثقافته الغزيرة، ومعارفه الجمة، وطبيعته الفنية الحرة _نماذج شعرية ونثرية يدلل بها على ذم الشعراء والكتاب العي والحصر، ثم استشهد بنماذج دالة من كتاب الله العزيز، والذي يهمنا من هذه المقدمة دلالتها على مذهب الجاحظ الصريح في الدعوة إلى الوضوح والكشف والظهور والبيان، وهذا الذي صدر به كتابه البيان ينسجم ومذهبه الذي يثبته في ثنايا موضوعاته سواء في بيانه، أو في كتابه الحيوان، وسواء في حديثه عن الألفاظ أو المعاني، ولنقف _تمثيلاً لا حصراً- على قوله في الحيوان: "ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء، فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال"(١٦)

ولا يكتفي الجاحظ بذلك، بل يواصل حديثه، لتأكيد الصلة بين النص المبدع والقارئ أو المتلقي، وهي صلة نفسية لها دلالتها لدى المتلقى صوب المُنْتَج الإبداعي الذي يحمل قيمة أو رسالة ذات مغزى ومقصد، وينبغي لهذه الرسالة أن يتوافر لها ما يحقق الغرض المقصود منها، ولا يكون ذلك إلا بإدراك المبدع اللفظ وجهته ووضعه في مكانه الملائم، وإلا صار الحديث الذي وضع على أنْ يسر النفوس يُكربها، ويأخذ بألظامها بتعبير الجاحظ.

الجاحظ إذن دائم الإلحاح على تقرير مذهبه في الوضوح وذم التكلف، ففي كتابه البيان نطالع قوله: "ومتى شاكل _أبقاك الله- ذلك اللفظ معناه،

وأعرب عن مخواه.. وسلم من فساد التكلف، كان قمينا بحسن الموقع، وبانتفاع المستمع، متى كان اللفظ سليماً من الفضول، بريئاً من التعقيد، حُبِّبَ إلى النفوس واتصل بالأذهان، والتحم بالعقول، وهشت إليه الأسماع، وارتاحت له القلوب، وخفّ على ألسنة الرواة، وشاع في الآفاق ذكره، وعظُم في الناس خطره"(١٧)

وتأسيساً على ما تقدم نلحظ احتفاء الجاحظ بالمتلقى، إضافة إلى عنايته بالنص الأدبي، وماينبغي أن يكون عليه صاحب النص تجاه أثره الفني الذي يمكن أن ينفسح لقيم إنسانية وجمالية تتيح له قدراًمن المجد والخلود والذيوع على مر الزمان، وقد طبّق الجاحظ ما دعا إليه، فلقيت كتبه رواجاً هائلاً، فصارت قبلة للعقول، ومقصداً لطلاب المعرفة.

وبالله التوفيق

هوامش الدراسة ومصادرها:

(١) راجع تمثيلاً لا حصراً: نظرية البنائية في النقد الأدبي، د. صلاح فضل، ط٢ الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٠م، والنظرية الأدبية المعاصرة، لرامان سلدن، ترجمة الدكتور جابر عصفور، الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر ١٩٩٠، والمرايا المحدبة للدكتور عبدالعزيز حموده.. من البنيوية إلى التفكيكية، عالم المعرفة، الكويت العدد ٢٣٢ سنة ١٩٩٨م، و"موقف من البنيوية" للدكتور شكري عياد، مجلة فصول القاهرية يناير ١٩٨١م، ص ١٩٨ وما بعدها.. وسواها.

(٢) المرايا المحدبة، د. عبدالعزيز حمودة ص ٣٨٤، نظرية القارئ للدكتور السيد إبراهيم، الفصل الأول ص٧ وما بعدها، زهراء الشرق مصر ١٩٩٨م.

(٣) انظر: في نظرية التلقي.. التفاعل بين النص والقارئ، ترجمة د. الكدية، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، ع٧ ص٦٩ وما بعدها، ويقسم إيزر القارئ قسمين: قارئ مضمر، وقارئ فعلي، ولمزيد من التفصيل ينظر أيضاً: نظرية التلقي لرويرت هولب، ترجمة الدكتور عز الدين إسماعيل، ط١، السعودية، النادي الأدبي الثقافي بجدة ١٩٩٤م.

(٤) ينظر: النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، للدكتور عبدالحكيم بلبع، ط٣، مكتبة وهبة القاهرة ١٩٧٥م، ص١٨٥.

(٥) الحيوان للجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون ٩٣/١، ٩٤ مصطفى الحلبي، القاهرة ط٢، ١٩٦٥م.

(٦) المصدر السابق نفسه ٧/٣.

(٧) انظر: النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، مرجع سابق، ص٢٦٧، ٢٦٨.

(٨) البيان والتبيين ٦/٢، تحقيق هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة.

(٩) المصدر السابق ٩/١.

(١٠) انظر: الحيوان ٨٨/١ وما بعدها، سبق ذكره.

(١١) المصدر السابق نفسه ٢٩٩/٢.

(١٢) مقدمة الحيوان، تحقيق هارون ٧/١-٨

(١٣) فاتحة كتاب الحيوان ١٠/١، ١١.

(١٤) البيان والتبيين ١٣٦/١.

(١٥) السابق نفسه ٣/١.

(١٦) الحيوان ٣٩/٣.

(١٧) البيان والتبيين ٦/٢، وانظر المصدر نفسه ٨٣/١.








* حدثنا ابن بطوطة (١) قال :

قضيتُ ثلث قرن من السنين الطوال في السفر والتجوال، أجوبُ السهول والقفار، والمضايق والبحار، وأنعمُ بالأمن والأمان في ربوع ديار المسلمين من قُرطبة إلى سور الصين بغير جواز سفر، ولا تأشيرة مُرور، ولكن الأمن اختل، فقد عصفت بحدائق الإسلام ذات البهجة رياح صليبية عاتية زلزلت المروج الغناء، وأحرقت الأزاهير والثمار، وأحاط الغُزاة بالهلال الخصيب إحاطة السِّوار بالمعصم الخضيب، وضيقوا الأرض من سهلٍ ومن جبل حتى بلغت القلوبُ الحناجر.

وانطلقتُ أستطلع آراء الجماهير، وأجري مُقابلات مع الجم الغفير باحثاً عن مرشحين أكفياء لقيادة الأمة المقهورة في مواجهة الهجمة المسعورة امتثالاً لقول الله تعالى:

﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ (٢) .



ولما أتممت عملي قصدتُ شيخي "ربيعة الرأي"(٣) علامة المدينة المنورة الخبير بالاستطلاعات الصحيحة والمزورة، وأطلعته على نتائجها، فأثنى على جُهدي، ودعا لي بالبركة، فما صمت قليلاً حتى قام من عُرض المجلس أحد تلاميذه وقال: أراك يا شيخنا تحتفي بكراريس هذا الرحالة المغربي، وما نفقهُ كثيراً مما تُدَنْدِنون به، فما هذه الكراريس؟

قال ربيعة الرأي: اعلموا يا أبنائي، أن هذه الكراريس أُعدت لقياس الرأي العام، وأن استطلاعات الرأي ضرورة لازمة للتخطيط الحكيم، والتقويم السليم، واستشراف المستقبل، والإعداد للمفاجآت والتحديات، ومشاركة الناس في صُنع القرارات. وأن هذه الاستطلاعات تعتمدُ على استبيانات تُوزع خبطَ عشواء على عينات، ثم تحلل بياناتها، وتُستخلص نتائجها وفق منهج إحصائي دقيق، ومُعامل ارتباط شفاف رقيق. ثم نظر إليَّ وقال: يابن بطوطة، أعلن لنا أسماء من رشحتهم الأمة لقيادتها في مواجهة الطواغيت والتتار، والعفاريت وأصحاب الدولار.

قلت: أسفرتْ نتائجُ الاستطلاع عن فوز ساحق للقادة الميامين الغُر المحجلين التالية أسماؤهم: صلاح الدين الأيوبي، وسيف الدين قُطز، ومحمد الفاتح، وعمر المختار، وعز الدين القسام(٤).

قال: الله أكبر ولله الحمد، فما تزال الأمة نابضة بالحياة فياضة بالخير إذ أجمعت على تقديم هؤلاء الصيد لقيادتها والذود عن أعراضها وحياضها، ولا غرو فقد خبرتْ فيهم الإخلاص والتقى، والعدل في الرعية، والشجاعة إذا الشر أبدى ناجذيه.

والأمة مُجمعة إلى يوم القيامة على تقديم من يحتذي بصفاتهم، ويقتدي بفعالهم، لأن هؤلاء الأفذاذ جاهدوا في الله حق جهاده، وربوا جيلاً صامداً حمل اللواء، ونازل الأعداء، ولكن أصحاب الدولار فرقوا كلمتهم بأساليب التحذير والإغراء، ووسائل الاحتواء والإغواء، وشنوا عليهم حرباً شعواء، واتبعوا في ذلك نهج فرعون خُطوة خُطوة، وحذو القُذة بالقُذة.

قلت: وكيف كان ذلك يا شيخنا؟

قال: لما ظهر أمرُ موسى عليه السلام حشدَ فرعون كل ما يملك لمحاربة دعوته، والقضاء على أتباعه، وأعلن عبر وسائل إعلامه فرض رأيه على العالم بالقوة القاهرة:

{قال فرعون مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى ومَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرشَادِ}(٥).

وأرسل مبعوثيه ليحشدوا لتحالُفه الدعم التام، وليبينوا للرأي العام أن موسى ومَنْ معه فئةٌ قليلة شريرة تسعى إلى تهديد الأمن وإثارة الفتن، وتدمير الحرية والديمقراطية، لذلك فعلى الجميع

كرههم والحذر منهم ومحاربتهم، ولا حياد فإما مع فرعون وإما مع موسى وهارون: {فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ}(٦).

ثم أعلن قراره بشن حرب دموية تطحنُهم، واثقاً من قهرهم والتفوق عليهم:

{قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ}(٧).

ولكن الدوائر دارتْ على فرعون وقومه الذين اتبعوا تضليله الإعلامي واستخفافه السياسي، فأصبحوا مثلاً لكل متجبر من الماضين والمعاصرين: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ}(٨).

قلت: ما أشبه الليلة بالبارحة! ألا ترى أن أصحاب الدولار قد انتزعوا رئاسة العالم بغير حقٍّ ولا خُلق، وبسطوا عضلاتهم، وكشروا عن أنيابهم حتى صاروا يلهثون متعطشين للدماء: {كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ}(٩).

الكلبُ أحسنُ حالةً

وهو النهايةُ في الخَساسةْ

ممن تصدر للرّياسةْ قبلَ إبان الرّياسةْ!

قال: والله ما كانوا ليتصدروا ويتنمروا ويفرضوا على الأمم قرارات "مؤتمر بال"(١٠) لولا تحولُ الأسود إلى "السيرك" للفُرجة والضحك وإراحة البال. (قال ابن خلدون في تاريخه: سمي مؤتمر "بال" بهذا الاسم، لأنهم "بالوا" فيه على العالم. وقيل: لأنهم أعطوا العالم حرية البول لا حرية القول)!

قلت: فما مصيرُ من يتذمر أو يتململ؟ أيكونُ كمصير الأعرابي المغفل الذي ربّى جروذئب، فلما شب وكَبِر أكل شاة صاحبه، فصاح الأعرابي نادماً مستنكراً:

أكلت شُويهتي وربَيتَ فينا

فمَنْ أنباك أن أباك ذيبُ؟!

قال: بل أسوأ من ذلك، فقد سلم الأعرابي نفسه، وافتُرستْ شاته، أمّا من يقول لأصحاب الدولار أُف فإنهم يقذفونه بطائرات ال "إفْ"، ومنْ يخالف الأب المنتشي تُصبّه قنابلُ "الأباتشي"! وعلى العالم بأسره أن يخضع لأم الدولار ويركع، فالشرعية الدولية أوجبتْ على ستة مليارات نسمة: ألا تقولوا "لماما" أُف، ولا تنهروا عملاءها، واخفضوا لها جناح الذل، ولو داستْ على رقابكم، أو عاثتْ في أعراضكم، أو سفكت دماءَ أطفالكم الرضع، وشيوخكم الركع، وبهائمكم الرتع!

قلت: عجباً، جُبلت الأمهات على الرفق والحنان، ألا ينتابُ "ماما الدولار" الحنان في بعض الأحيان، أم جُبلت على الفتك والسفك أبدَ الدهر؟

قال: سامحك الله يابن بطوطة، لقد وسعت "ماما الدولار" العالم كله عطفاً وحناناً ابتداءً من الهنود الحمر وأهل اليابان وكوريا وفيتنام، وانتهاء

بالأفغان الأحرار، وأهل بغداد الأخيار، وحبل "العطف" على الجرار!

وتصور أنها - من فرط عطفها وحنانها- تربطُ قنابلها الحارقة وصواريخها المدمرة بشحنات من الأغذية السامة، فمع كل سبعة أطنان من المتفجرات ترسلُ من "البيتزا" سبعة غرامات، فمَنْ لم يخترقه الصاروخ يصرعه الرغيف المشروخ، وتلك الشحنات العسكرية العسلية خاصة بالأطفال مراعاةً لحقوق الإنسان، وكسباً لتعاطف الرأي العام!

قلت: ولم هذا الإجرام كله لدى أصحاب الدولار؟ أليس فيهم رجل رشيد؟

قال: بلى كلهم رُشداء، وآيةُ ذلك أنهم إذا بلغوا سن الرشد قلعوا أسنان الشعوب، وملأوا بثرواتها الجيوب، ورقصوا "الباليه" على عَذابات الشمال والجنوب!

وأما هذا الإجرام فطبعٌ غلبَ التطبع، وسرى في جيناتهم الوراثية بعد إبادة الهنود الحمر، ومص دمائهم الزكية، وهم يرومون من إجرامهم طمسَ الخط العربي حتى تصبح كل همزةٍ متوسطةٍ أو متطرفةٍ مُستسلمة لا تقوى على "وصل" ذاتها أو "قطع" شأفة أعدائها!

قلت: إن الأمم اليوم تداعتْ علينا بحجج واهية، وسامتْ أمتنا الخسف، فهل نستسلم وننتظر تعاطف *الرأي العام العالمي*، أم نقاومُ بما استطعنا من قوة، وبما ملكنا من طاقة وعُدة؟

قال: اعلم يابن بطوطة، أن الأمة لن تنتصر إذا ألقيت سيوفها، وانتظرت التعاطف معها، بل تنتصر إذا تغلبت على أهوائها وشهواتها، ثم واصلت الإعداد والتضحية والجهاد، ولو انتظر البطلُ صلاح الدين تعاطف الرأي العام معه لما خرج الصليبيون من ديارنا إلى قيام الساعة. واعلم أن هذا التعاطف لا يعيدُ الحقوق المغتصبة، ولا يُوقف الجرائم والآثام، بل الأغلبية فيه مُضللة بالدعاية الشارونية والوشاية "اللوبية" {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ}(١١).

وما يصدر عن *الرأي العام الغربي* من أقوال وتصريحات إنما ذلك إرضاء إعلامي باطنه مكرٌ خفي:

{كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ}(١٢).

وانظر إلى الذين سلموا أمورهم، وانتظروا التعاطف كيف صاروا أضيع من الذباب على مائدة الذئاب، وأذل من تَيْم:

ويُقْضى الأمرُ حين تغيبُ تَيْمٌ

ولا يستأذنون وهم شهودُ!

قلت: سبحان الله القاهر فوق عباده، طوّفتُ في مشارق الأرض ومغاربها، ورأيت بأم عيني مصارع الدول والممالك التي سادت ثم بادت، وقرأتُ عبر آثارها تاريخها وسير حضارتها، فما

رأيتُ قوماً أشبه بقوم "عاد" إلا هؤلاء الخواجات الشداد، فقد عادوا فعاثوا وزادوا، وأعادوا مُلك "إرم" ذات العماد في التطاول في البنيان والعمران، واتخاذ المصانع الضخمة، والبطش والغطرسة، وصم آذانهم عن نداء الهدى على لسان نبيهم الكريم هود: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ* وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ* وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ}(١٣).

وها هم اليوم يعيدون سيرة عاد الأولى في الاستكبار في الأرض، والاحتكام إلى منطق القوة، والتفاخر بها لإرهاب الرأي العام، وإنكار آيات الله ونعمه:

{فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ* فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ}(١٤).

قال: أجدت: - والله - الربط والتحليل، وكأنما التاريخ يعيد نفسه، فكيف تتوقع أن يكون مصيرُ "عاد الثانية" وأنت خبير باستشراف المستقبل للمالك والدول؟

قلت: الله تعالى أعلم، ولكني أتصور أن يكون هلاكهم بريح كيميائية بيولوجية وإشعاعات نووية تهب عليهم من مصانعهم ومعاملهم ومفاعلاتهم ومختبراتهم ومستودعاتهم فتصرعهم على بكرة أبيهم، فلا يبقى منهم على الأرض ديار، ثم تعصفُ بجثثهم الريحُ السموم فتدفعهم تحت جبال الجليد مع نفاياتهم النووية، ويومئذ يفرحُ المستضعفون، وتضع "حرب النجوم" أوزارها، وتتناثر أقمار التجسس شذر مذر، وتتخلص الأرض من "الدرع الصاروخي" بعد طول "الاحتباس الحراري" ويرتاح العالم لانقراض "مجلس الأمن" الناهي وقاموس الأوامر والنواهي، ويرتاح العالم لزوال ال "سي إنْ إنْ" وال "بي بي سي" وكل سين في سيئاتهم كالسوء والسم والسأم، والسل والسكري والسرطان!

قال: حقاً، لا بد من نهاية حتمية للظالمين، ولكنها قد تطول، وتلك سنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول، وما هي ببعيدة من الظالمين المعاصرين، وصدق الله: {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ* فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}(١٥).

وأما الآن يا بن بطوطة فعلينا أن نقوم الليل بسورة "الفجر" فإنها مفتاح الأمل للنصر، وأن نحفد ونسعى حتى يطلع فجرُ حطين، وتشفى صدورُ قوم مؤمنين.

قال ابن بطوطة: ثم رجعتُ إلى طنجة ودونت ما جرى بيننا في المدينة المنورة، وجعلتُه تاج مذكراتي في "تُحفة النظار"، وأرسلتُ منه نسخة إلى أستاذي "ربيعة" فاطّلع فرآه فإذا هو:

البيان الهام في الرأي العام! ■

الهوامش :

(١) ابن بطوطة: أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي، رحالة، مؤرخ، شاعر. ولد ونشأ بطنجة بالمغرب، طاف بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق واليمن والهند والصين، وأواسط إفريقية، واستغرقت رحلته ٢٧ عاماً جمعها في كتابه: "تُحفة النّظار" ت٧٧٩هـ.

(٢) الشورى آية ٣٨ .

(٣) ربيعة الرأي: أبو عثمان ربيعة بن فروخ المدني، إمام حافظ فقيه مجتهد، كان بصيراً بالرأي فلقب ربيعة الرأي، وكان من الأجواد، وهو أستاذ مالك بن أنس. ت ١٣٦هـ.

(٤) خصصنا هؤلاء بالذكر، لأنهم رموز حية في مواجهة العدوان الصليبي والتتري والاستعماري: صلاح الدين الأيوبي: بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين ت ٥٨٩هـ.

سيف الدين قطز: بطل عين جالوت وهازم التتار ت٦٥٨هـ.

محمد الفاتح: فاتح القسطنطينية سنة (١٤٥٣م) وقاهر بيزنطة ت١٤٨١م.

عمر المختار: زعيم مجاهد قاوم الاستعمار الإيطالي في ليبيا. أعدم سنة ١٩٣١م.

عز الدين القسام: مجاهد ثار على الفرنسيين في سوريا وقاوم الإنجليز واليهود في فلسطين، مات شهيداً ودفن في حيفا ١٩٣٥م.

(٥) غافر آية ٢٩.

(٦) الشعراء آية ٥٣-٥٦.

(٧) الأعراف آية ١٢٧.

(٨) الزخرف آية ٥٤-٥٦.

(٩) الأعراف آية ١٧٦.

(١٠) مؤتمر بال: مؤتمر للمنظمة الصهيونية عقد بمدينة "بال" السويسرية عام ١٨٩٧م وانتخب فيه "هرتزل" رئيساً للحركة الصهيونية (ت١٩٠٤م).

(١١) الأنعام آية ١١٦.

(١٢) التوبة آية ٨.

(١٣) الشعراء آية ١٢٨-١٣٠. ريع: مكان مرتفع.

(١٤) فُصّلت، الآيتان ١٥، ١٦.

(١٥) الأنعام، الآيتان ٤٥، ٤٦.



عبدالله الأقزم

القطيف

تمنّتْ أن أبيع لها حياتي

أيا مَن عشقُها يلتفُّ حولي
غصوناً كي يُقدِّمَ لي اعترافا

كأمطار على أوتار قلبي
تمنَّتْ أن أكون لها مُضافا

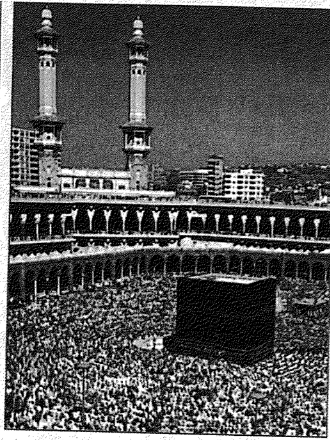
تمنَّتْ أن أعيد لها احتفالا
من الأشواق طار لها وطافا

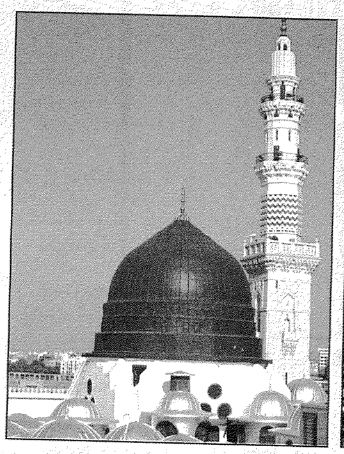
تمنَّتْ أن أبيع لها حياتي
وأن ألتفَّ في دمها التفافا

أيا من عشقُها مازال شهداً
وشعري منهُ يغترفُ اغترافا

أحبُّكِ فاغرسي النبضاتِ ورداً
ففيك تفتَّح الوردُ اعترافا

تفتَّحَ في الدُّجى ضوءٌ ويأبى
بدون هواكِ ينصرفُ انصرافا





من أعلام الحرمين الشريفين

□ ومن أعلام الحرمين الشريفين في القرن الثامن من الهجرة المباركة الشيخ أبو بكر بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن العاقل السلامي المكي رحمة الله عليه.

ذكره الإمام تقي الدين الفاسي في تاريخه العقد الثمين من سكان مكة شرفها الله، وذكر أنه كان تاجراً وذا ثروة فترك هذا المتاع وانقطع بمكة شرفها الله للعبادة.

ونقل عن العلامة بن فرحون المدني في نصيحة المشاور قوله عنه:

أنه انقطع بالمدينة الشريفة على العبادة والتنسك وكان منهما على حال عظيم. وكان لايفتر عن العبادة لا ليلاً ولا نهاراً.



ضياء محمد عطار

المدينة المنورة

وأنشأ بها رباطا لسكنى الفقراء والضعفاء من الرجال والنساء، ويظهر أنه اختار السكنى بالحرمين الشريفين معاً وأقام بمكة شرفها الله زمناً يتعبد بها ثم استقر بالمدينة الشريفة بجوار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفى بها ودفن بالبقيع وكانت وفاته في ليلة الجمعة السادس من شهر ذي القعدة الحرام سنة ست وعشرين وسبعمائة من الهجرة الشريفة وقيل توفى في شوال منها.

وكان قد سمع على جماعة من العلماء ببغداد ودمشق ومنهم الفخر بن البخاري وعبدالرحمن بن الزين أحمد بن عبدالملك رحمة الله عليهم جميعاً.

ومنهم العلاة شهاب الدين ابو المناقب الشيخ أحمد بن إسماعيل بن أبي بكر بن يزيد القاهري الأزهري الشافعي رحمة الله عليه.

وكما ذكره الإمام شمس الدين السخاوي في تاريخه التحفة اللطيفة ولد سنة إثنين وثمانمائة بقرية إبشيط (وهي من أعمال مصر) ونشأ بها وحفظ القرآن الكريم وأخذ الفقه عن البدرين: الصواف والشهاب بن حميد وولى بن قطب. وأخذ من الشيخ علي أحمد الرمسيسي البحيري القراءة على قراءة الإمام أبي عمرو ثم انتقل إلى القاهرة فسكنها في جامع الأزهر مدة من الزمان وأخذ الفقه بها عن العلامة البرهان البيحوري والشمس البرماوي والولي العراقي والشهاب الشيرجي وغيرهم. وبرع في الفقه وأصوله وتقدم في العربية والفرائض وعلومه وضلع في الحساب والمنطق وفهمه ثم تصدى للإقراء فانتفع به جماعة كثيرة من العلماء ورتب ناسخ القرآن ومنسوخه وشرح الرجبية والمنهاج وتصريف ابن مالك ولاميته والجمل للخويني وايساغوجي والخزرجية ولسان الأدب لابن جماعة، وكان الإمام المحدث ابن حجر العسقلاني صاحب فتح الباري لصحيح الإمام البخاري يعرض عليه كثيراً من المشكلات التي تطرأ عليه فيحلها له. وعرف رحمة الله عليه بالزهد والورع والتقوى وملازمة العبادة مع التقشف والايثار والاعتزال عن الناس. وأقبل على وظائف الخير مع فقره وفاقته حتى أنه لم يكن في بيته شئ يبسطه على الأرض من حصير ولاغيرها ومع هذا كان يتصدق بما يقدر عليه من خبز وما شابهه واستمر حاله إلى أن كان موسم حج سنة سبع وخمسين وثمانمائة من الهجرة النبوية الشريفة فقصد الحج ورحل إلى الديار الحرمية وبعد

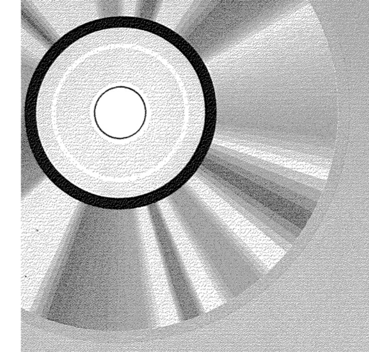
انقضاء موسم الحج قصد المدينة الشريفة وزار النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم اختار السكنى إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم وانقطع بها، وظل صابراً على لأوائها وشدتها احتساباً على الله تعالى ورغبة فيما وعد به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لساكنيها بقوله: من صبر على لأوائها وشدتها وحرها وبردها كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فاتصل به أهلها وعظم انتفاعهم به في شتى أنواع العلوم والتحصيل. ولاحظوا عليه كرامات باهرة ورأوا منه إشارات عجيبة مما يفوق الوصف في تصويره. وكان يحج في معظم سنيه من المدينة الشريفة ثم جاور البيت الحرام سنة إحدى وسبعين وكان كثير الصلاة والطواف بالبيت العتيق وكان يعكف على المشاهدة والتلاوة والإيثار وكان في غالب أحيانه يعتزل الناس وربما جلس في بعض حلقات العلم على أطراف الحلقة بالمسجد الحرام ولم يفطن له أحد.

وبعد حياة زخرت بهذه الفيوضات العلمية والعطاءات الروحية توفي رحمة الله عليه بالمدينة الشريفة بعد وعكة صحية تعرض لها بالحمى بعد عصر يوم الجمعة في التاسع من شهر رمضان المبارك وصلى عليه بالروضة المطهرة بالحرم النبوي الشريف ودفن بالبقيع إلى جوار قبر الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة وأسف الناس على فقده حسبما ذكره الإمام السخاوي في تحفته، ولي ثمة ملاحظة على تاريخ وفاته على ما جاء في التحفة اللطيفة حيث جاء أن ولادته كانت سنة إثنين وثمانمائة وهجرته إلى الديار الحرمية كانت في سنة سبع وخمسين وثمانمائة وكانت مجاورته للبيت الحرام سنة إحدى وسبعين وثمانمائة وبعد هذا كله ذكر وفاته في سنة ثلاث وثمانمائة للهجرة وهذا في نظري خطأ لا يصح أن يكون قد توفي سنة ثلاث وثمانمائة لأن ذلك يخالف الواقع تماماً وعليه أعتقد جازماً أن وفاته كانت بعد سنة إحدى وسبعين وثمانمائة على الأصح وأن ما جاء في التحفة اللطيفة لعله سقط أو سهو أو تصحيف والغالب أن وفاته كانت في سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة تقديراً بناء على سياق الأخبار التي ذكرناها عنه وأنه توفي عن إحدى وسبعين والله تعالى أعلم. ومما قاله نظما:

المنجيات السبع منها الواقعة
وقبلها يس تلك الجامعة
والخمس الانشراح والدخان
والملك والبروج والإنسان

فرحمة الله عليهم جميعاً آمين ■



كشاف المنهل الشامل

تقوم مجلتكم المنهل الآن بإعداد (كشاف شامل) لما تم نشره في المنهل منذ نشأتها في العام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م وحتى الآن.

وتعتمد في عملها على إثبات كل الموضوعات باسماء كتابها وتاريخ نشرها وأرقام المجلدات والأعداد التى نشرت بها وكذا أرقام الصفحات، بالإضافة إلى تصنيفها تصنيفا موضوعيا.

على أن يتم البحث بعدة طرق سهلة وميسرة إما عن طريق الموضوع أو الكاتب أو التصنيف. مما يسهل للباحثين والقارئين الحصول على مبتغاهم بسرعة ويسر.

وسيتم وضع الكشاف على (CD) مما يسهل حمله والرجوع إليه في أي وقت وحين.

وسيكون متوفرا لمن يرغب في اقتنائه من الباحثين والقراء عامة في مطلع العام الهجرى الجديد ١٤٢٨هـ بإذن الله تعالى.

والله أسأل التوفيق والسداد لخدمة العلم والعلماء،،،

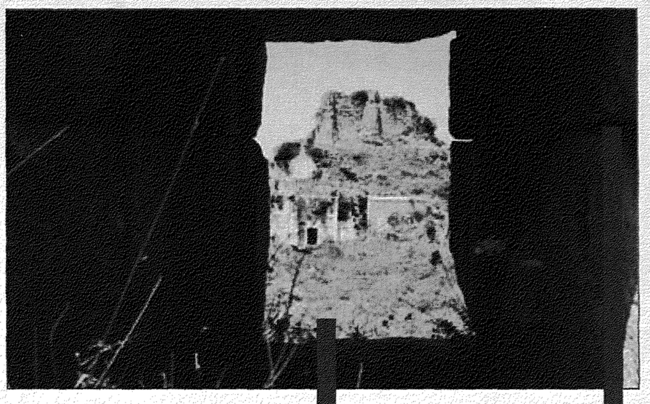
المنهل

مجلة للآداب والعلوم والثقافة

مع تحيات .. دارة المنهل للصحافة والنشر المحدودة

المركز الرئيسي (جدة) رمز بريدي ٢١٤٦١ - ص. ب ٢٩٢٥ - هاتف : ٦٤٣٢١٢٤ - فاكس : ٦٤٢٨٨٥٣

البريد الإلكتروني : E-mail: info@al-manhalmagazine.com عنوان الموقع : WWW. al-manhalmagazine.com



قلعة صلاح الدين في الساحل السوري

□ قال عنها المؤرخ أبو الفداء : «مدينة ذات قلعة حصينة لا ترام، من أشهر معاقل الشام، وهي على صخر أصم» .. وإن كانت المدينة زالت تقريباً ولم يبق منها إلا بقايا آثار لمنازل وقبور، ولكن قلعتها باقية بشموخها وألقها ، إنها قلعة «صلاح الدين» على الساحل السوري وتبعد عن مدينة اللاذقية حوالي ٣٥ كم على الطريق الواصل الى مصيف الصلنفة الشهير .

كانت تسمى قبل عام ١٩٥٧م بقلعة صهيون، وفي عام ١٩٥٧م تم تغيير اسمها لقلعة صلاح الدين نسبة الى فاتحها .

ولقلعة صلاح الدين دور تاريخي هام، ومكانة كبيرة جاءت من موقعها الاستراتيجي في الجبال الساحلية السورية. ولذلك يلاحظ الزائر لهذه القلعة، تلك الابنية الشامخة، والهندسة المعمارية الرائعة التى تميز أبنية هذه القلعة.

موقع القلعة وتاريخها :

يمتاز موقع قلعة صلاح الدين بطابع استراتيجي من الطراز الأول وذلك بسبب الاحتياجات العسكرية في ذلك العصر، وموقع القلعة على رأس صخري على شكل مثلث مستطيل، مرتبط بالهضبة المجاورة من الجهة الشرقية.

ويحيط به من الجهتين الشمالية والجنوبية، واديان عميقان في قعريهما مجاري مياه. وتاريخ القلعة - كما يذكر الباحث والمؤرخ الأثرى جبرائيل سعادة - يبدأ في منتصف القرن العاشر، حيث كانت القلعة عبارة عن حصن يتبع الدولة الحمدانية في حلب وذلك بين عامي ٩٤٨ و٩٤٩م، حيث يذكر ابن القلانسي أن دقطاش التركي الذي كان يقيم في القلعة عام ٩٧٥م وهو من أنصار سعد الدولة أبي المعالي ابن سيف الدولة الحمداني، قد مدَّ سيطرته على بعض القلاع بعد وفاة والده، وقد أصبحت القلعة منذ ذلك الحين موقعا حصيناً.

احتلال الصليبيين القلعة :

في رسالة وجهها الامبراطور البيزنطي زيمتيزيس المعروف بابن الشمشقين الى ملك أرمينيا

هشام عدرة

سوريا

بعد غزوه لسورية عام ٩٨٥م يذكر القلعة بين القلاع والمدن التى تمكن من احتلالها، فبقيت بين أيديهم حتى قدوم الصليبيين إليها، وخلال هذه الفترة التى دامت نحو مئة وعشرين سنة بنى فيها البيزنطيون تحصينات هامة منها برج ضخم ترى أنقاضه اليوم في أعلى مكان من القلعة، وأحاطوا هذا البرج بأسوار وبنوا أيضا كنيسة خارج الأسوار من الجهة الغربية.

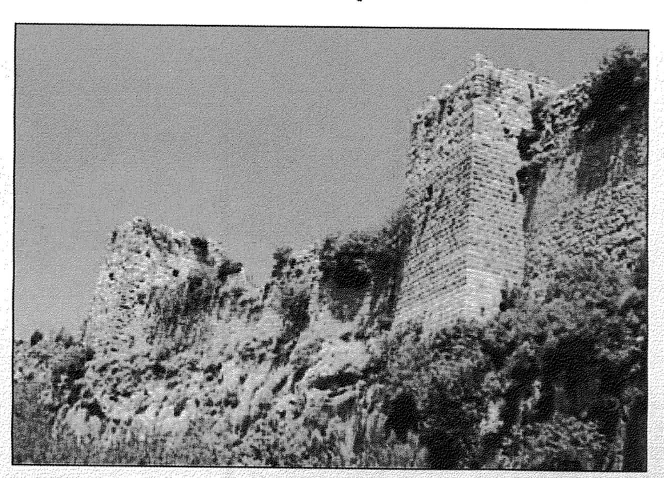
في مطلع القرن الثاني عشر الميلادي تم احتلال القلعة من قبل الصليبيين، ويذكر الباحث سعادة، أن أول حاكم صليبي للقلعة كان اسمه روبير وخلفه ابنه غليوم الذي توفي عام ١١٣٢م. ويميل الاعتقاد الى أن بناء التحصينات الصليبية التى تشاهد باقية اليوم قد تم في عهد كل من روبير وابنه غليوم. وهنالك دلائل عديدة على أن انشاء تلك التحصينات دام سنين عديدة.

وقد بني الصليبيون على مدار القلعة أبراجاً مربعة ومستديرة في غاية الضخامة، وأنشأوا أيضاً صهريجين وكنيسة واسطبلا، وتركوا حدود القلعة من الشمال والجنوب على حالتها. أما الجهة الشرقية فكانت أقل مناعة بسبب ارتباطها بالهضبة المجاورة، فحفروا خندقاً كبيراً في الصخر ليفصلوا القلعة عن الهضبة المذكورة تاركين في وسط الخندق عموداً ليرتكز عليه جسر متحرك يصل الهضبة بالباب

المفتوح في واجهة القلعة الشرقية، ثم أرادوا أن يحفروا فندقاً آخر من الجهة الغربية ليفصلوا تحصينات القسم المرتفع عن القسم المنخفض فصلا تاماً. إلا أنهم، وكما يبدو عدلوا عن فكرتهم فردموه قبل إنجازه، ومن يتأمل الخندق الغربي يرى بوضوح أنه عمل غير مكتمل.

فتح القلعة وعودتها على يد صلاح الدين :

في يوم الثلاثاء الواقع في ٢٦ تموز - يوليو ١١٨٨م وصل صلاح الدين وابنه الملك الظاهر غازي، وخيما مع جيشهما بالقرب من القلعة. ويتحدث المؤرخون كابن الاثير وعماد الدين الأصفهاني وابن شدّاد الذين كانوا يرافقون جيش السلطان الايوبي، يتحدثون عن تحرير القلعة. ففي يوم ٢٦ تموز وبعد وصول صلاح الدين للقلعة أخذ هو وابنه الظاهر يتأملان القلعة ويدرسان أوضاع تحصيناتها ليصفا أفضل تخطيط لمهاجمتها وتحريرها ويبدو أنهما وجدا من الأفضل الدخول اليها من الواجهة الشمالية من القسم المنخفض، فالوادي من هذه الجهة قليل الانحدار، والصعود منه أسهل من أي مكان آخر. فتقرر أن يقود الملك الظاهر الهجوم من هذه الجهة. ولما كان يخشى أن تحتشد كل حامية القلعة من هذه الناحية، كان لابد من إيجاد طريقة تحول دون هذا الاحتشاد، فتقرر أن ينصب السلطان منجنيقاته على الهضبة التى تقابل الواجهة الشرقية من القلعة لإشغال أكبر عدد من الحامية الصليبية من هذه الجهة.

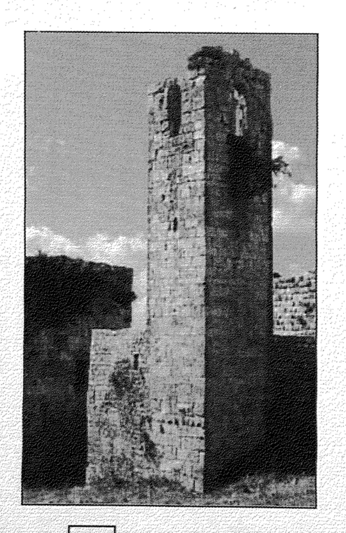


** سميت القلعة باسم فاتحها البطل صلاح الدين الذي حررها من الصليبيين في أروع ملحمة عسكرية حربية.

وفي صباح يوم الأربعاء الواقع في ٢٧ تموز ١١٨٨ تحرك الجيش الاسلامي حسب الخطة المرسومة، فنصب السلطان على الهضبة الشرقية أربعة منجنيقات وأخذ يرمي الحجارة على الواجهة الشرقية، أما الملك الظاهر فنصب منجنيقين على سطح الجبل الذي يقابل الواجهة، استمر رمي حجارة المنجنيقات طيلة يوم ٢٨ تموز، ثم أطل صباح يوم الجمعة الواقع في ٢٩ تموز ١١٨٨ فرأى صلاح الدين أن الأضرار التى ألحقتها الآلات الحربية بالأسوار والنفوس قد سهلت احتلال القلعة فأمر بالهجوم.

ويقول عماد الدين: «وأصبحنا بكرة يوم الجمعة ولما أبحر العسكر بأمواجه الزاخرة وازدحم الناس في الزحف كأنهم في الحشر بالساهرة وهاج الشباب وهاج العباب وتسابق ذوو الجرأة والقوة وتلاحق ذوو الحمية والنخوة تسلق جيش الملك الظاهر المنحدر الذي يوصل إلى القلعة من الجهة الشمالية، وتمكن من دخولها، ودار القتال ضمن القلعة.. يقول عماد الدين: «واستولى على أهلها الرعب واستشرى بهم الكرب وصاحوا الأمان ونزلوا الاذعان» أعطاهم السلطان الأمان.. ويقول ابن شداد: «أنعم عليهم السلطان على أن يَسْلَموا بأنفسهم وأموالهم وسلمت القلعة». وبعد ذلك سلم السلطان القلعة الى الأمير ناصر الدين عنكورس وقضى صلاح الدين ليلة ٢٩ تموز في القلعة، وفي صباح الغد تابع سيره نحو الشمال.

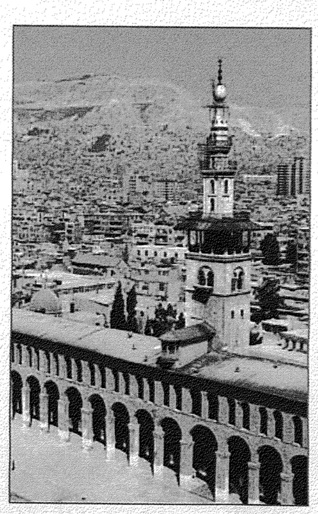
وهكذا تمكن البطل صلاح الدين الايوبي من تحرير القلعة خلال أربعة أيام، وقد قضى الصليبيون في تحصينها أكثر من عشرين سنة، وذلك في ملحمة حربية رائعة وحنكة عسكرية فذة، وتخطيط لا مثيل له.



القلعة بعد التحرير والفتح :

حكم الأمـيـر ناصـر الدين عنكورس القلعة مـدة احدى وأربعين سنة وخلفه ابنه مظفر الدين عثمان، ومن بعده ابنه عز الدين أحمد، أما أولاد هذا الأخير فقد سلموا القلعة الى السلطان بيبرس وهكذا بقيت القلعة بين أيدي أسرة الامير منكورس ٩٢ سنة.

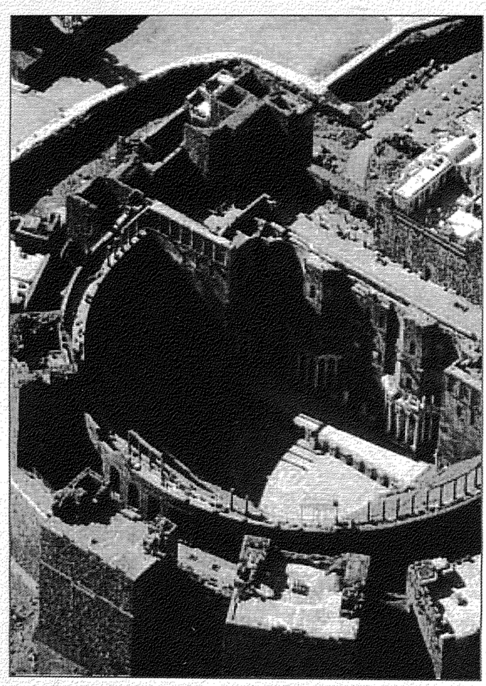
في نهاية القرن الثالث عشر أصبحت سورية تابعة لحكم المماليك، وكان مركزهم في القاهرة. وفي



أيام السلطان قلاوون تمرد حاكم دمشق المدعو سنقر الأشقر على سلطة القاهرة، غير أن جيش قلاوون هزمه، وفي عام ١٢٨٠ التجأ سنقر الاشقر الى قلعة صلاح الدين وأخذ يحكم منها بعض القلاع المجاورة، فكانت القلعة في ذلك الحين بمثابة عاصمة لمنطقة لا بأس بهـا من سـورية لا تعـتـرف بسلطة سلطان القاهرة، غير أن السلطان قلاوون أرسل أحد قواده في عام ١٢٨٧م لاحتلال القلعة فتمكن منها، ومنذ ذلك الحين أصبحت إحدى النيابات التابعة لولاية طرابلس.

أما في العهد العثماني، وكما هي العادة في هذا العهد، فقد أهملت القلعة كغيرها من القلاع وهجرت وتصدعت جدرانها وانهار قسم من أسوارها وأصابها خراب كبير نتيجة الاهمال، وفي عام ١٩٦٦م قامت مديرية الآثار والمتاحف في سورية بأول عمليات ترميم ضمن القلعة وقامت بصيانة الأبراج المهددة بالانهيار ونظفت الأماكن التى كانت تغطيها الاعشاب والحجارة، ومن ثم ترميم الحمام العربي الرائع. حيث أصبحت قلعة صلاح الدين من أشهر الأمكنة السياحية والاثرية التى يقصدها الزوار والسائحون من مختلف أصقاع العالم، ليشاهدوا أبنيتها الضخمة وموقعها الرائع.

**** تعتبر القلعة من أجمل وأمتن القلاع الاسلامية في الوطن العربي.**



أبنية القلعة وهندسة عمارتها الرائعة :

الزائر للقلعة يلاحظ أنه يحتاج للوصول إليها أن يصعد ١٤٢ درجة، ويلاحظ أن هناك تباعداً بين الدرجة والأخرى والسبب هو تمكين الخيل من السير على هذه الدرجات للوصول للقلعة، أما أبنية القلعة التى شيّدت في العهد البيزنطي ومن ثم في العهد الصليبي فقد أعيد ترميم القلعة على مرحلتين، ففي المرحلة الأولى اكتفوا بتحصينات القسم المرتفع من القلعة وتركوا القسم المنخفض لمنازل السكان وأخذوا يبنون الأبراج المربعة والمستديرة الضخمة على مدار القسم المرتفع، وفي المرحلة الثانية شيدت تحصينات في القسم المنخفض حيث ألحق بالقسم المرتفع بعد بناء الأسوار والأبراج المحصنة في القسم المنخفض.

وحين استعاد المسلمون القلعة زادوا في تحصيناتها ومناعتها، وبنوا فيها جامعاً ومئذنة مربعة الشكل، وشيدوا حمامين، حيث يلاحظ على أحد جدران الحمام الشمالي كتابة تقول: «بسم الله الرحمن الرحيم عز مولانا السلطان الملك العادل المرابط المؤيد المظفر المنصور.. سلطان الاسلام والمسلمين قامع الكفرة والمشركين حامي العدل في العالمين أعزّ الله أنصاره وأدام اقتداره» ■

رغبات وحشية

تجربة روائية مكثفة تعالج الواقع الحيّ

كتب «محمد صدقى» عددا من المجموعات القصصية منها: الأنفار (١٩٥٥م)، الأيدى الخشنة (١٩٥٧م)، شرخ في جدار الخوف (١٩٦٥م)، لقاء مع رجل مجهول (١٩٦٦م)، أشياء لا تدعو للدهشة (١٩٩١م)، حد الجنون (١٩٩٦م)، كما كتب مسرحية بعنوان: (الجدار والبلاب ١٩٩٨م)، وأصدر روايته رغبات وحشية (٢٠٠٠م)، وكان قد كتب روايتين أخريين من قبل لم ينشرهما، إحداهما عن عمال التراحيل والأخرى عن مصنع كبريت، وله تحت الطبع مجموعة أعمال روائية وقصصية، منها: ضيف الخريف، جارية السلطان، القمر وراء السحاب، الاستحواذ.

وحياة «محمد صدقى» تجربة إنسانية حية، مليئة بالعناء والمشقة والجهاد، منذ مولده بدمنهور في عام ١٩٢٣م، حتى وفاته عام ٢٠٠٤م، وقد أحرز فيها نجاحات عديدة على المستوى الشخصى والأدبي، لقد حفظ القرآن الكريم والتحق بالأزهر ولم يستطع أن يواصل دراسته بسبب الظروف المادية الصعبة، وعمل صبياً وعاملا في مهن مختلفة، ولكنه علَّم نفسه، ودخل امتحانات الثانوية العامة (البكالوريا)



الدكتور حلمي القاعود يتسلم الجائزة

بوصفه طالبا من منازلهم حتى حصل عليها، ثم حصل على شهادة أخرى في التجارة من خلال دراسة ليلية، حيث صار موظفا للحسابات بمحلات «هانو» الكبرى، ودخل إلى المجال النقابى العمالى، وانتقل إلى العمل بالصحافة عام ١٩٥٥م، ولعله أول من خصص صفحة لأدباء الأقاليم في الصحافة المصرية، وظل يشرف عليها حتى بلغ سن المعاش، وعن طريقها تعرف على كثير من الأدباء الشبان في مدنهم وقراهم، وكان من وراء مؤتمر أدباء الأقاليم الذى ينعقد بصفة دورية..

بيد أن انتماءاته السياسية سببت له العديد من المتاعب، منها دخول المعتقل في الفترة من ١٩٥٩م الى ١٩٦٤م.

ولكن حبه للأدب منذ الصبا، أو عشقه للقصة القصيرة تحديداً، كان من وراء إصراره على مواصلة الكفاح من أجل التثقيف والمعرفة اللذين تزود بهما، وواصل رحلة الحياة.

ولا شك أنه يملك التجربة والحرفة، مما يجعله في قائمة كتاب السرد المجيدين، ولا يقلل من ذلك أن تكون له وجهات نظر مخالفة لقارئه، فهو - في كل الأحوال - كاتب يبحث عن إنسانية الإنسان، ويسعى إلى الدفاع عنها، ويدعو إلى حمايتها في مواجهة غيلان القهر والفساد والنهب والامتيازات التى لا يستحقها من يتمتعون بها.

ويبدو محمد صدقى بصفة عامة منحازاً إلى القصة القصيرة، لدرجة أننا نكاد نصنف روايته «رغبات وحشية» التى نعالجها في هذه السطور، بوصفها قصة قصيرة طالت إلى ما يقرب من خمسين ومائتى صفحة، وهذا يعود بالطبع إلى إتقانه هذا اللون من السرد، وإنتاجه لعدد كبير من المجموعات، ولا يعنى ما أقول أن الرواية خلت من الأسس والهياكل التى يقوم عليها العمل الروائى، ولكن قدرة الكاتب على التكثيف والإحكام جعلت الرواية تبدو قصة قصيرة.

أ.د. حلمي محمد القاعود

مصــــر

إضاءة شخصية

** دكتوراة في النقد الأدبى والبلاغة والأدب المقارن.

** له أكثر من ثلاثين مؤلفاً في التخصص والقضايا الاسلامية والإعلام والإبداع الأدبي.

** حصل على مجموعة من الجوائز التقديرية من مصر والمملكة العربية السعودية وغيرها.

** كرمه الأستاذ عبد المقصود خوجه في (إثنينيته) المشهورة في شهر المحرم من هذا العام ١٤٢٧هـ.

** شارك في العديد من الندوات والمحاضرات واللقاءات.

رواية «رغبات وحشية» بنت عصرها، وتنتسب إلى واقعها الذى تحلله وتشرحه وتفسره، فهى «واقعية تحليلية» إن صح التصنيف، تدخل الى أغوار المجتمع، وتناقش ظواهره القائمة والطارئة، دون أن تدعى وصفة معينة لعلاج هذه الظواهر إلا في إطار ما تطرحه بعض الشخصيات الروائية المهيمنة.

وفكرة الرواية تبدو بسيطة للغاية لأول وهلة، ولكنها في حقيقة الأمر ليست كذلك، إنها عميقة عمق المجتمع، ومعقدة بقدر تعقيد مشكلاته ومنغصاته.

نحن أمام امرأة فشلت في زواجها السابق واللاحق، وتحلم

بمن أحبته من قبل، وتسعى إلى لقائه بعد سنوات من القطيعة، هى عمر فشلها في الزواج الأول والآخر، وتقرر أن تذهب إلى دمنهور لتقابله وتعيد أيام الوصل، انطلاقاً من وعد قديم أن يتزوجها.

حين تنفذ الفكرة، وتصل إلى من تظنه ينتظرها، تفاجأ بأنه متزوج، وأن له ابنة من زوجته، وصار من تجار الذهب بعد أن ترك مهنته الأصلية وهى التدريس، فتعود خائبة الرجاء، وفي القطار تضيع حقيبتها ويحاول أستاذ جامعى مساعدتها والارتباط بها، وتنتهى باغتيالها أمام دار سينما في أحد شوارع الإسكندرية المزدحمة.

هكذا تبدو الفكرة بسيطة، ولكننا حين نطالع الرواية، ندخل إلى أعماق البؤس الإنسانى الذى يتخلل شرايين المجتمع، وخاصة طبقاته الفقيرة، التى تعانى في شتى جوانب الحياة، وندخل إلى متاهات الخلل التى تحيط بالإنسان البسيط الباحث عن الحد الأدنى، من ظلم اجتماعي، وغياب للعدل، وحضور للفساد في مظاهر متعددة، وتغير في نظم الحياة المعهودة حيث صارت سلعة يقايض عليها بالمال أو المكاسب المادية أو المناصب ، وصارت قيمة العمل والجهد مهدرة أمام استعادة قيم المفاخرة بالماضى، والاعتزاز بالأصول والأنساب التى تبدو لافتة تسير تحتها الطبقات الجديدة دون أن تكون أهلا لها بالعمل والجهد.

إن الكاتب يبنى روايته من خلال تعقيد المواقف التى تضيء فكرتها، ويسعى إلى كشف ما يجرى داخل المجتمع من خلال المتاعب والصعوبات التى تواجهها بطلة الرواية في أثناء ذهابها إلى من كانت تحبه، أو في طريق العودة حتى مصرعها المأساوى، ويقدم لنا صوراً وأنماطا من الشخصيات أو البشر نتعاطف معها أو نسخط عليها، كما يوظف المكان والزمان والمونولوج والحوار واللغة والأغنية لإضاءة عالم اجتماعى مزدحم بالأحلام والآلام.

تدور أحداث الرواية بين مدينتى الاسكندرية ودمنهور، البطلة «عنايات» تعيش في الاسكندرية ، والبطل «راجى» يعيش في دمنهور، وما بين الاسكندرية ودمنهور يكون القطار ذهاباً وإياباً مكانا مهماً بالنسبة للأحداث والأشخاص والأفكار، في شقة مفروشة متواضعة تعيش البطلة مع زميلة لها عانس؛ تقع الشقة في شارع العيتانى المفضى إلى البحر في ميامي، وكانت عنايات تسكن من قبل مع أبيها وأمها في حى شعبى وبيت ضيق مثل قفص العصفور.

إن عالم البطلة بصفة عامة يبدو ضيقاً ومحصورا بالفقر والإحباط والهزائم متماثلا مع المكان الذى تربت فيه أو عاشت، والأمر كذلك بالنسبة لمدينة دمنهور التى عينت فيها مدرسة للفلسفة، بحيث سكن المغتربات أو حجرة المدرسات أو شقة راجى أو محل الذهب كلها أماكن ضيقة ومغلقة ومحدودة، وما بين شارع الأنصارى في دمنهور وشارع الصاغة تظهر محطة السكك أو السكة الحديد في دمنهور ونظيرتها في محرم بك أو سيدى جابر، وكلها مفردات العالم المحصور أو المحاصر لامرأة فقدت الاطمئنان أو الأمل وأصيبت بالإحباط والإخفاق، وكانت نهايتها الفاجعة في مكان ضيق محصور بين الحائط وسيارة متوحشة يقودها شاب متوحش من أبناء الطبقة المتوحشة، حيث ارتمت جثة بلا أهل على رصيف تغطيها أوراق صحيفة.

ومع ذلك تبدو دمنهور (وهى بلد الكاتب) مدينة الناس الطيبين المتسامحين في عشرتهم والتجار الشطار، وإن كانت قد اكتظت بالسكان بعد إنشاء

الكليات الجامعية. الكاتب يتغزل فيها في أكثر من مناسبة - أليست بلده؟.. ولكنها بالنسبة للبطلة قرين للحلم الضائع والأمل المفقود.

أما محطة دمنهور وقطارها القادم من الاسكندرية أو العائد إليها، ففيهما يلتقى أساتذة الجامعة الذين يتناولون شئون البلاد وأحوالها، وفيهما يظهر الدكتور أبو المعاطى الذى يعجب بالبطلة ويسعى للزواج منها، وفيهما نقابل شخصيات أخرى تمثل شرائح من المجتمع في تغيراته وتطوراته التى تسترعى اهتمام البطلة وانتباهها.

ولنا أن نتصور القطار في رحلته ذهابا وإيابا موازياً لرحلة الحياة، على المستوى الفردى (البطلة) أو المستوى الاجتماعى (الشعب)، وفيه تتعدد النماذج والطبقات والأفكار.

وإذا كان المكان واقعيا يبدو بصورة عامة محصورا ومحدوداً ، ويشي بفقدان الطلاقة أو الانطلاق، فإن الزمان التاريخى أو الروائي يوحي بالشيء ذاته، فهناك الفترة التى يمكن أن نحصرها في العقد الأخير من القرن العشرين، التسعينيات أو أواسطها تحديداً ، وهى فترة مكتظة بالأحداث ومضاعفاتها التى فقد الناس فيها الحلم والأمل، وطفت على السطح ظواهر اجتماعية وثقافية واقتصادية تخنقهم وتطبق على رقابهم وتجثم على أنفاسهم، إنها فترة «كمان ننا» كما يسميها الناس، حيث شاعت تعبيرات غير مفهومة للدلالة على زمن غير مفهوم.

أما الزمان الروائى، فهو محدود بأقل من أربع وعشرين ساعة، تبدو في أوله البطلة جسداً ملقى على السرير في غرفة متواضعة تحلم بلقاء الحبيب القديم، وتظهر في آخره جثة ملقاة على الرصيف لم تتواصل مع الحبيب الجديد. وكأن الرواية تتحرك بنا فى دائرة يتحول فيها الإنسان إلى مجرد «جثة» سواء كانت تحلم أو تموت، لذا فالرواية تبدو في هذا الزمان الروائى أقرب إلى القصة القصيرة، حيث تتكثف الأحداث والأفكار لتقع في حيز زمنى ضيق، ولكن الكاتب يمط هذا الحيز الزمنى الضيق ويوسعه من خلال المونولوج (الحوار الداخلى) واسترجاع الأحداث (الفلاش باك) ويمتد بالزمن إلى فترة مبكرة من حياة البطلة ونشأتها ودراستها، فنعيش عمرا بأكمله لامرأة ذات حلم مجهض وتجربة فاشلة.

«عنايات» هى الشخصية المحور في الرواية، ومع أنها تبدو في تجربتها وأحلامها بؤرة الأحداث الروائية، إلا أنها العدسة التى تقرب إلينا ما يجرى في الوطن، ولعل اختيار مهنة التدريس وتخصص الفلسفة بالذات، كان من وسائل الرواية الذكية لمناقشة قضايا المجتمع وتغيراته، ثم إن إحباط البطلة وإخفاقاتها كانت أيضا من الطرق التى أطلعتنا على غابة من الرغبات الوحشية التى تتملك طبقة متوحشة فقدت الضمير والأخلاق وتسعى إلى تخريب المجتمع بأطماعها وجشعها. ومع أن «عنايات» تبدو مدرسة غير عادية، حيث تعد رسالة ماجستير، إلا أنها تحلم بوصفها امرأة أن تكون زوجة وأمّاً وصاحبة بيت مستقر، ولكنها لا تستطيع أن تحقق هذا الحلم، فقد أخفقت في زواجها الأول من «سلامة الخشاب» سكرتير مدرستها الإدارى وهو شخص محدود الدخل، مدمن للمخدرات، ولم تستطع العيش معه وطلبت الطلاق بعد ستة شهور، ثم تزوجت من «علوان» مدرس الإنجليزى وناظر المدرسة الذى يكبرها بأكثر من عشر سنوات، ولكنه يستغلها في إعطاء الدروس الخصوصية، ويستولى على دخلها عنوة، لقد وجدت نفسها مع رجل متزوج من زوجتين أميتين أخريين تعيشان مع والدته وبناته

الأربع في ميت غمر، فتتنازل عن حقوقها ويطلقها بعد ثلاثة شهور من الزواج.

ومع أن عنايات اختارت لرسالتها «صراع المعقول ضد المنقول بين ابن رشد والغزالى» ، فقد عاشت تعانى من الصراع بين سلطان العقل وسلطان الجسد أو رغباتها الحياتية، لقد شغلتها الصفات الجسدية لحبيبها وللرجال الآخرين، ولكنها تطمح إلى الاستعلاء على الرغبات الجسدية، بيد أن مناخ الشر المختلط بالرغبات الوحشية التى تحيط بها تؤثر على مستقبلها ومستقبل أمثالها. إن شخصية عنايات تجمع تنافر الحدود، وتختلط في تكوينها الألوان كافة في حزمة ضوء واحدة مثل قوس قزح إنها في كل الأحوال تفتقد المودة والتعاطف والصداقة البريئة.

ومع أن الصراع بين المعقول والمنقول يبدو في حقيقة الأمر وهماً علمياً روجت له بعض التيارات السياسية في العالم العربى لأسباب تخصها، حيث إن الرجلين (الغزالى وابن رشد) ينطلقان من تصورات إسلامية تسمح بالحوار والتأويل والرؤى المتكاملة، فإن الصراع الذى تعانيه عنايات مدرسة الفلسفة هو صراع من نوع آخر، صراع خلقى بالدرجة الأولى بين الخير والشر، بين الالتزام والانفلات، بين القانون والخروج عليه. بين الإنسانية والتوحش، إنه صراع هذه المرأة التى عاشت طفولة بائسة في المسكن والمأكل والمشرب. لقد كانت ابنة لأم مريضة بالروماتيزم المزمن، وأب يعمل في السباكة بشركة النحاس في مجاهل حى حجر النواتية بالإسكندرية، واضطرت وهى طالبة جامعية أن تعمل لدى صاحب محل بيع ملابس أطفال في شارع سعد زغلول، وتتحمل فجاجة الغزل الذى يمارسه ابنه حيث يسعى لخطبتها عنوة، ولكنها لا تستجيب لإغراءاته مع أنها كانت تعيش في حى زعربانة مع أبيها وأمها، وتخجل من «أبو ستة» صاحب دكان البقالة بسبب ديونهم له، إنها في كل الأحوال تملك قدرا من المقاومة، لكنها تنهار أمام راجى الذى تحبه. وهى على استعداد أن تفعل أى شيء لتستعيده، ولكنها أخفقت في كل الأحوال، لقد قاومت آخرين، وخاصة ذلك المخلوق المسمى «محسن بك» الذى يسعى إلى إغرائها والانفراد بها تحت ستار الزواج العرفى.. لقد رفضته وقاومت حتى استطاعت أن تفلت منه، وكان تعليقه على سلوكها يحمل معنى المفارقة: «غريبة.. متمسكة بالفقر والكرامة.. مع السلامة خيرها في غيرها».

وفي الوقت الذى تقاوم فيه «عنايات» هذا الوحش فإن زميلتها «حسنات» تصبح ذراعه اليمنى في مساعدته على التهريب والغش والرشوة وغسيل أموال المخدرات، وإن كانت تتوق إلى التخلص منه بل والانتقام مما فعله بها.

«عنايات» تمثل في كل الأحوال معادلا لما آلت إليه الأمور من صراع بين المثال والواقع، بين الحلم والفجيعة، بين الفكر والمال، لقد خدعت ثم راحت في النهاية ضحية للصوص الذين سرقوا حقيبتها في القطار، ثم كانت نهايتها المأسوية بالاغتيال على يد شاب مستهتر من طبقة الأوغاد الجديدة.

ولا شك أن «راجى» الذى أحبته «عنايات» واحد من هذه الطبقة الوصولية الانتهازية، لقد خدعها، ومع أنه وعدها بالزواج فإنه لا يفى بوعده، بعد ذلك يتحول من مدرس أول جغرافيا بالمدرسة الثانوية للبنات الى صائغ بشارع الصاغة في دمنهور بعد أن دخل منزل «جاب الله السيد يونس» صاحب مزارع الفواكه التى يصدرها الى الخارج.. فقد تزوج «راجى» من ابنته المسماة «نوجا» والحاصلة على بكالوريوس تجارة من جامعة الإسكندرية، ومنحه

هذا دكاناً يتاجر فيه بالذهب أو المصوغات، ونسى «عنايات» وقصته معها، حتى فوجىء بها ذات يوم تقتحم عليه الدكان فيفاجئها هو بزوجته، وصورة لابنته وتعود حاسرة كسيرة، لتتابع مشاهد نهايتها المأساوية في أحد الشوارع المزدحمة بالإسكندرية وأمام دار للسينما تعرض فيلم «الإسماعيلية رايح جاى»٠

ومن الشخصيات التى اهتمت الرواية بإبرازها، شخصية الدكتور «أبو المعاطى السمالوطى» أستاذ علم النفس التكاملى بكلية الآداب، جامعة الإسكندرية الذى يسافر الى دمنهور لإلقاء محاضرات بالكلية المناظرة، وتصفه الرواية بأنه صاحب أفكار تقدمية، ويعطى دروساً مجانية لطلابه من ذوى الأفكار نفسها، إنه يمثل الاتجاه اليسارى الذى يبدو طريق الخلاص في الرواية، حيث تتشابه رؤاه مع رؤى «عنايات» فضلا عن تشابه الجذور الاجتماعية، لديهما وربما الحظوظ الإنسانية أيضا، فقد نشأ نشأة متواضعة وعاش ظروفاً مأساوية مع الفقر والملابس المستعملة والسكن الضيق الذى لا يجد فيه مكاناً للمذاكرة أو استقبال زملائه الطلاب، ولكنه تفوق وصار أستاذاً في الجامعة (هل يتناقض هذا النجاح مع الفكرة اليسارية التى تربط أو تؤسس حركة الحياة بالواقع الاقتصادى كما حاولت الرواية أن توحى؟)، وقد خاض أبو المعاطى تجربة حب ضائع، فقد خطب طالبة جامعية، ظل يحبها صامتاً لمدة سنتين قبل خطبتها ولكن الفتاة كانت تعيش قصة حب أخرى مع زميل لها، ويبدو أنها لم تستطع أن تتخلص من أبى المعاطى إلا بالانتحار٠

وأبو المعاطى من ناحية أخرى يمثل تيار المعارضة الشجاعة، ففى الوقت الذى يتهامس فيه أساتذة الجامعة، فإن أبا المعاطى ينتقد الظروف السياسية التى دفعت بالوطن إلى دخول نفق مظلم، ويشرح تأثيرات هذه الظروف على التعليم والإسكان والبطالة، وتشجيعها للفساد المتوحش الذى ينخر سوسه أحشاء المجتمع٠ وأبو المعاطى ينتقد الجامعة، كما ينتقد الثقافة والإعلام ورجال المال، وفي نقده للجامعة مثلا يركز على الأساتذة الذين هربوا من مشكلات المجتمع وذهبوا ليخدموا في جامعات الدول الغنية ويكتبون ما ترضى عنه، وجمعوا ثروات تملكوا بها الشقق الفاخرة أو استثمروها في البنوك، وفي الوقت نفسه يتمسكون بعملهم في جامعاتهم الأصلية، ويسعى بعضهم لتقلد بعض المناصب المهمة في الثقافة والإعلام، وتنفيذ أى توجيه لهم مهما كان متعارضاً مع ثقافتهم أو المصلحة العامة، وهناك من هؤلاء من يعزل المجتمع عن أصوله الثقافية الحقيقية، ويخادعون باسم التراث والأصالة حيناً، ونزعات الحداثة الزائفة أحياناً٠ وهذا الانتقاد يبدو زاعقا في سياق الرواية، وأقرب أن يوضع في مقال تنشره مجلة يسارية بحكم أنه يعبر عن رؤية خاصة فيها بعض الصواب، وفيها ما يحتمل المناقشة والمراجعة، إذ كان الأولى بالأستاذ (أبو المعاطى) أن يشرح الظروف أو الأحوال التى تجعل الأستاذ الجامعى يضطر للهروب من بلده والأوضاع التى آلت إليها الجامعة، وهل خدمة أبناء الأمة العربية تدخل في إطار هدف قومى، أم إن ترك المجال لجنسيات معادية للعرب والمسلمين يصبح تفريطا؟٠

بيد أن أبا المعاطى كان يمثل لعنايات الجانب العقلى التى تعجب به على ترددها وتخوفها من الإفضاء إليه بمشكلاتها ومتاعبها مع أنه كان صريحاً معها واعترف لها بقصة حياته وماضيه المأساوى٠٠ وعندما حاولت أن تقترب منه، فإن نهايتها الحزينة المؤلمة كانت في انتظارها، وهو ما جعله يخجل من نفسه لعدم قدرته على فعل شىء، وزاد من خجله أنه ادعى عدم معرفته بصاحبة الجثة، أى عنايات القتيلة٠

هناك شخصيات أخرى غير مبالية، تشمل جمهور السينما والمارة الذين يشاهدون جثة عنايات ولا يهتمون بها، بينما حديثهم المهم يدور حول أبطال الفيلم الذي كانوا يشاهدونه، حتى ضابط البوليس المكلف بمتابعة الجثمان، يؤكد أن مصيره الثلاجة في المشرحة إذا لم يظهر من يسأل عنه، أو يتمرن عليه طلبة كلية الطب في التشريح، وبعد ذلك ينقل إلى مقابر الصدقة «كثيرة هي الحوادث التي تمر بها كل يوم».

يعتمد السرد على لغة سهلة بسيطة متأثرة بلا ريب بالصحافة وحرصها على الوصول إلى أكبر عدد من القراء من خلال المعجم القريب إلى العامة، وتتميز لغة السرد بأنها تحقق ما يعرف في البلاغة العربية بالالتفات، فمع أنها تُحْكى عن طريق الضمير الثالث (الغائب)، فإنها في بعض المواضع تحكى بالضمير الأول (المتكلم) والضمير الثاني (المخاطب)، ويبدو أن هيمنة المونولوج (الحوار الداخلي) على السرد أتاح للرواية أن تكشف أعماق الشخصية الرئيسة وتقدمها لنا من الداخل بصورة واضحة ودقيقة.

وتستغرق لغة السرد في عمليات وصف تبرز الجزئيات، وخاصة ما يتعلق بالبطلة، وملابسها، وأدواتها وحجرة نومها، وهذا الوصف مع المونولوج أسهما في إسقاط الفواصل أو أدوات الربط في فقرات الوصف والتعبير عن المشاعر الداخلية والتوقعات التي تخالط نفس البطلة وأحاسيسها.

هناك أيضا الحوار، الذي وظفته لغة السرد ليكون واقعيا وقريباً من لغة الخطاب اليومي بحيث يكشف جوانب مختلفة من الشخصية تتعلق بماضيها أو حاضرها أو مستقبلها - مثل الحوار الداخلي تماماً - ولكنه في الرواية يميل إلى الإيجاز والاقتضاب سمة الحوارات الواقعية التي تجرى في اللقاءات السريعة أو العابرة أو التي تتم بين أطراف يتوجس بعضها من الآخر، ويتسم هذا الحوار أحياناً بما يعرف بإيجاز الحذف، ولنأخذ نموذجاً عشوائياً من حوار يدور بين عنايات ومحسن بك الذي يحاول استدراجها لتقع في قبضته؟.

«تحاول أن تتمالك السيطرة على إخفاء مشاعرها ، وهي تهمس تسأله :

- هكذا .. بسرعة منذ التقينا .. خلال ساعة واحدة.. فكرت وقررت أن...

قال مبتسما .. بإصرار تلتمع به عيناه ..

- نعم .. بالتأكيد .. ستعملين براتب شهرى قدره أربعمائة وخمسون جنيها.

أضاف متحمساً وهى مشغولة بارتطام قدميها في بعضهما تحت المائدة.

- أنت تملكين مواهب ستفيد كثيرا شركتى، ثم عندى مفاجأة لك..

قالت ضاحكة : تهز رأسها متعجبة وضائقة من نظرة عينيه اللامعتين الواسعتين أسفل حاجبيه الكثيفين:

- هناك مفاجأة أخرى غير هذا المرتب الشهرى المغرى..؟

- نعم .. المفاجأة هى أننى لا مانع عندى.. بل وأرحب .. بأن أتزوجك بعقد قران عرفى عن طريق محام تختارينه لكى تطمئنى على مستقبلك معى، وفي عملك بالشركة.. ما هو رأيك؟..» (ص ١٨٧).

بيد أن أهم ما يمكن أن نلمسه في السياق السردى هو توظيف الفيلم والأغنية للتناغم مع أحداث الرواية والواقع في آن واحد.. وكان فيلم «الاسماعيلية رايح جاى» الذى كان يعرض في أثناء حدوث وقائع الرواية، وقد اشتهر بأغنية «كمان نتا» وهى كلمة غير مفهومة الدلالة تماماً، اللهم إلا ما

ارتبط بتدليل الأطفال الصغار في بعض نواحي الريف، ولكنها في الفيلم تتناغم مع أحداثه، تبدأ الأغنية هكذا :

تحلم بأيه .. كمان ننا ... تسمعني إيه .. كمان ننا

ثم تأخذ الأغنية في التعبير عن حلم الشباب الذى يعيش عصراً مختلفاً عن عصر أبيه وأجداده، إنه عصر الماديات والأدوات الحديثة، والحلم الذى يتحدث عنه بطل الفيلم في الأغنية هو حلم مادى صرف بعيد عن إشباع الروح وامتلاء الوجدان، إنه حلم المظهريات الفارغة بما فيها الحب الشكلى:

«أنا نفسى أبقى واد حبيب وبيه
ومعايا فلوس كثيرة، تلاتين تلاتلاف جنيه
وأشرب أزوزه في العجوزة، مع استاكوزه
وأجيب دش مع الموبايل، والحته الكوبيه»

ولا شك أن التطلع إلى الغنى والامتلاك هو سمة قائمة تسبق كل السمات في المجتمعات، كما تصوره الرواية ، وقد قدمت لنا الرواية شخصيات داخل هذا الإطار أبرزها: راجي، ومحسن بك، والشاب القاتل .. بيد أن الأغنية وهى تعبير عن رغبة الشبان في الغنى والامتلاك، تقدم لنا الحالة الوجدانية والنفسية التى يعيشها هؤلاء الشبان، إنها حالة الحزن والإحباط ، وبعيدا عن الصخب وعدم المبالاة والمادية التى تبدو مهيمنة على سلوكهم، فإنهم يترقبون في داخلهم إلى الوصول إلى حالة التوازن الروحى والعاطفى والإنسانى، وهو ماتشى به أبيات المقطع الأخير من أغنية «كمان ننا».

يا دنيا ليه معانده معانا
عمرك ماجيتى على هوانا
ولما جيتي تصالحينا ..
عملتى قال .. مش سمعانا!

وتأمل البيت الأخير الذى يكشف عن عمق دفين داخل المجتمع.. هذا العمق الطيب الذى يتميز بالسماحة والطيبة والقناعة.. إنه يطمح إلى السلام والرضا، ولو بدا المقطع الأول حاداً مسنوناً، ومتأثرا بالمناخ المادى المحموم.

هناك أيضا ؛ محاولة توظيف عناوين الصحف اليومية لإعطاء خلفية عن الواقع السائد في الرواية على المستوى المحلى والقومى والعالمى جميعاً، وقيمة هذه المحاولة التى تظهر في الرواية والبطلة تبحث عن أصدقائها ومعارفها من أجل الحصول على قرض صغير لتركب سيارة تنقلها إلى بيتها، إنها تبرز الواقع الذى تعيشه البطلة وتحيا مفارقاته العجيبة والغريبة، حيث ضاعت حقيبتها ومحفظتها وبطاقتها، فصارت تبحث عمن يعرفها ويتذكرها، وتوازى هذا الموقف الشخصى مع الموقف العام الذى تاهت فيه القيم وضاعت الموازين على صعيد السياسة والاقتصاد والسلوك الاجتماعى.

وبعد :

فلا شك أن «محمد صدقى» مخلص في رؤيته التى يسعى من خلالها إلى التعاطف مع المحيطين والمهزومين والمقهورين من خلال شخصياته الحية التى تعيش واقعاً مأساويا، ينتهى نهايات مأسوية، إنه واقع الرغبات العاطفية الوحشية الموازية للرغبات الاقتصادية الوحشية.. وقد اجتهد الكاتب في طرح رؤيته الخاصة التى تكشف الخلل الاجتماعى السائد والطريق إلى معالجته والتغلب عليه، وقد يختلف معه بعض القراء في هذه النقطة أو تلك، ولكنه يتفق معه في قدرته الفنية على التعبير الإنسانى عن واقع نتمنى جميعاً تغييره إلى الأفضل والأحسن والأجمل ■

إنها ظلال الكلمة الواعية الهادفة نستظل بها من هجير مانلاقي في بيداء هذه الحياة الهادرة ..

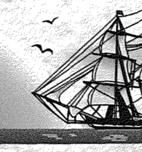
تكريم الإسلام للمرأة

□ جاء الإسلام في بلاد العرب بعد فترة طويلة من تفشي الفوضى والهمجية بها، وهى الفترة التى تعرف باسم الجاهلية فكان طبيعيا أن يكون نصيب المرأة هو نصيبها في كل مجتمع فسدت أحواله واختلت موازينه، فكانت المرأة أحقر شأنا من الرقيق حتى بلغ الأمر بالآباء الى حد التخلص من بناتهم في قسوة ووحشية لا عهد للبشر بها من قبل اذ كانوا يئدونهن وهن على قيد الحياة.

وقد ظلت هذه العادات الوحشية سائدة الى أن جاء القرآن الكريم فندد بها واغلظ على مرتكبيها، وتوعدهم بالويل والثبور والعذاب المقيم في الدنيا والآخرة قال تعالى: {وإذا الموودة سُئلت، بأي ذنب قُتلت} (سورة التكويرالآية/٧، ٨)، وقد جعل الدين الاسلامي جزاء لمن يرتكب هذه الجريمة.

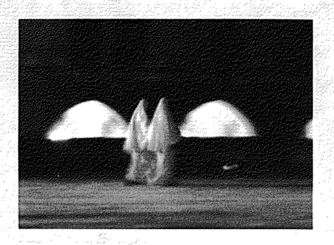
وإذا كان الأمر قد بلغ بهؤلاء العرب الى حد وأد البنات، فيمكنك أن تتصور حظ النساء من الحياة العامة والحقوق في المجتمع والتى يمكن أن تجمل في كلمة واحدة وهي انه: لا حق للمرأة في شيء فهي تباع وتشترى وتؤجّر وتورث، كأن يرث الولد امرأة ابيه وله أن يتصرف فيها كما شاء والمرأة لا يحق لها أن ترث اباها ولا زوجها، وانما كان الميراث من نصيب الذكور حتى وإن كانوا بعيدي الصلة عن المتوفّى.

هذا الوضع قد قلبه القرآن الكريم رأسا على عقب، فأحدث في تاريخ المرأة اعظم انقلاب في حياتها، فقرر القرآن الكريم وأكد أن هذه الجموع



حبيبة أحمد مطيوط

المغـــرب



من بني الانسان انما تدين في وجودها الى الذكر والأنثى مجتمعين، فلا فضل لذكر على انثى الا بالتقوى والعمل الصالح وقيام كل بواجبه، قال تعالى: {يا أيها الناس إنا خلقناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم} (الحجرات الآية/ ١٣).

وقال تعالى في أول سورة النساء: {يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ان الله كان عليكم رقيبا}، حتى إذا فرغ القرآن من تقرير هذه المقدمة رتب عليها النتيجة المنطقية، بأن جعل المرأة مسؤولة امام الله عن جميع اعمالها مسؤولية الرجل على السواء، فوعدها الحسنى اذا احسنت كما وعد الرجل، وانذرها بالعقاب ان هي اساءت، وقاس اعمالها بنفس المقاييس التي يقيس بها اعمال الرجل، وفرض عليها كل ما فرضه على الرجل من عبادات وواجبات وفرائض واركان، غير مفرق بين الرجل والمرأة في أي جزئية من هذه الاجزاء، بل لقد خلط بين الرجل والمرأة فوجه الخطاب اليهما في كل عباراته، حتى صار من الاحكام المقررة في الشريعة الاسلامية ان كل ما كلف به الرجل فالمرأة مكلفة به، إلا اذا استثناها القرآن الكريم أو السنة المشرفة بصريح اللفظ أو دل على ذلك شواهد الحال.

وحسب الانسان ان يطالع هذه الآيات لكي يتبدد في نفسه كل ظل للشك في نظرة القرآن للمرأة والرجل، قال تعالى: {فاستجاب لهم ربهم أنِّي لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأُوذوا في سبيلي وقاتلوا وقُتلوا لأُكفرنَّ عنهم سيئاتهم ولأُدخلنَّهم جنات تجرى من تحتها الانهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب} (آل عمران الآية/ ١٩٥)، وقال عز وجل: {ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون نقيرا} (النساء الآية/ ١٢٤)، فهذه نصوص شاملة جامعة لكل ما يمكن ان يوصف به الرجل من فضائل وآداب، وكل ما يزاوله من اعمال وسعي وجهاد، قد وجه القرآن الكريم فيها الحديث للمرأة توجيهه للرجل، على ان الاسلام لم يقف عند حد تقرير المساواة بين الرجل والمرأة في الامور الدينية أو من الناحية الأدبية البحتة، بل لقد ساوى بين الاثنين في جميع الحقوق المدنية، فجعل للمرأة كل ما للرجل من اهلية كاملة في تملك الحقوق المالية والتصرف فيها بكافة انواع التصرفات، سواء كانت بالبيع أو الشراء أو الهبة والايصاء أو الإعارة والتأجير أو الوكالة والانابة، وغير ذلك من عقود الالتزامات والمعاوضات والتبرعات، وما يتبع ذلك من حق الدفاع عن مالها كالدفاع عن نفسها بالتقاضي امام القضاء وغيره من الوسائل المشروعة.

وهذا الأمر لا تتمتع به الا المرأة المسلمة، وحسب

الإنسان هذا الفرق الخطير بين المرأة المسلمة وغيرها ليدرك عظم هذا الانقلاب الذى جاء به الإسلام منذ خمسة عشر قرنا في حياة المرأة، وكان طبيعيا وقد قضى الاسلام للمرأة بكافة الحقوق المدنية التى قضى بها للرجل ان يجعلها شريكة في الميراث، فقال تعالى في محكم آياته: {للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا} (النساء الآية/ ٧)، ولقد كان لتقرير حق النساء في الميراث قصة تروى فتمس أوتار القلوب وتظهر مدى ما في الاسلام وقلب الرسول {صلى الله عليه وسلم} من رقة وسماحة وبر بالنساء وعطف عليهن وتدعيم لحقوقهن، فقد روى جابر بن عبد الله قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد الى رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فقالت: يارسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل ابوهما معك يوم احد شهيدا وان عمهما اخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ولا تُنكحان الا ولهما مال، قال: «يقضي الله في ذلك» فنزلت آية الميراث، فبعث رسول الله {صلى الله عليه وسلم} الى عمهما فقال: «اعط ابنتي سعد الثلثين واعط امهما الثمن، وما بقي فهو لك»٠

أي ان رسول الله {صلى الله عليه وسلم} لم يبق للعم الا اقل من سدس الميراث ورد الباقي لابنتي سعد بن الربيع وامهما، وقد كان ذلك انقلابا خطيرا، لم يكن اقرب المقربات الى الرسول تحلم به فضلا عن ان تطمح اليه، ومع ذلك فقد قضى به القرآن الكريم في وقت كان الرسول فيه احوج الى تأييد الرجال وسواعدهم في القتال، وليس وراء ذلك برهان على ان الرسول الكريم {صلى الله عليه وسلم} لا ينطق عن الهوى وانما هو وحي يوحى.

على ان حق المرأة في المساواة مع الرجل لم يبلغ ذروته الا عندما اباح لها الاسلام حق التصرف المطلق في شخصها، ولم يجعل لاحد عليها من سلطان الا سلطان ارادتها ورغبتها الحرة الخالية من كل ضغط أو إكراه، وان الموطن الاكبر الذي صالت المرأة فيه وجالت، ونافست فيه الرجل وتفوقت عليه في بعض الاحيان ولم يصدها عند صاد أو يحول بينها وبينه حائل هو موطن العلم، ذلك الموطن الذي فرضه الاسلام على المرأة كما فرضه على الرجل، فما كان للمرأة المسلمة ان تخدم دينها الا إذا تعلمت ونضج تعليمها، فليس الاسلام شعوذة أو دجلا أو اوهاما يحركها اشخاص معينون يصفون انفسهم بانهم سدنة الدين وحفظته، فليس في الاسلام كهنوت أو كنيسة، وانما الاسلام علم مشاع، بل علم مفروض على كل من دان به٠

ولذلك فقد اجتمعت الآراء على أن الحديث القائل: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» يشمل في مدلوله كل مسلم ومسلمة، لأن الدين لم يفرق في أي حكم من احكامه بين الذكر والانثى، ولذلك فقد تهافتت النساء كتهافت الرجال على طلب العلم والتثقف بثقافة الاسلام والاغتراف من مناهله العذاب في شخص الرسول الكريم {صلى الله عليه وسلم} والخلفاء وكبار الصحابة والعلماء من بعده، وقد كان على نساء النبي بنص القرآن ان يتلقين العلم عن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} ليعلمنه للناس من بعده، قال تعالى: {واذْكُرْنَ ما يتلى في بيوتكنَّ من آيات الله والحكمة} (الاحزاب الآية/ ٣٤)، وقد قامت نساء النبي بعد وفاته {صلى الله عليه وسلم} بما عهد به اليهن، فنقل عنهن المسلمون الاحاديث ومختلف الآراء والاحكام واستفتوهن في امور الدين والدنيا■

على منابر من نور:

الحب في الله

صباح عبد الستار السيد
ســـوريا

□ مـــا هو أول وأعظم وأنقى حب يجب أن يملأ جوارح وكيان العبد المؤمن؟ إنه بالتأكيد حب الله عز وجل..

كيف يحب العبد ربه ؟

يقول المرحوم الأستاذ محمد عبد اللطيف صاحب «أوضح التفاسير» (حب المؤمن لربه يجب أن يكون متميزاً عن سائر الحب، فلا يجوز أن يكون كحب الولد، إذ هو كاسبه، ولا كحب الوالد، إذهو واهبه، ولا كحب المال، إذ هو مكسبه، ولا كحب الزوج ، إذ هو هاديها وراعيها، ولا كحب سائر الأهل مهما كانوا نافعين قادرين، ومهما كانوا أحباء محبين ـ بل يجب ألا يشاركه تعالى في الحب مخلوق ـ مهما سما قدره، وعلت منزلته، ولا يجوز أن يتعلق حبه بسبب من الأسباب، لئلا يزول ذلك الحب بزوال هذا السبب بمعنى أنه يحبه لأنه يحفظ عليه أهله، أو ولده، أو ماله، بل يجب أن يكون حبه لله، لذات الله، فإنه تعالى إن شاء وهب، وإن شاء سلب، وإن شاء أعطى، وإن شاء منع، لا يُسأل تعالى عما يفعل، وهم يسألون).

ومن هذا الحب الإلهي تنطلق المحبة لرسوله الكريم {صلى الله عليه وسلم} الذي بلَّغ رسالته، والذي لقي الأهوال، ليخرج الناس من ظلمات الجهل الى نور الإيمان وتوحيد الله سبحانه.

ثم بعد ذلك تأتي المحبة في الله التى تعتبر ثمرة من ثمرات محبة الله تعالى، والحب في الله عز وجل فضل من الله تعالى وعد به عباده في قوله: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودًا} (مريم الآية/٩٦).

والمحبة في الله والأخوة في دينه من أرقى الطاعات، والقيام بحقها يقربنا إليه زلفى. قال ابن حزم رحمه الله «المحبة ضروب فأفضلها محبة المتحابين في الله سبحانه».. والمرء قد يحب آخر لماله، أو جماله، أو حسبه، أو نسبه، أو لعرض زائل أو لمصلحة شخصية. فهذه الدوافع ممقوتة في الإسلام، فالمسلم لا يحب المرء إلا لدينه الحق.

قال ابن القيم رحمه الله: (من أحب شيئاً سوى الله، ولم تكن محبته له لله، ولا لكونه معيناً له على طاعة الله، عذب به في الدنيا قبل اللقاء).

وقد عبر سيدنا عمر بن الخطاب عن قيمة الأخوة في الله بقوله: (ما أُعطي عبد بعد الإسلام خيراً من أخ صالح، فإذا رأى أحدكم وداً من أخيه فليتمسك به).

ما هي علامات الأخوة في الله ؟

١ ـ أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك، قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» رواه البخاري.

٢ ـ أن يزيد هذا الحب بالبر ولا ينقص بالجفاء.

٣ ـ الوفاء: فيجب على المسلم أن يتعهد أخاه بالنصح إذا أخطأ في حق دينه، قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: «الدين النصيحة. قلنا: لمن؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» رواه مسلم.

٤ ـ المسلم لا يضر نفسه ولا يجلب لها الشر، وكذلك لا يضر أخاه المسلم ولا يجلب له الشر، قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسْلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر

مسلما ستره الله يوم القيامة» متفق عليه.

٥ ـ أن لا يحسد المسلم أخاه في دين ولا دنيا، قال تعالى في كتابه الكريم: {ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة} (الحشر الآية/ ٩).

كيف يتحقق فينا معنى الأخوة في الله ؟

١ ـ يتحقق معنى الأخوة في الوحدة الفكرية على عقيدة واحدة، والوحدة القلبية على عاطفة دينية واحدة، وأهداف واحدة.

٢ ـ قد يتعايش الناس مع بعضهم ولكنهم لا يفقهون طبيعة المشاعر والمودة التى يكنها بعضهم لبعض، فعلى المسلم أن يخبر أخاه المسلم عن حبه له لتشيع آثار الألفة والمودة. فقد ورد عن النبي {صلى الله عليه وسلم} قوله: «إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه» رواه أبو داود والترمذي.

٣ ـ إفشاء السلام قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: «والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» رواه مسلم.

٤ ـ الوصل بالزيارة في الصحة والمرض: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: «من عاد مريضاً أو زار أخاً له في الله، ناداه مناد: بأن طبت، وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلا» رواه الترمذي.

٥ ـ تبادل الهدايا بين المتحابين لما لهذا العمل من أثر كبير في تعزيز أواصر المحبة.

٦ ـ الحرص على دوام المحبه في الله، قال الرسول عليه الصلاة والسلام : «ما تحاب رجلان في الله تبارك وتعالى، إلا كان أفضلهما أشدهما حباً لصاحبه».

صور من المحبة في الله :

١ ـ من أصدق أنواع هذه المحبة تلك الصورة الرائعة للأخوة الحقيقية التى نشأت بين رسول الله {صلى الله عليه وسلم} وبين صدِّيق الأمة رضى الله عنه، قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: «إن آمن الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد، إلا باب أبي بكر».

٢ ـ هناك صورة أخرى لهذا الحب، إنها المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، فقد أراد النبي {صلى الله عليه وسلم} أن يطبق القاعدة النبوية في الحب الأخوي، حيث آخى بين المهاجرين والأنصار، بعد أن ترك المهاجرون ديارهم بمكة وفروا بدينهم إلى الأنصار الذين قاسموهم أموالهم ومنازلهم وكل ما يملكون.

٣ ـ وها هي صورة أخرى تشعرنا بروعة المحبة بين رسولنا العظيم وزيد بن حارثة الذي كان يكنى (بِحِبِّ رسول الله) أو «زيد الحب». فقد أحبه رسول الله {صلى الله عليه وسلم} حباً كبيراً، وكان زيد خليقا وجديرا بهذا الحب، فوفاؤه الذي لا نظير له، وعظمة روحه، وعفة ضميره ولسانه ويده كل ذلك كان يزين خصال زيد بن حارثة.

ما أسباب الحب في الله ؟

إن أهم أسباب هذا الحب إرضاء الله تعالى. قال عز وجل {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض} (التوبة الآية/٧١)، فمن تمام حب العبد لربه ولرسوله الكريم أن يحب ما أحب الله، قال ابن رجب رحمه الله نقلا عن كتاب موارد الظمآن لعبد العزيز السلمان: (ومن تمام محبة الله محبة ما يحبه وكراهية ما يكرهه، فمن أحب شيئاً مما كرهه الله، أو كره شيئا مما يحبه الله، لم يكمل توحيده وصدقه في قوله لا إله إلا الله، وكان فيه من الشرك الخفي بحسب ما كرهه مما أحبه الله، وما أحبه مما يكرهه الله).

ومن أسباب الحب في الله أيضاً أن المتحابين وعدهم الرحمن بظل عرشه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: «سبعة يظلّهم الله في ظله» وذكر منهم «ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه» متفق عليه.

ولما لهذا الحب من مزايا قال فيه التابعي مالك بن دينار رحمه الله (لم يبق من روح الدنيا إلا ثلاثة: لقاء الإخوان، والتهجد بالقرآن، وبيت خال يذكر الله فيه).

حقوق الحب في الله :

لكي يكتمل معنى الأخوة فينا، ولكي نعطي هذا المعنى العظيم حقه، يجب قبل كل شيء حسن اختيار الأخ. قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل». وقد قال الأوزاعي: الصاحب للصاحب كالرقعة للثوب، إذا لم تكن مِثْله شَانَتْهُ. فعلينا اختيار الصاحب العاقل الذي يتصف بالأخلاق الحميدة، ونبتعد عن الفاسق، قال تعالى: {ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه} (الكهف الآية/ ٢٨).

وقال النبي {صلى الله عليه وسلم}: «لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي» رواه أبو داوود والترمذي.

ومن أوجب الحقوق بين المسلمين عقد الإسلام، فقد صار لكل مسلم بهذا العقد حرمة، لا يحل لأحد أن ينتهكها. قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمي» متفق عليه، والأخوة مشاركة وتراحم، قال عز وجل في وصف أصحاب النبي {صلى الله عليه وسلم} ورضي الله عنهم مادحاً إياهم {أشداء على الكفار رحماء بينهم} (البقرة الآية/٢٩).

ومن حق المسلم على أخيه المسلم:

١ ـ الأخوة في القلب كالوفاء والإخلاص.



٢ ـ الأخوة في المال: كأن يساعد المسلم أخاه في الشدة من عطاء ودَيْن وإيثار. قال تعالى: {وإن كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة} (البقرة الآية/ ٢٨٠).

٣ ـ ستر المسلم لعيوب أخيه، وعدم البوح بأسراره، بل يجب أن يذكر أخاه بما يحب، قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحرمه ولا يخذله».

٤ ـ الدعاء، أي أن يدعو المسلم لأخيه في حياته وبعد موته قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: «ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك: ولك بمثل» رواه مسلم.

وهناك حقوق أخرى للمسلم على أخيه، كأن يزوره ويفرج كربته، ويشاركه في السراء والضراء، ويمشي في حاجاته. قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: «من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في

الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» رواه مسلم.

ما هي موانع الحب في الله :؟

لقد نهانا الله عز وجل عن المغالاة في الحب، وعن اتباع الهوى في معاملتنا للناس، فلا نميل مع صديق ان كان جائراً ولا نجور على عدو مظلوماً.

قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم والوالدين والأقربين} (النساء الآية/١٣٥).

وقد قال الإمام علي كرم الله وجهه في هذا المعنى: «أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وابغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما».

ومن آفات الصحبة أن يخالط المحبة شيء من هوى النفس، وأن ينشغل المتحابون بمجالسهم عن تفريغ القلب للفكر والاستئناس بالله تعالى، ومن آفات المحبة كثرة الإخوان التى قد لا تمكننا من القيام بحقوقهم كما يجب.

فضل الحب في الله وآثاره :

المتحابون في الله على منابر من نور يوم القيامة، قال رسول الله [صلى الله عليه وسلم]: «إن من عباد الله عباداً ليسوا بأنبياء يغبطهم الأنبياء والشهداء، قيل: من هم؟ لعلنا نحبهم. قال: هم قوم تحابوا بنور الله من غير أرحام ولا أنساب، وجوههم نور على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ: {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون} (يونس آية/ ٦٢)، وقال رسول الله [صلى الله عليه وسلم]: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي» رواه مسلم ■

نبي الهداية

نوال مهنى

مصـــر

سـلام عليكَ نبيَّ الهداية
بُعـثت فكنت من الحقّ آية
عنايةُ ربك قد أرسلتكَ
فنعم الرسالة نعم العناية
أتيت تمجّد كلَّ جليل
وكلَّ جميل ومنذ البداية
تصونُ الحقوقَ بقلب وفيّ
وتُعطى لأهلك كلَّ الرعاية
وأنت لنا أسوةٌ ومثال
فكلُّ خصالك رمزٌ وغاية
وفيض نَداك وفيرٌ عميمٌ
فتعطى الفقير لفوق الكفاية
وتعفو وتصفح رفقاً ونبلا
وغيرك يعفو لأجل الدعاية
رؤوفٌ رحيمٌ مع المؤمنين
وحلمكُ يسمو بغير نهاية
وفي دينك الحقُّ ترقى النفوسُ
وتأمن فيه شرورَ الغواية
ففي طاعة الله كلُّ الفلاح
وفيها النجاةُ وحصن الوقاية

أمي الحبيبة

رند أحمد صدوق صافي

الكويت

□ إلى أمي الحبيبة ·· إلى ذلك القلب الذى ينبض بالحب والعطاء·· إلى كل سيدة عظيمة أغدقت على أبنائها من حنانها ·· الى كل مربية فاضلة شملتنا بحبها وحنانها ورعايتها ·

إليكن في هذا اليوم الذي ينتظره الأبناء ليتقدموا بالشكر والامتنان وليعبروا عن جزء صغير من الحب الكامن في صدورهم، والذي يصعب وصفه بالكلمات ·· إليكن أهدى هذه القصيدة:

أمي ·· ويخفق دائماً قلبي بحبك

أمي ·· ورجعُ الطير صدّاحٌ باسمك

دوماً هواك يشدُّ من أزري

وينير لي سبلي

في حلكة الظلم

ويداك تمسحان أحزان الحياة

وتضيء لي عيناك دنيا أملي

*** * ***

وإذا طبعت بثغرك الوردي

قبلة الصباح

فتزهر الورود في حديقتي

وتشرق الأقاح

وإذا لقيت ببسمة التحنان وجهك

ذابت الآلام

كم طاب لي أن أرتمي

في حضنك الدافى

بغمرات الرضا

أبثك الأماني الكبيرة

أسراري الصغيرة

يا شمعة الحب التى

قد نوّرت حياتي

فأنت فرحتي التي

قد رسمتْ سعادتي

*** * ***

بالله يا حبيبتي

لا تبعدي عني

إن تبعدي أحسُّ بالخوف

ينتابني البردُ

يلفّني الصمتُ

يجتاح وجداني

فأنتِ ملهمتي

في كل إنشادي

أماه ! عذراً إن كبا عنك القريض

يا أنتِ ·· يا أعظم من كل الحروف!

زواج بالإكراه

□ ما إن أنهيت دراستي من معهد المعلمات حتى تم زواجي من ابن عمي في صيف تلك السنة، ولم تكن فرحة الزواج التى تغمرني أكثر من فرحة النجاح، الذى طالما حلمت به أياماً وليالي وسنوات، وتمنيته في كل لحظة نصب وشقاء، كانت الشهادة بالنسبة لي شيئاً عظيماً، حرصت دائما على السعى اليها، لا لأنى أعتبرها الوسيلة لكسب المال، بل لأنها ستظل السند الذي أركن اليه عند أزمات الدهر، وستكون بمثابة الحارس الذى يحول بينى وبين غوائل الزمن.

كان ثراء أبي الواسع، وحرمانه من نعمة الولد طُعْماً دسماً، يجذب إليه الصيادين الذين لا هم لهم غير الغوص في أعماق اليم، للبحث عن الغنائم غير مكترثين بما يسببونه من دمار لغيرهم.

وبلباقة وذكاء، استطاع ابن عمي أن ينفذ إلى أعماق ابي كما تنفذ خيوط الشمس بأشعتها في أغوار أرض صلبة، الشيء الذي جعل ابي يوافق على طلبه.. ناسيا أو متناسياً البون الشاسع بيننا في مستوى العلم، واختلاف الرأي، وعلى الرغم من محبته الكبيرة لي، لم يبال لتوسلاتى وبكائي!! إصراره، وتمسكه بآرائه القديمة، وضعت حاجزا بينى وبينه، نزفت كل دموعي، وأنا أرجو أمى أن تقنع أبي وتثنيه عن عزمه ولكنها أضاعت أملي في الخلاص من هذا الزواج الذى لم تكن لي رغبة فيه، حين قالت:

ما الذي تقولينه يا نوره، انسى الموضوع تماما؟ ولكن يا أمي ... ولا كلمة إنك لا تعرفين ما سيظنه أبوك عندما يسمع مثل هذا الكلام لما تجرأت، وأصررت على رأيك .. صَمَتُّ على قهر وهضمتُ علتي بآلامها، واختنقت العبرات في صدري، وتاهت الدموع حائره في طريقها فظلت عالقة بمقلتى، تذيبني في صمت ومرارة، كما تذوب الشمعة في ذل وخشوع.

أسابيع قليلة، ووجدت نفسي زوجة، ووجدتنى أعيش حياة غريبة، حياة بعيدة كل البعد عن حياة المتزوجين؟.. حياة عارية من السعادة والجمال اللذان تحسهما كل عروس، بعد ولوجها في القفص الذهبي أو عالم السعادة!

نفس البيت؟ ونفس الغرفة؟ ونفس الحياة التى كنت أحياها من قبل لا شيء جديد! إلا سريراً وضع ليضم جسدين، بينهما مسافات ومسافات، إن اجتمعا فإن روحيهما تفيض كل منهما في واد آخر.

وإنسان لا أراه إلا بين فينة وأخرى كالسراب الذي يتراءى للظامىء يظهر فجأة ثم لا يلبث أن يختفى فجأة، وكأنه يجيء ليريني نفسه؟ وليثبت وجوده ليقول أنا زوجك لا تنسى هذا؟

لا هو وجدنى كما أرادني، ولا أنا وجدته كما أردته.

صحوت خائفة ذات ليلة من حلم مزعج، نظرت هنا وهناك باحثة عمن يهدىء روعي؟ ويدثرني من برد الخوف، لا شيء قربى إلا وسادة ترثى لنفسها؟ من آلام رأس مثقلة بالهمّ.

كفكفت دمعى ، ومضيت أتساءل بيني وبين نفسي، بعد أن فرّ النوم من عينى وجفانى! أين أنا من أحلامي؟ أين بيت الزوجية السعيد؟ أين من رسمت صورته في مخيلتى وفكرى وحفرتها في قلبي؟.

سامحك الله يا أبى، سامحك الله يا أبي.

سنتان مضيتا رزقت خلالهما بطفلتى انتصار التى أصبحت كل شيء في حياتى، فهي سلوتى وعزائي الوحيد الذي ينسينى قسوة أبيها، وجفافه معي، وذات يوم جاء عمى يطلب من أبى أن يحل ولده من الشرط الذي فرضه عليه، مقابل زواجه بي، لأعود معه لبيته لأن زوجته مريضه وهى بحاجة لرعايتى.

قسوة الظروف والأخوه والحنان الذي كان يتغلغل

في أعماق ابي دفعت به الى القبول.

تركت بيت أهلي، إلى بيت عمي الذى رضى بشرط ابي السابق تقربا اليه وطمعا في ماله، أحسست بعد انتقالى الى بيت عمي بسعادة كبيرة، لما شعرت به من إثبات وجودى كزوجة في بيت زوجها وعملت كل ما فى وسعى لخدمة زوجة عمى وأم زوجي التى أحببتها كأمي، معاملتها الطيبة معى أجبرتنى على محبتها، والتفانى في خدمتها.

سنة مضت ورزقت بطفل جديد، ثم تزوج شقيق زوجي وأحضر زوجته لتعيش معنا، وعند ذلك بدأت أشعر بالفرق الكبير بين معاملة زوجى لي، وتجاهله إياى، وعدم مبالاته بمشاعرى وأحاسيسي، وبين معاملة أخيه لزوجته التى تزوجها باختياره، ورأيه هو، رثيت لنفسي، وندبت حظي، الذي ضنَّ عليَّ بسعادة كنت أتوق لها، اشتد المرض على زوجة عمي، وفوجئت به يطلب مني ترك عملي، للتفرغ لشئون البيت.

هالنى هذا الطلب الغريب، وصعقتنى موافقة زوجى عليه، بالرغم من أن راتبى كان يأخذه لنفسه تاركاً لي القليل، رفضت بشدة، متمسكة برأيي، ثم تحول بطلبه إلى زوجة ابنه الأصغر، فرفضت هي الأخرى، وأصرت على اكمال دراستها.

تحول البيت الى جحيم من المنازعات والخصومات حتي ملت حياتى في هذا البيت، وفوجئنا بعمى ذات يوم يقف أمامنا ويقول: إما أن تتركي المدرسة أو تتركي البيت الى غير رجعة.. ذهلنا أول الأمر، فلم نصدق ذلك حسبناها مداعبة أو تخويفاً منه، وخرجت كل منا الى بيت أهلها غاضبة حين تأكدنا من صدق كلامه، وبعد مضى فترة عدنا ثانية، وكأن شيئاً لم يكن، ولكن العاصفة عادت مرة ثانية والزلزال عاد شديداً، حتى حطم البيت فتناثرت أنقاضه ظهرا على عقب.

بعد أسبوع وصلتنى ورقة الحكم التى أصدر فيها عمى حكمه القاسى على حفيديه، وحكم عليهما بالتيتم والضياع، لأسباب لا تستحق أن يعيش طفلان بلا أب يمنحهما حبه ورعايته وحنانه.

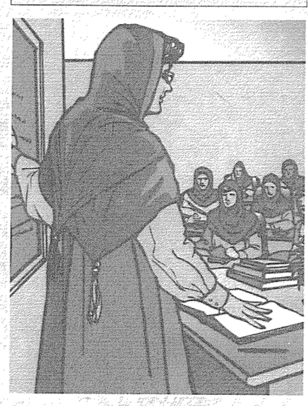
أبوهما ملأت القسوة قلبه، وأعمى الفرح الزائف بصيرته عندما أمره والده بالتخلى عنى، بعد أن وعده بتزويجه من جديد.

ورفض شقيقه ذلك، لأن مودة حقيقية تربطه بزوجته، ولأن مبادئه وأخلاقه وانسانيته منعته من الانصياع لرأى والده الظالم، وعدت لبيتى لا كما خرجت منه معززة مرفوعة الرأس بل عدت جريحة الفؤاد مكسورة الجناحين محطمة النفس تذيبنى نظرات أطفالي، وتعذبنى ابتسامتهم الشاردة، وتخيفنى هواجس من يوم أقف فيه مكتوفة الأيدى، أمام قسوة جدهم وظلم والدهم، الذي سينتزعهما حينما يكبران.

سامحك الله يا أبي أردت أن تشترى لك ابناً بمالك، فبعتنى وبعت أولادي من حيث لا تعلم.. سامحك الله يا أبي ■

بهية بوسبيت

السعودية



عندما يبكي الرجال

□ اجتمع الرجال الخمسة حول جثمان أبيهم المُسَجَّى فوق منصة غسل الموتى .. يتأملون ذلك الوجه الأبيض النحيل الذي تكسوه لحية ذات شعيرات قليلة متباعدة.. وجه بهيٌ صقله ماء الوضوء وصلاة القيام في جوف الليل فأصبح كأنه طبق مزخرف براق من الفضة.

ذلك الوجه ألفه أئمة الحرم والمتسابقون إلى الصف الأول.

للمرة الأولى منذ ستين عاما يرتفع الأذان مناديا للصلاة ويمتد إلى أطراف المدينة النبوية دون أن يجيبه ذلك الرجل الصالح فيتوضأ ويرتدي ثوبه المطيب بالمسك ويسوك فاه الذي لم يعرف بذيء القول وفحشه وأكل لحوم الناس ثم يتوجه إلى الحرم.

سيبكي هذا الرجل الطيب .. الطريق الذي كان يقطعه كل يوم ليؤدي الصلوات الخمس في الحرم.

ستبكيه السجادة التى كان يحب الجلوس والصلاة عليها قرب المحراب.

وسيبكيه صديقه العجوز الذي يجلس بجانبه في حلق العلم ويتنافس معه على حفظ القرآن الكريم.

ولكن هل سيبكيه أبناؤه الخمس الذين أتوا اليوم من أصقاع الدنيا كي يصلوا على أبيهم ويودعونه الوداع الأخير بعد فراق سنوات طويلة.

خمسة رجال خرجوا من المدينة قبل سنين طلبا للرزق.. تزوجوا وأصبحوا آباءا.. أمدهم الله بأموال طائلة لم يكن نصيب أبيهم منها إلا ريالات

مريم خليل الضاني

المدينة المنورة

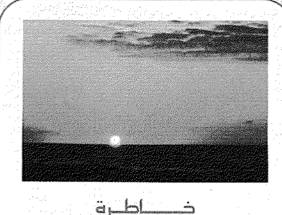
قليلة يرسلها بعضهم إليه من حين لآخر وقد تمر الثلاثة والأربعة شهور دون أن يسأل أحدهم عنه بالهاتف.

خمسة رجال .. إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة، لا ينقصهم بهاء الوجه ولا قوة البدن ولا العلم ولا الثقافة.. ولكن ينقصهم شيء في قلوبهم ... ساد المكان صمت رهيب لم يقطعه إلا خريرُ الماء المتساقط على جسد الأب.

غاسل الموتى يطيب الجثمان ويلبسه الكفن.. أوشك الرجل على الانتهاء من تجهيز الميت، حاول الرجل جاهدا أن يخفي تأثره البالغ خلف ستار الجَلَد ولكنه لم يفلح.

رفع يديه إلى أعلى وقال بصوت مرتجف متقطع : رحمه الله .. كان رجلا صالحا .. لم يؤذ أحدا من الناس قط.. اللهم ارحم غربته وكبَرَ سنه ووهنَ عظمه.. اللهم ارحم حبه لك وخشيته منك وشوقه إليك.. اللهم اجعل القرآن الذي حمله في صدره أنيسه في قبره.. اللهم أسكنه دارا خيرا من داره (ثم نظر الرجل إلى أبناء الميت وقال): وأبدله أهلا خيرا من أهله.. تحشرج صوت الرجل وتعثرت الكلمات على لسانه فلم يكمل الدعاء..

وعندها ... انفجر الرجال بالبكاء ■



خاطرة

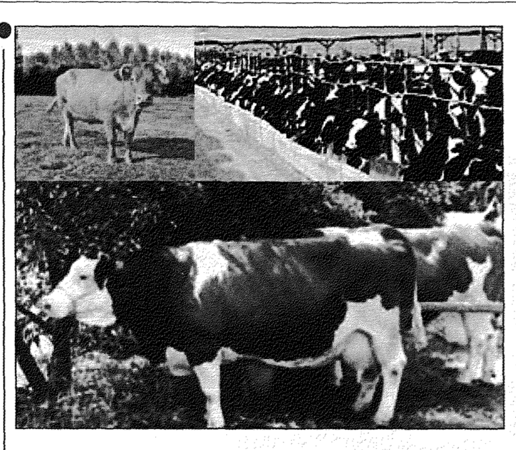
الم السنين

حنان سالم

جدة

ما أنا إلا ريشة تطاير بين أغصان الأحزان ..
تطاير تارة نحو العذاب
وتارة نحو الحرمان
كلما طارت سقطت بين ركام السنين
عانيت من الاذلال بكم لا يستهان به
كم أنا حزينة .. كم أنا مكسورة
كم أنا تعيسه .. كم أنا مقهورة
ياللحسرة والندم في زمن لا يعرف فيه الانسان جميل الاحسان
آه من الذي جازاني بالحرمان

البقرة



□ ذُكرت البقرة في القرآن الكريم، وسميت سورة هي أطول سور القرآن باسمها، وهي التي يُقال لها فسطاط القرآن لعظمتها وبهائها، وكثرة أحكامها.

وقد وردت كلمة البقرة مفردة ومجموعة في القرآن الكريم..

وردت مفردة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ (سورة البقرة: ٦٧ - ٧١).

وقصة هذه البقرة وردت فيها روايات ملخصها أن رجلاً من بني إسرائيل وُلد له ابن، وكان له بقرة فأرسلها في غيضة وقال: اللهم إني استودعتك هذه البقرة لهذا الصبي. ومات الرجل، فلما كبر الصبي قالت له أمه، وكان باراً بها: إن أباك استودع الله بقرة لك، فاذهب فخذها، فذهب، فلما رأته البقرة جاءت إليه حتى أخذ بقرنيها. وكانت متوحشة فجعل يقودها نحو أمه. فلقيه بنو إسرائيل ووجدوا بقرة على الصفة التي أمروا بها فساوموه، فاشتط عليهم، فأتوا به نبي الله موسى عليه السلام وقالوا: إن هذا اشتط علينا، فقال لهم: ارضوه في ملكه، فاشتروها بوزنها مرة (١).

كما وردت مجموعة في قوله تعالى: {إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَينا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهتَدُونَ} (البقرة: ٧٠).

وفي قوله تعالي: {وَمِنَ الإِبِلِ اثنَينِ وَمِنَ البَقَرِ اثنَينِ قُل ءَالذَّكَرَينِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَينِ أَمَّا اشتَمَلَت عَلَيهِ أَرحَامُ الانثَيينِ} (الأنعام: من الآية ١٤٤).

البقر في اللغة:

قال العلماء: البقر اسم جنس جمعي، وهو الذي يُفرق بينه وبين واحده بالتاء، بقر.. وبقرة. أما الجمع فهو: بقرات، وهو جمع تأنيث، وقد ورد في القرآن الكريم في سورة يوسف عند قول الله تعالى: {وَقَالَ المَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأكُلُهُنَّ سَبعٌ عِجَافٌ..} (يوسف: ٤٣).

وكلمة البقر: اسم جنس يطلق على الذكر والأنثى، قال المبرد في الكامل: إذا أردت التمييز

اعداد : محمد محمد صالح عوض

مصـــر

بينهما قلت: هذا بقرة للذكر، وهذه بقرة للأنثى، كما تقول: هذا بطة للذكر، وهذه بطة للأنثى (٢).

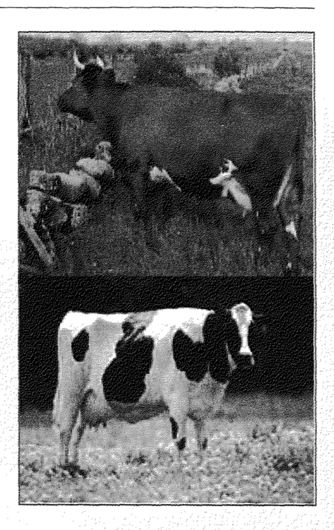
ومن الأحاديث التي ورد فيها ذكر البقر: ما رواه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (يوشك أن ترى قوماً يغدون في سخط الله ويروحون في لعنته في أيديهم مثل أذناب البقر) (٣).

هذا.. والبقرة حيوان أليف نافع للإنسان، وما من حيوان يستطيع أن يفعل من أجل البشر مثلما تفعل البقرة، فهي تكاد تكون الحيوان الوحيد الذي تظل الفائدة منه قائمة في كل أجزائه وثناياه، فهي تعطي لنا ما هو أكثر من مجرد الطعام المتمثل في اللحم واللبن ومشتقاته، فنحن نحصل من اللبن المتخثر حين يروب على مادة بروتينية تسمى "كازين" هذه المادة تكون حجر الأساس في كثير من المنتجات النافعة مثل:

الطلاء.. وصناعة الورق المصقول.. والمواد اللاصقة التي لا تتأثر بالماء وفي صناعة الأزرار.. وإنتاج بعض الخيوط الصناعية الشبيهة بالصوف.

كما تمدنا جلود الأبقار بالأحذية والحقائب. أما القرون والأظلاف فتدخل في صناعة الكيماويات البسيطة، حتى عظام الأبقار تدخل في وسائط الأسمدة وبعض الصناعات الغذائية والدوائية.

إن الله عز وجل وهبنا طاقة خير، ومنبع إدارار،



ومبعث تفاؤل، وإشارة خصب، وموطن صداقة، متمثلاً في ذلك الحيوان المسمى بالبقرة. (٤)

بديع خلق الله في البقرة:

أما عن الإعجاز الإلهي في خلق البقرة فهو كما يلي:

- جسم البقرة عبارة عن تشكيل هندسي بديع وهائل في نفس الوقت.. حوالي نصف طن من الأجهزة الحيوية والمتشابكة في نظام بالغ التوازن.

- الرأس تحمل عينين من أجمل ما رأى الوجود من عيون، والتي يُضرب بها المثل، فيقولون في وصف العيون الفاتنة: عيون كعيون المها، والمها هي البقر الوحشي.

- معدة البقرة عبارة عن أربعة أكياس..

١- الأول: الكرش، وهو الكيس الأول من الأكياس الأربعة التي تكون معدة البقرة، وهو أشبه بمعمل يقوم بصنع المعجزات، فإذا فحصت عينة من محتويات الكرش تحت الميكروسكوب وجدت أكثر من خمسين نوعاً من البكتريا تقوم بصنع البروتين من مركبات النيتروجين الموجودة في الحشائش التي تأكلها، ومنه تستمد البقرة فيتامين (ب) الذي نحصل عليه نحن ومعظم الحيوانات الأخرى من مصادر خارجية، وبفضل هذه البكتريا تستحيل أنوا ع التبن والعلف الذي تأكله الأبقار إلى أطعمة صالحة للإنسان.(٥)

وعلى هذا، فإن البقرة تأكل العلف ليستقر في الكرش لمدة (١٢) ساعة تقوم خلالها البكتريا بعملها ثم تعيد البقرة العلف إلى فمها على هيئة دفعات صغيرة، حيث تمتزج المادة اللعابية وتُطحن إلى قطع صغيرة جداً، وتبتلع ثانية، وفي أثناء هذا المضغ تفرز حوالي (٤٥) لتراً من اللعاب يومياً، بالإضافة إلى نصف كيلو جرام من بيكربونات الصوديوم لتساعد على الهضم.

٢- الكيس الثاني: وهو "القلنسوة" تدور به أمعاء على هيئة خلايا النحل، ويطلق الفلاحون على هذا اسم "كيس المسامير" لأن المسامير وقطع الحديد والمواد الأخرى غير القابلة للهضم والتي قد تبتلعها في المراعي تحتجز داخله.

٣- الكيس الثالث: وهو "أم التلافيف" وهو جزء عضلي يطرد المياه الزائدة.

٤- الكيس الرابع: وهو "الأنفحة" وهو يقوم بعمل

شبيه بذلك الذي تقوم به معدة الإنسان، حيث يحتوي على الأنزيمات والعصارات الهاضمة.(٦)

ألبان الأبقار: فوائد ومنافع:

حليب الأبقار غذاء لا يعادله في الأهمية شيء من أنواع الغذاء جميعاً، بطعمه الشهي، ومذاقه اللذيذ.. وهو شراب الفطرة. قال تعالى: {وَإِنَّ لكُم فِي الأنعَام لَعِبرةً نُّسقِيكُم مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَينِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ} (النحل: ٦٦).

فاللبن غذاء كامل متكامل، روى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أطعمه الله طعاماً فليقل اللهم بارك لنا فيه وارزقنا خيراً منه، ومن سقاه الله لبناً فليقل: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه، فإني لا أعلم ما يُجزئ من الطعام والشراب إلا اللبن) (٧).

كما بينت السنة المطهرة أيضاً أن ألبان البقر من الأسباب التي يُستشفى بها من كثير من الأمراض، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تداووا بألبان البقر، فإني أرجوا أن يجعل الله فيها شفاء، فإنها تأكل من كل الشجر) (٨).

هذا ويحتوي لبن الأبقار على (٨٧٪) ماء، و(٤٪) دهون، (٣,٦٪) بروتين، و(٤,٧٪) كربوهيدات، و(١٣٪) جوامد كلية.

وللدلالة على أن اللبن غذاء متكامل يكفي أن تعرف أن أحدهم حسب كمية الألبان التي استهلكها البشر خلال عام ١٩٩٥م وصورها بمثال طريف يقول:

إننا لو وضعنا كل الألبان التي انتجت خلال هذا العام في زجاجات سعتها لتراً جنباً إلى جنب، لتكوّن لدينا خط يدور حول الكرة الأرضية أكثر من (٤٠٠) دورة (٩).

لطيفة:

أورد صاحب المستطرف من كل فن مستظرف هذه اللطيفة في كتابه قال: حُكي أن شخصاً كان له بقرة، وكان يشوب لبنها بالماء ويبيعهُ، فجاء السيل في بعض الأودية وهي واقفة ترعى فمر عليها فأغرقها، فجلس صاحبها يندُبها، فقال له بعض بنيه: يا أبت لا تندبها، فإن المياه التي كنا نخلطها بلبنها اجتمعت فغرقتها!! (١٠) ■

الهوامش :

(١) **تفسير القرطبي: ١ / ٤٩، سلسلة القصص القرآني: ١٧ / ٩٠.**
(٢) **سلسلة القصص القرآني: ١٧ / ٩٠ .**
(٣) **الحاكم في المستدرك: ٤ / ٤٨٢ رقم ٨٣٤٤، وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه.**
(٤) **مجلة المجاهد: العدد ١٨٩ ، ص ٤١ .**
(٥) **مجلة المجاهد: العدد ١٨٩، ص ٤١ .**
(٦) **السابق.**
(٧) **أخرجه الترمذي في السنن (٥ / ٣٤٥٥)، وهو في صحيح الجامع برقم (٣٨١).**
(٨) **أخرجه أحمد في المسند: (٤ / ٣١٥) والطبراني في الكبير: (٣ / ٤٩) وهو في صحيح الجامع برقم: (١٨١٠).**
(٩) **مجلة المجاهد: العدد ١٨٩، ص ٥١ .**
(١٠) **المستطرف: ٣٧٥ .**



علينا أن ننقل من الثقافة الغربية لحضارتنا بقدر وميزان. وعلينا أن نفيد منها لاثراء ملكاتنا.. وعلينا أن ننهل من معينها المتفق مع حضارتنا ومثلنا ومقوماتنا.
— المنهل —



الحياة والفن

ل (يوكيو ميشيما)

□ ***نشر الملحق الثقافي الأسبوعي لجريدة (إلموندر) الإسبانية في عدد سبتمبر ٢٠٠١م نصين قصيرين لم يسبق نشرهما للكاتب الياباني المعروف يوكيو ميشيما (١٩٢٥ - ١٩٧٠م). وقد أُخذَ النصان عن كتاب كان على وشك الصدور في إسبانيا يحتوي على خمسة نصوص هامة غير منشورة لميشيما بعنوان دروس روحية لفائدة شباب الساموراي.***

وتعميما للفائدة فقد ارتأينا أن نقدم لقراء مجلة المنهل الكرام ترجمة للنص الأول منهما، لأنه يعالج من خلال منهج يجمع بين التأمل الفكري العميق والسيرة الذاتية الحميمة، قضية أدبية شائكة طالما شغلت ذهن الكتاب والنقاد على حد سواء، وهي قضية علاقة الحياة بالفن والفن بالحياة، فيا ترى كيف كان يتصور ميشيما هذه العلاقة؟.

النـــص :

على العموم، يشرع الواحد منا في التفرغ للفن بعد أن يكون قد عاش حياته، ولو أني أعتقد، فيما يختص بي، بأن العكس هو الذي حدث لي، إذ يخيل لي أني انصرفت إلى الحياة بعد أن كنت قد شرعت في نشاطي الفني، على كل حال، فمن طبيعة الأشياء الانشغال أولا بالحياة ثم الانكباب بعد ذلك على الفن، وعلى سبيل المثال، يمكنني أن أعرض حالة كاتبين بإمكان مشوارهما أن يضيء لنا عملية المرور من الحياة الى الفن، وهما (ستندال) و(كازانوفا) ، فقد أدرك ستندال الذي لم يكن راضيا على نفسه،

لأنه لم يستطع أن ينال إعجاب النساء ولأنه أخفق مرات عديدة في محاولاته اكتساب مودتهن، بأن الأدب فقط يمكن أن يعينه في تحقيق أحلامه، وعلى النقيض من ذلك، فإن كازانوفا بعد أن مرح مع النساء وانتقل من الواحدة إلى الأخرى مرات عديدة اعتمادا على مواهبه الطبيعية، وبعد أن استمتع بملذات الحياة إلى أقصى حد، قرر أن يكتب مذكراته لما لم يجد شيئا آخر يجربه.

ولذلك، نلاحظ وجود صراع ومواجهة بين الفن والحياة، وغالبا ما ننخدع بمعرفتنا العميقة بشأن حياة الكتاب، في حين يحيى هؤلاء، في الحقيقة، في معظم الأحيان حياة خاملة مدهشة، بينما هناك أعداد غفيرة من عامة الناس يحققون وجودا ثرياً وقوياً، ومع ذلك فمن المحتمل أن واحدا في المائة منهم فقط يشعر برغبة في كتابة سيرة حياته، ومن جهة أخرى، تتطلب الكتابة أيضا قريحة وصنعة وتمرسا شأنها في ذلك شأن أي نوع رياضي، وعلى سبيل المثال، فإنه يستحيل الاستمتاع بالحياة وممارسة أي نوع رياضي في نفس الوقت، كما أنه لا يمكن للمرء مزاولة الكتابة فيما هو منغمس في مغامرة.

ولذلك لما يقرر امرؤ تحرير مذكراته، أي تحويل

تقديم وترجمة: عمر قوبيع

المغـرب

ما عاشه إلى سرد ممتع للغاية كما لو أنه يسعى إلى أن يورثه للأجيال اللاحقة، ففي غالب الأحيان ما يأتي ذلك متأخرا جدا، قلة هم أولئك الرجال الذين يفلحون في إبانه، أمثال كازانوفا، في تجسيد واقع مشابه لمشروعه، ومن الجهة الأخرى، يوجد أولئك الذين يشعرون بخيبة أمل في الحياة، مثل ستندال، ويحشدون في رواية ما عدم رضاهم وغيظهم وأحلامهم وشعرهم الذي هم قادرون على الإحساس به، غير أنه حتى في هذه الحالة يلزم امتلاك قريحة باهرة، بالفعل، ينبغي الإبداع انطلاقا من لا شيء وبناء عالم كامل على الأساس الوحيد للخيال، وفي أغلب الأحيان ينشأ هذا الخيال من عدم الرضى أو الضجر.

وعندما نواجه خطرا ما، فإننا بناء على ذلك، نركز ذهننا في العملية، وعندما نوجه طاقاتنا بأسرها نحو فعل الحياة، فإنه لا يكاد يبقى للخيال مجال، وإذا ما اعتبر الخيال مساعدا على بروز العصاب، فإنه يمكن التأكيد على أنه قد توفرت في

اليابان خلال الحرب أقل الشروط تلاؤما من أجل تنامي أمثال هذه الاضطرابات النفسية.

ففي هذه الفترة حتى السرقات كانت نادرة، والجرائم لم يكن لها وجود تقريبا والتخيلات اليومية للناس انحصرت أساسا في الحرب، ولا يمكن لمقالة ما أن تحقق نجاحها إذا لم تحشد فيها طاقة شعب بأسرها.

كما أكدت، فحياتي قد بدأت بعد أن تفرغت للفن، وهكذا، فالذي يبدأ في كتابة رواية في العشرين من عمره ليس لديه من سبيل آخر غير الارتكاز على التجارب والأحاسيس التي قد يكون راكمها فيما سبق والعمل على تشغيل خياله عليها.

في الحقيقة، فضلا عن تجاربنا، نرتكز على قدرتنا القابلة للتأثر، إذ تكشف حساسيتنا المجروحة والرهيفة عن نشاز حياتنا، ومن ثم نلعب في عالم الكلمات لنرى ما إذا كان بامكاننا أن نتخطى فيها الهوة التى فتحها فينا مثل ذلك النشاز. وعلى هذا النحو تكوّن عدد غفير من الكتاب، إذ يحشدون في صياغة رواية كل طاقتهم وإرادتهم وكل قدرتهم في المقاومة وكل القوة التى تستخدمها الكائنات الإنسانية الأخرى في محاولتها للظهور بمظهر الرجال.

وفي حالة الكتّاب ، فإنه يضحى بهذه الخصائص الضرورية من أجل الحياة على مذبح النشاط الأدبي، أما إذا تحول الكاتب حتما إلى عامل، فبإمكانه أن يبحث عن أقوى التجارب في ذكرى مراهقته، أي في تلك المرحلة من الحياة التى تتبلور فيها الحساسية، وغالبا ما يقال بأنه يمكن لكاتب أن ينضج في فنه إذا ما استحضر دوما في ذهنه عمله الأول، مما يعني، ببساطة، بالنسبة لكاتب ما بأن إبداعه الأول يشكل، باعتباره إبداعا لم يتحدد جيدا وبُني على أساس تجارب ناقصة وعلى أدق حساسية، مسقط الرأس الجوهري الذي لا يعوض، بحيث يمكن أن يرجع إليه عدة مرات طوال حياته.

لا تشكل المراهقة فقط مسقط الرأس الثمين بالنسبة للذي يكتب، وإنما الطفولة أيضا وخلال هاتين المرحلتين ليست الحياة تجربة وإنما حلم، وليست تعقلا وإنما حساسية، وعلاوة علي ذلك، فالرجل لم يأخذ لحد الآن على عاتقه المسؤوليات التى ينبغي أن يتحملها الكبار.

لنغير الموضوع؛ إذ لا يبدو أن النشاط السياسي للحركة الطلابية (زنغاكورن) كان خلوا من ضرب من الضغط الفني، في الحقيقة، يمزج الطلاب الذين ينتسبون إلى هذه الحركة أحلامهم الطفولية بعالم المثل والسياسة، فلا أحد أستطاع ان يبدأ حياته فأحس مباشرة بإحساس الرضى، بالفعل هناك قلة قليلة جدا يعتبرون من الراضين على أنفسهم، وفضلا عن ذلك، فعدم الرضى هو شعور عام في كل الثورات، بما فيها تلك التي تنتهي متوجة بالنجاح، إنه من عدم هذا الرضى يصدر الفن ■

العصابة

قصة قصيرة للكاتب الإيطالي (ألبرتو مورافيا)

ترجمة: **فوزية محمد السعيد**

مصر

□ حينما دخلت إلى حجرة الكشف، استوقفني الطبيب وأنا متجهة إلى المقعد قائلا: «لا جلسة اليوم»، وتبادلنا النظرات: إنه أصلع ويلبس نظارة طبية لها عدستان سميكتان تزيدان من اتساع حدقتي عينيه ذاتي اللون الأزرق الباهت، فتجعلهما أشبه بشقين صغيرين في جبل من الثلج، وتحت أنفه الطويل المقوس، يبدو فمه كثقب مستدير تحيط به تجاعيد كثيرة حادة ودقيقة كخدوش الموسى، وهو طويل القامة، عريض المنكبين، إذا جلس وضع إحدى ساقيه الضخمتين على الأخرى، فبرز بياض عضلتي الساقين أعلى جاربيه القصيرين المضمومين بشريط من المطاط، إنه كريه، غليظ الطبع، ومع ذلك.. فلندعه يكمل حديثه.

خيّم الصمت لحظة واستطرد يقول بصوته البارد البغيض:

«سيدتي العزيزة، يجب أن أقول لك إنه بعد عام من العلاج أصبحتِ على ما يرام ولم تعودي في حاجة لي».

فاعترضت في الحال قائلة: «إنني لست على ما يرام بالمرة، إنني أعاني من حالة عصبية حادة».

- إنك على ما يرام تماما، والشيء الوحيد والغريب الذى لاحظت عليك هو أنك تحاولين إغرائى وبأى ثمن، إنك جميلة، وشابة، وغنية ومنفصلة عن زوجك، وكلها ظروف مواتية، ولكننى لا أحبك للأسف؛ إنني أحب زوجتي التي تكبرك في السن وتقل عنك في الجمال، إننى لم أعد أستجب لإغراء المغامرات، فمثل هذه الأمور وخيمة العواقب في مهنتنا، إذا عُرفتْ، لكل هذه الأسباب أرى من الأفضل أن ينقطع كل منا عن الآخر».

كان يتحدث بلهجة حازمة، ونهض، واتجه بخطوات قصيرة، وسريعة صوب الباب ولم يتوقف إلا ليقول لي: «تفضلي يا سيدتي، أرجوك، تفضلي، تفضلي».

عدت إلى بيتي مشدوهة ومنهكة، لا أقوى على التفكير، وقد غشيتنى حالة من الذهول أعجز عن تصويرها، ودخلت إلى البهو، واقتربت من المصعد، كان هناك شاب ينتظر، فتى طويل الشعر ككثيرين غيره من الفتيان. أنفه المقوس كأنوف القراصنة يبرز بين خصلتين من شعره البنى المنفوش، وفم مترهل منفر، وذقن اختفى وراء لحيته المدببة، كان يرتدى سترة ضخمة وَبَرُها من الداخل، على غرار رعاة جزيرة «سردينيا»، وبنطلون «جينس» و«بوت».

دخلت أنا والشاب إلى المصعد، وخرجنا منه معا أمام باب شقتي؛ وفي هذه اللحظة أخبرتى أنه جاء ليعرض عليَّ شراء بعض قطع الصابون التى

يحملها في حقيبة كبيرة ذات سير طويل، أدخلت الشاب الشقة وتركته لأحضر له النقود من حجرتي فلم يكن في حقيبتي شيء منها، وعدت فلم أجده. كان قد انصرف بعد أن استولى على زهريتين كبيرتين من الفضة كانتا على المنضدة، ترددت لحظات، ثم اندفعت إلى الخارج، وأنا أركض على الدرج، وأردد «ياله من وقح»، فلحقت به، كان ينزل في هدوء وهو يُصَفّر وقد استند بيده على الدَّرابزين، وعلق حقيبته بكتفه، وطلبت إليه وأنا ألهث أن يعود، فأومأ برأسه بالايجاب دون أن تبدو عليه الدهشة، وعلى عتبة الشقة سألته عن اسمه فأجابني: «اسمي دومنيكو».

ولعلكم تتذكرون تلك العصابة التى تحدثت عنها الجرائد كثيراً في وقت من الأوقات؛ وقامت بسرقة إحدى عشرة شقة، الواحدة تلو الأخرى، في بضعة أشهر، إن هذه العصابة تكونت منا نحن الاثنين، أنا ودومنيكو، كان لى أصدقاء كثيرون من رجال المسرح، وممثلى السينما، والأجانب، وكانوا جميعا يقطنون في شقق تتسم بطابع واحد، فجميعها تقع في الطابق الأخير من البنايات وليس بها غرف للخدم، كنت، في اليوم المحدد، أتصل هاتفيا بالضحية، وأتقصى خفية عن كيفية قضائها للسهرة وخاصة الساعة التى ستعود فيها.

كان كل شيء يتم بناء على خطة موحدة ومدروسة، كنا نختبيء، أنا ودومنيكو، على سطح أحد المنازل المجاورة للمنزل الذى سنسطوا عليه ونبقى بين الملابس المنشورة حتى تسنح الفرصة، فنقفز من سطح إلى سطح حتى نصل إلى المنزل الذى نريده.

كان الأمر سهلا للغاية فأبواب الأسطح في مدينة روما تترك مفتوحة دائما أو تغلق بأقفال عتيقة يكفى مسمار مقوس لفتحها، وكان دومنيكو يقوم بثنى قضبان النوافذ، إذا وجدت، ثم يكسر الزجاج برفق، ويمد يده ويفتح المصرا ع؛ فأمرق أنا بجسمى النحيل الرشيق إلى داخل الشقة؛ في حين يقوم دومنيكو بالمراقبة من الخارج، كنت أستولى على الأشياء الصغيرة، مثل التحف، والمنافض الفضية ؛ وأضع كل شيء في الحقيبة ونعود، أنا ودومنيكو، سالكين الطريق الذى جئنا منه.

كنا نحبك السرقات، أنا ودومنيكو، بصورة مذهلة، ولكن العلاقات بيننا لم تكن كذلك، لقد أحب كل منا الآخر، لكن هذا الحب النابع من تواطئنا لم يمنعنى من احتقاره، كان في ظاهره نموذجا للشاب «ذى الشعر الطويل» وهو في أعماقه بورجوازي صغير، فهو لا يقرأ قط، ولا يسمع من الموسيقى إلا المقاطع المكررة المملة، ولا يستهويه الرقص، والشيء الوحيد الذى يحمد فيه أنه لا يتكلم، إذا ضمه جمع من الأصدقاء، فهو جاهل ولا يحسن الحكم على الأشياء، لقد أقدم على السرقة لأنه يتطلع إلى العيش في روما وعدم العودة إلى قريته، والآن وهو يعيش على عاتقى، فلعله يفضل البعد عن المخاطرات ويميل إلى الدَّعة والراحة، حياته ظاهرها التأمل والتفكير وواقعها الخمول والكسل.

وكان من الطبيعى أنه أراد في البداية أن نكف عن السرقة؛ ولكننى أجبرته على الاستمرار تحت تهديدى له بالطرد والإبلاغ عنه، ومن ناحية أخرى فإن عجزه عن التصرف في المسروقات التى كنت احتجزها منه وأضعها في إحدى الحقائب المملوءة بالخرق داخل الصَّندرة كان يشق عليه.

كان يود أن يحقق حلم حياته بأن يجمع من عائد هذه المسروقات، رأس مال صغير يتاجر به في

طوابع البريد، كان أشبه بالنملة وكنت أشبه بالصرصار، بطلي الخرافة الشهيرة، وإن كان هو بخداعه وشعره الطويل أقرب إلى الصرصار، وأنا بأسلوبي الواضح أقرب الى النملة.

إننى أتذكر أول ليلة سرقت فيها، كان ضوء القمر ينير شرفات أصدقائى التعساء، وكنت أشعر وأنا أتأمله، وهو في كماله، بانفعال يجعل الدموع تنساب من عينى وأنا أغامر هذه المغامرة الحقيقية لأول مرة في حياتى، وإذا كنت قد شعرت بالحب نحو دومنيكو فإن ذلك الشعور كان لا يلبث أن يتبدد، فما أن ننتهى من تنفيذ إحدى السرقات حتى أشعر أننى أبغضه.

وتوالت الأحداث سريعا، إنني لا أفكر برأسي، أو أفكر بها قليلا، وأتصرف بدافع من غريزتى، وبهذه الغريزة قررت سرقة طبيبى النفساني، وبدأت أمهد لذلك، ولكن لماذا طبيبى النفسانى بالذات؟ سؤال لم أفهمه إلا في اللحظة الأخيرة؛ وأنا أرتب لهذه السرقة مع دومنيكو، حكيت لدومنيكو قصة علاقتى مع الطبيب، وفي النهاية تساءلت: (لماذا تروق لي فكرة سرقته كثيرا؟) ولم يتبين دومنيكو مغزى سؤالى، إلا أن إجابتى كانت حاضرة، إنني مازلت أحب الطبيب وهذه السرقة في حقيقتها، لم تكن إلا حجة لاستئناف علاقتنا بأية وسيلة.

وجاءت الليلة الموعودة، ونظرت إلى السماء، وتطلعت إلى القمر، كان القمر يبدو خرافيا، وهو في كامل استدارته، بحيث كاد أن يُفقدنى صوابي، وانتزعت نفسى، بالرغم مني، من تأمل القمر، واعتليت النافذة وقفزت في خفة إلى الداخل، واختبأت بضع لحظات خلف الستائر وأنا أفكر في الأشياء التى سأستولى عليها، وقررت أن أسرق مشبك ورق كبير في حجم رأس الطفل من النحاس الخالص، كان ما يزال على المكتب بجوار المصباح، وقلت لنفسى إنه من الممكن فيما بعد، أن أعيده للطبيب وأقنعه بأنني وجدته عند أحد تجار العاديات، وهكذا شيء يجر شيئا آخر.. كان مكتب الطبيب في نهاية الحجرة، في مقابل النافذة، وأزحت الستائر وتقدمت بعض خطوات نحو المكتب.

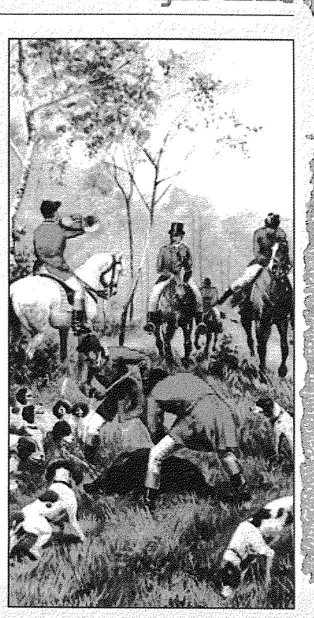
وفجأة أضيء المصباح، ورأيت الطبيب جالسا ينظر إليّ؛ وقال بكل هدوء: «مساء الخير، لقد أخبرنى شخص يدعى دومنيكو: فما كان منى إلا أن صحت حانقة:

ـ الوغد !

ـ لقد هرب الوغد الآن، فلم يعد يحتمل، وكلفنى أن أخبرك أنه لن يعود، كما أخبرنى أنه سيبدأ حياة جديدة بتجارة الطوابع.

وأُسقط في يدي، وتصرفت بوحى من غريزتى في هذه المرة أيضا، فاقتربت من المقعد واستلقيت عليه وطلبت من الطبيب أن يأخذ مكانه خلفى كما يحدث أثناء جلسات التحليل النفسانى، وقلت له: «الآن، لن تقول أننى على ما يرام، لقد سطوت على إحدى عشرة شقة في ستة أشهر، وكلها تخص أصدقائى، إنني لم أتصرف في المسروقات، فحتى الأمس كنت ما أزال أخفيها في بيتى، ولابد أن ذلك الأبله قد استولى عليها ليستعين بها في حياته الجديدة.

ساد السكون لحظة، وأخيرا سمعت الطبيب يقول بصوته البغيض: «أنت على حق، ولكن عليك أن تذهبى الآن لتنامى، وموعدنا غدا... لحظة أنظر في مذكرتى... نعم غدا في السادسة مساء» ■



القناص

للكاتب الإيرلندي
ليام أوفلاهرتي

□ ***تلاشى شفق يوم حزيران الطويل بالليل، كانت دبلن تمتد ملتفة بالظلام ولكن ضوء القمر الخفيف أشرق عبر الغيوم الكثيفة ملقياً ضوءا باهتاً على الطرق ومياه ليفي المظلمة، كانت المدافع الثقيلة تهدر حول المحاكم الأربعة المطوقة، كانت المدافع والبنادق تكسر سكون الليل بشكل متقطع في مناطق متفرقة من المدينة مثل الكلاب التى تنبح في المزارع النائية.***

كان الجمهوريون والأحرار يصعدون الحرب الأهلية، استلقى قناص جمهوري يراقب على أحد الأسطح قرب جسر أوكونيل، استلقت بندقية إلى جانبيه وعلى كتفيه كان هناك منظار راصد، كان وجهه وجه طالب نحيف زاهد ولكن عينيه كانتا ذات وميض بارد يشع منهما التعصب الأعمى، كانتا عميقتان مليئتان بالتفكير، عينا رجل اعتاد مشاهدة الموت، كان يأكل (سندويشه) بجوع، لم يذق شيئا منذ الصباح، أنهى السندويشة وأخرج عبوة من جيبه وأخذ شفة صغيرة ثم أعاد العبوة إلى جيبه، توقف للحظة يفكر ما إذا كان سيغامر بإشعال لفافة تبغ، كانت مخاطرة إذ أن هناك أعداء يترقبون أي وميض في الظلام، قرر أن يغامر، وضع لفافة بين شفتيه وأشعل عود كبريت، لم بريق ثم أزت رصاصة فوق رأسه وانبطح مباشرة، لقد رأى مصدر الرصاصة، إنها من الجانب المقابل من الشارع.

هرع فوق السطح إلى مدخنة في الخلف وببطء أخفى نفسه وراءها حتى أصبحت عينه مستوية مع أعلى المتراس، لم يكن هناك شيء يمكن رؤيته، فقط الهيكل الواهي للبناء المقابل، تحت السماء الزرقاء، كان عدوه متخفياً.

في ذلك الوقت مرت عربة مدرعة عبر الجسر

ترجمة: إبراهيم عبد الله العلو

سوريا

وسارت ببطء نحو الشارع توقفت على الجانب المقابل منه على بعد خمسين ياردة ، كان صوت المحرك الرتيب يصل الى سمع القناص، تسارعت دقات قلبه وكانت عربة معادية أراد أن يطلق النار ولكنه كان يعلم أن ذلك لن يجدي نفعاً، لن تستطيع طلقاته أن تخترق الفولاذ الذي كان يغطي ذلك المارد الأخضر.

من زاوية شارع جانبي حضرت امرأة عجوز تغطي رأسها بشال رث وبدأت تتحدث الى الرجل الموجود في برج العربة وأشارت إلى السقف حيث كان القناص، كانت مخبرة، فتح البرج وخرج منه رأس وكتفا رجل أخذ ينظر نحو القناص، رفع القناص بندقيته وأطلق النار، سقط الرأس بقوة على جدار البرج بينما هرعت المرأة نحو الشارع الجانبي، أطلق القناص النار ثانية، تمايلت المرأة ثم سقطت ترتعش في الزقاق، وفجأة خرجت من السقف المقابل طلقة، رمى القناص بندقيته وهو يشتم تعلقت البندقية بحافة السقف، ظن القناص أن الضجة ستوقظ الموتى، توقف ليحمل البندقية ولكنه لم يستطع أن يرفعها كانت يده اليمنى ميتة.

دمدم قائلا : يا إلهي .. لقد أصبت ، وسقط على امتداد طوله، زحف ثانية إلى المتراس وتحسس بيده اليسرى ذراعه اليمنى المصابة، لم يكن هناك أي ألم فقط إحساس مميت وكأن الذراع قد بترت.

سحب سكينة بسرعة من جيبه وفتحهاعلى صدر المتراس وشق كم ذراعه، رأى ثقباً صغيراً حيث دخلت الرصاصة، ولكنه لم ير على الجانب الآخر أي

The Sniper

BY LIAM O'FLAHERTY

e long June twilight faded into night. Dublin lay ped in darkness but for the dim light of the moon t ne through fleecy clouds, casting a pale light as of a roaching dawn over the streets and the dark waters of th Liffey. Around the beleaguered Four Courts the heavy guns roared. Here and there through the city, machine-guns and rifles broke the silence of the night, spasmodically, like dogs barking on lone farms. Republicans and Free Staters were waging civil war.

On a roof-top near O'Connell Bridge, a Republican sniper lay watching. Beside him lay his rifle and over his shoulders were slung a pair of field glasses. His face was the face of a student, thin and ascetic, but his eyes had the cold gleam of the fanatic. They were deep and thoughtful, the eyes of a man who is used to look at death.

He was eating a sandwich hungrily. He had eaten nothing since morning. He had been too excited to eat. He finished the sandwich, and, taking a flask of whiskey from his pocket, he took a short draught. Then he returned the flask to his pocket. He paused for a moment, considering whether he ould risk a smoke. It was dangerous. The flash might b in the darkness and there were enemies watching. ded to take the risk.

ing a cigarette between his lips, he struck a m as a flash and a bullet whizzed over his h mediately. He had seen the flash. It ide of the street.

the roof to a chimney st elf up behind it

ثقب، لقد استقرت الرصاصة في العظم بالتأكيد لقد كسرته، احنى الذراع أسفل الجرح، راغت الذراع ثانية بسهولة، صك أسنانه ليتغلب على الألم، أخرج الضماد من علبة وكسر بسكينه عنق زجاجة من اليود وترك السائل المر يسيل على الجرح، سرت فيه نوبة من الألم، وضع قطعة من القطن فوق الجرح ولف الضماد عليه وعقد نهايتيه بأسنانه ثم استلقى على المتراس وأغلق عينيه محاولا أن يتغلب على الألم.

في الشارع المقابل كان كل شيء ساكناً، عادت العربة المدرعة بسرعة فوق الجسر ورأس رامي يتدلى بلا حياة فوق البرج وجثة المرأة العجوز تتمدد ساكنة في الزقاق.

استلقى القناص بلا حراك لفترة طويلة يغذي ذراعه المجروحة باليود ويخطط للهرب، يجب أن يهرب قبل بزوغ الفجر ولكن العدو الموجود على السقف المقابل لن يدعه يفلت، يجب أن يقتل ذلك العدو ولكنه لا يستطيع استخدام بندقيته، لم يكن يملك سوى مسدس، فكر بخطة للهرب.

نزع قبعته ووضعها على فوهة بندقيته ثم رفع البندقية ببطء على المتراس حتى أصبحت القبعة مرئية من الجانب المقابل من الشارع ومباشرة مرت رصاصة وخرقت وسط قبعته، دفع القناص بالبندقية

إلى الأمام وأمسكها من الوسط وأسقط ذراعه اليسرى فوق حافة السقف وتركها تتدلى بلا حياة.

بعد عدة لحظات ترك البندقية ترتمي إلى الشارع ثم انسحب إلى السقف يجر يده معه، بدأ يزحف بسرعة نحو اليسار وأمعن النظر في زاوية السقف، لقد نجحت حيلته.

أما القناص الآخر فقد ظن أنه قتل عدوه بعد أن رأى القبعة والبندقية تسقطان كان يقف الآن خلف سلسلة من المداخن ينظر عبرها ورأسه يلقي ظلا واضحاً، ابتسم القناص الجمهوري ورفع مسدسه فوق حافة المتراس، كانت المسافة تقارب خمسين ياردة، كانت ذراعه تؤلمه مثل ألف شيطان سدد على هدفه ، كانت يده ترتجف مع التشوق، ضم شفتيه سوياً وأخذ نفساً عميقاً عبر أنفه وأطلق النار كاد يصم مع اندفاع الرصاصة واهتزت ذراعه بفعل النكوص.

عندما انقشع الدخان أمعن النظر عبر الشارع وأطلق صرخة فرح لقد أصاب عدوه، كان يترنح على المتراس يعاني سكرات الموت، جاهد ليقف على قدميه ولكنه كان يتداعى ببطء إلى الأمام كما لو كان في حلم، سقطت البندقية من قبضته ووقعت على المتراس ثم هوت على الرصيف، ثم تقوقع الرجل المصاب على السقف وتداعى إلى الأمام ، هوى الجسد مرة ثانية بين الطوابق ولامس الأرض محدثاً صوتاً مكتوماً ثم استلقى ساكنا بلا حراك .

نظر القناص إلى عدوه وهو يسقط ثم أحس برعشة خوف، لقد مات شبق المعركة فيه، كان الندم ينهشه، كان العرق يتصبب كضفائر من جبينه، كان الجرح وصوم يوم الصيف الطويل ومراقبة السطوح قد أنهكته.

ثار من منظر الكتلة المتناثرة لعدوه الميت، اصطكت أسنانه وبدأ يهزأ بنفسه ويلعن الحرب ويلعن نفسه، ويلعن كل البشر.

نظر إلى المسدس المدخن في يده ورماه وهو يقسم عند قدميه، خرجت رصاصة بتأثير الرجة من المسدس ومرت طلقة قرب رأس القناص، أعادته الصدمة إلى وعيه، هدأت أعصابه قليلا ، تناثرت غيمة الخوف من دماغه وضحك، أخرج العبوة من جيبه وأفرغها في جوفه دفعة واحدة، شعر بتفاهة الأشياء تحت تأثير المشروب، قرر أن يغادر السقف الآن ويبحث عن قائد مجموعته ليخبره.

كان كل شيء حوله هادئاً ، لم يكن هناك خطر كبير في المشي عبر الشارع، حمل مسدسه عن الأرض ووضعه في جيبه وزحف عبر السقف إلى الطوابق السفلى.

عندما وصل القناص إلى رصيف الشارع شعر بفضول مفاجيء يدفعه ليتعرف على عدوه.

اعترف أنه كان قناصاً ماهراً كائنا من يكون، كان يتساءل ما إذا كان يعرفه، ربما كان عضواً في جماعته قبل الانقسام في الجيش.

تفحص زاوية شارع أوكونيل، في القسم الأعلى من الشارع كان هنالك قتال ضار، أما في هذا الجزء فقد كان كل شيء هادئاً .

مشى القناص يتمايل عبر الشارع، ارتجت الأرض من حوله بوابل من طلقات المدفع ولكنه نجا بأعجوبة، ألقى بجسمه على الأرض وانبطح بجانب الجثة ، توقف المدفع الآن ثم أدار القناص الجسد الميت ونظر فرأى وجه أخيه ■

الهوامش :

(*) الكاتب ليام أوفلاهرتي: روائي ايرلندي مواليد ١٨٩٧؛ تميز بكتاباته الواقعية؛ من أعماله الشهيرة: الأرض (١٩٤٦م) ـ المجاعة (١٩٣٧م) ـ المخبر (١٩٢٥م)، وهي روايات تتحدث عن إيرلندا في القرن التاسع عشر.

قصة من اليابان

لوحات معرض ..

تأليف: تاتسوو ناجاى

ترجمة: د. حماده ابراهيم

مصــــر

☐ *في الوقت الذي يبدأ فيه التكييف عمله في الصباح، يسود هذا المعرض الفني الصغير نوع من الهدوء ومن السكينة بحيث لا يصرفك شيء عن هذه الرائحة الغريبة التى تتموج في الهواء.*

إنها رائحة ليس فيها شيء يخص اليابان ، ومع ذلك فهي ليست رائحة كريهة، رائحة، عطر مسكي يوميء بالحنين، يذكر بأشياء أسدلت عليها ستائر النسيان منذ زمن بعيد.

ومهما استمرت المعارض ستة أسابيع، أو شهراً، فإن الرائحة ، العطر لا يختفي، هذا الجو المعبق لا يطرده الجو الخارجي المجلوب الذي تشيعه لوحات كل من «سيزان» و«فان جوخ» و«بيكاسو» أو «ماتيس».

في ذلك الصيف، يكفيك أن تدخل، لترى بنظرة واحدة الوجه الخزفي الوردي والقرد الخزفي الوردي أيضا، يكفي أن تأتي لتعجب بالأواني الفخارية اليابانية القديمة المعروضة .. الرائحة ، العطر، أكثر تأثيرا من أي وقت مضى.

وجه المرأة هذا والقرد، اللذان وجدا كلاهما داخل مقبرة، كانا يجذبان الاهتمام بالضرورة، خمسة عشر قرنا مرت على القشرة الصلبة لهذين العملين، لكن المتعة التى شعر بها الفنان وهو يصنعهما مازالت تلاحظ.. هاتان العينان والفم (العينان ثقبان في السطح) تجعلك تعتقد أن المرأة تبتسم لك، أو، من زاوية أخرى، إنها تهمس بشيء في أذنك.

أما القرد، فيكفي الطريقة التى يرفع بها رأسه لتعلم أنه كان يفكر في تلك اللحظة في سيده المدفون في القبر نفسه، يكفي رؤية الآثار الحمراء التى لم تمح تماما لتجعلنا نفكر في الموت وفي الحياة في وقت واحد، وفي الطريقة التى يمضي بها كل شيء بطريقة لا رادّ لها.

وإذا كان هذا المعرض الفني بيتا قديما، فهو يرجع إلى ما بعد الحرب، وفي الفناء بعض التماثيل بالحجم الطبيعي تعرض ظهرها الأبيض والجاف للشمس الحامية أيام الحر الشديد.

وحول المعرض، المدينة.. وسيخبرك المرشد السياحي أن هذه المدينة كانت قبل ثمانية أو تسعة قرون مضت، مقر الملكة، وأن من حولها تتناثر بعض المساحات القديمة للحروب، وبعض المعابد البوذية.

وقبلنا بقليل نجت هذه المدينة الملكية من قاذفات القنابل الأمريكية، وعلى بعد فراسخ، في يوكوهاما، لم يبق سوى ميناء تتناثر عليه أشجار العوسج والأتربة، فالأشجار مازالت تنبت هنا.

ويقع المعرض في منتصف غابة، أما الأعمدة التى تحمله فترتفع فوق بحيرة، وتميل عليه شرفة

الطابق الأول.. وفوق الأقداح الضخمة التى كانت تستخدم في شرب الشاي، وفوق الزهريات التى ربما كانت نساء المحاربين القدماء ينسقن فيها الأزهار البرية المقطوفة من المروج، تسود السكينة المعتادة لهذا المكان.

الوقت صباح.. موظفتان فقط موجودتان.. أما الثالثة فمن المفروض أن تصل فيما بعد.. من الصعب التعايش في تفاهم تام حينما يَكُنَّ ثلاثة، ومع ذلك فالموظفات الثلاثة متفاهمات فيما بينهن منذ افتتاح المعرض، وقد تعاقد المدير معهن دون أن يعرفهن، فقط بالاطلاع على شهاداتهن، ومذ ذلك الوقت وهن يقمن معاً بإدارة صالون الشاي الملحق بالمعرض.

في كل صباح، تأتي الأرملتان الأكبر سنا، أو إحداهما مع الأرملة الثالثة التى يبلغ عمرها نيفاً وثلاثين عاما، إلى صالون الشاي لإعداد المرطبات، وتنظيف المكان، والأرملة الثالثة لا تصل بعد الأخريين إلا بحوالي ساعة، ذلك هو النظام.

في صباح اليوم، إليكم ما كانت تتحادث فيه الأرملتان الأكبر سناً :

- ماذا فعلت أمس ؟ كان ما حكيت لي، أو شيء آخر ؟

- كلا ! لم أعثر على القماش الذي كنت أبحث عنه - وقد بللني المطر، وفسد كل شيء.

- طيب ، والألم الذي في الكتف ؟

- مازلت أشعر به .. ولا أدري ماذا أفعل.

- هل ذهبت لقياس ضغطك ؟

- حسنا ! هذا ما يحدث بالضبط : كلما فكرت فيه زاد الألم، كنت أريد أن أذهب إلى الطبيب لكن مدام ميزونو رفضت أن تحل مكاني.

- رفضت ؟

- رفضا باتا.

(مدام ميزونو هي أصغر أرامل الحرب الثلاثة الموظفات في صالون الشاي بالمعرض).

- ولماذا رفضت ؟

- أظن أن لديها ما تعمله هذا الصباح

وفكرت ثانية الكبيرات مليا، ثم قالت مندفعة!

- أنا أتساءل إذا كان هذا الشاب سيأتي اليوم؟

- لعلهما يتنزهان معا الآن ، أذهبي وانظري!..

وهبت الريح ورفعت مفارش المناضد، وجعلت سجف المظلات تطرقع في الشرفة.

أما الببغاء فقد جعل يضرب بمنقاره، ثم يطلق صياحا غير مفهوم، ومنذ فترة طويلة لم يقل شيئا، ولكي يلفت الأنظار، ها هو ذا يصرخ قائلا :

- إلى اللقاء ! إلى اللقاء !

(هذا الببغاء يخص أرملة رابعة : أرملة ضابط بحري، ومنذ عشر سنوات وهي تمتلك هذا الببغاء، في كل صباح تأتي مبكرة جدا فتعلقه على حائط الشرفة، وفي المساء، تأتي لتأخذ الطائر العزيز قبل أن تعود إلى بيتها).

- نعم ، لقد بدأ يأتي إلى هنا منذ ثلاثة أشهر..

- جميل أن يكون هناك شخص كهذا يأتي لرؤيتك دائما.. ويعود ..

واختفت البحيرة الصغيرة تحت غطائها: لوتس أحمر ، ولوتس أبيض، نباتات مائية صغيرة.

ومن الشرفة شوهدت الأسماك البلطي التى تسبح، ونقر الببغاء بعض القشور، ورفع رأسه وتفكر، ودمدم، ثم أطلق القشور في الهواء وبدأ من جديد.

امرأتان عجوزان وببغاء.. هذا كل شيء؟ كلا! هناك أيضا فوق غصن شجرة الصفصاف صرصور ترك غنيمته قبل قليل وجعل يستريح فوق الغصن، ينتظر، يكسوه درعه النحاسي اللون، ينظر إلى اليوم

الجديد في هذه الحياة الجديدة، وفرد جناحيه الشبيهين بالدنتيلا الخضراء، وجحظ عينيه الحمراوين، وتحول لون جناحيه في الشمس فأصبحا سمراوين نحاسيين مثل بقية جسمه، واعتادت عيناه النهار، وجعل يعد لحظاته الثمينة، ويكتم فرحته.

كانت بعض الصراصير الأخرى تغني حول البحيرة، كانت كثيرة العدد، وفجأة أحدثت ضوضاء عالية أشبه بوابل من المطر.

صعدت مدام ميزونو السلم الذي يفضي إلى المعرض وطوت مظلتها، هناك مدخل للخدم، ومنذ ركب جهاز التكييف أصبح من المعتاد الدخول من المدخل الكبير، فنعبر قاعة المعرض وننتعش قبل أن ننزل إلى صالون الشاي، الحمد لله! لا يوجد حارس عبوس يرمقك بنظرة استهجان كما يحدث في معرض المدينة.

منذ ثلاثة أو أربعة أيام وشيء ما يشغل اهتمام مدام ميزونو، في ذلك اليوم، كما في الأيام السابقة، تقدمت مدام ميزونو نحو الواجهات الزجاجية (الفترينات) وحرصت على ألا تحدث أية ضوضاء أثناء سيرها.

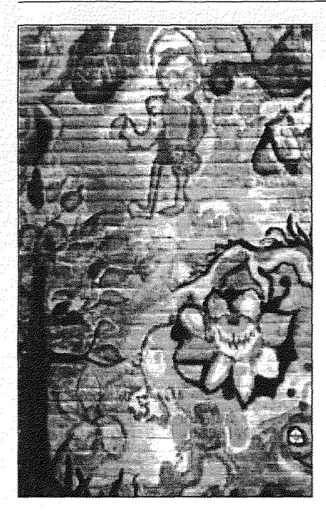
وابتسمت مدام ميزونو للوجه الخزفي الوردي.

وابتسم الوجه الخزفي الوردي لمدام ميزونو.

هذه الأشكال الصغيرة، بطبيعة الحال، لا ترجع إلى اليوم، بل ولا حتى إلى هذا القرن العشرين، في الأصل، كانت مخصصة لصاحبة الذين ينتقلون إلى العالم الذي لا يعودون منه، واعتقدت مدام ميزونو أن هذه الابتسامة تعبر بوجه خاص عن الرضا من أداء الواجب، وهذا الوجه يمكن أن يعود إلى فتاة في السابعة عشرة من عمرها، كما يمكن أن يعود إلى سيدة تبلغ نيفاً وثلاثين عاما.

فسألته مدام ميزونو :

- وما الذي يجب أن أفعله ؟



وكررت مدام ميزونو السؤال مرة أخرى.

لكن عيني التمثال الغائرتين وفمه ذا التعبير العذب الذي كان يبدو دائما على أهبة الاستعداد للرد، لم يفعل من ذلك شيئا.

- أخبرني، ماذا ينبغي أن أفعل؟

ولم تشاهد مدام ميزونو وجهها الذي كان ينعكس في الواجهة الزجاجية ، هل هي قامت بجميع واجباتها نحو زوجها الراحل؟ بماذا يجب أن ترد على هذا الرجل الآخر الذي ظهر في حياتها؟ ذلك ما تود مدام ميزونو أن تعرفه.

لكن التمثال الخزفي الوردي، الوجه الخزفي، اكتفى بالابتسام، وسرعان ما تعيّن على مدام ميزونو النزول إلى صالون الشاي ■

المؤرخ والعالم الاجتماعي «مكسيم رودنسون» ونموذج مختلف للاستشراق

□ رحل يوم ٣ ربيع الآخر الماضي (٢٢/٥/٢٠٠٤م) في مرسيليا بجنوب فرنسا، العالم والمستشرق الفرنسي البارز «مكسيم رودنسون» عن ٨٩ عاما، أمضى معظمها في البحث والتنقيب العلمي واسع الأفق، خصوصا فيما يتعلق بمنطقتنا ومحيطها والقضايا العربية والإسلامية، برؤية اجتماعية/ تاريخية أكثر عدلا وحيادية.

ومكسيم رودنسون الذي كان يقرأ اللغة العربية ولهجاتها القديمة بسهولة، كان يمتلك أيضا زهاء ثلاثين لغة أخرى، من اللغات الحية والميتة، بما في ذلك لغات جنوب الجزيرة العربية القديمة (سبأ وحمير) ولغات القرن الإفريقي، بما في ذلك لغات أثيوبيا القديمة، التى كانت اختصاصه الأول كأستاذ في كلية الدراسات العليا في باريس. وحتى اللغة المالطية، التى لا يتجاوز أهلها اليوم الأربعمئة ألف نسمة، والتى كان يشير فيها رودنسون إلى كثرة الكلمات ذات الجذور العربية، كما كان رودنسون يجيد بالطبع عددا من اللغات الأوروبية الحية، وهو بذلك كان موسوعي الإطلاع والمعرفة، ومن الحالات القليلة بين المستشرقين الغربيين الذين لم تكن تلوثهم الخلفيات الاستعمارية لعلم الاستشراق، وقد أنصفه العلامة الفلسطيني الراحل إدوارد سعيد في كتابه الشهير «الاستشراق» على هذا الصعيد.

ذلك أن مكسيم رودنسون كان ماركسي التكوين الفكري والثقافي منذ شبابه المبكر، فهو ولد في باريس في العام ١٩١٥م لوالد من أصول روسية هاجر إلى فرنسا، وقضى هو وزوجته، والدة مكسيم، إبان الحرب العالمية الثانية، في معسكرات النازية، لكونهما في آن واحد شيوعيين ومن أصول يهودية، فقد انتمى رودنسون الشاب عام ١٩٣٧م الى الحزب الشيوعي الفرنسي، وبقي عضوا فيه زهاء العشرين عاما، حيث انقطعت علاقته بالحزب إثر تدخل القوات السوفيتية في المجر في أواخر العام ١٩٥٦م لضرب حركة التمرد القومي هناك. وكان الحزب الشيوعي الفرنسي، آنذاك في أوج نفوذه بعد أن خرج من الحرب العالمية الثانية مكللا بدوره البارز في مقاومة الاحتلال النازي لفرنسا.

الماركسي المستقل:

وهكذا غادر رودنسون الحزب الشيوعي حين كان الحزب في أوج نفوذه، فتعرض كما غيره من المثقفين الذين غادروا الحزب في تلك الفترة لحملة عنيفة ضده استمرت سنوات، ثم عادت الأمور بعد ذلك، إلى علاقة أهدأ، وسعت قيادة الحزب في أواخر الستينيات الى إعادة العلاقة مع رودنسون من خلال إشراكه في عدد من الفعاليات والهيئات الثقافية القريبة من الحزب. لكن مسألة استعادة العضوية في الحزب لم تعد مطروحة لدى رودنسون، الذي انكب على العمل البحثي والدراسي معتبرا نفسه - على حد تعبيره - «ماركسيا مستقلا». وبالفعل انطبعت أعمال رودنسون الفكرية كلها وممارساته السياسية في الإطار الفكري والمبدئي بهذه السمة. حيث بقي وفيا لأفكار ماركس الجوهرية ونهجه التحليلي، كما بقي صاحب مواقف مستقلة يحددها ضميره وقناعاته النابعة من هذا الفكر ومن رؤيته للعالم وقضاياه الرئيسة، وبما أنه من أصول دينية يهودية ويعمل في مجال الاستشراق فقد اهتم مبكرا بقضايا منطقتنا، ولا سيما الصراع العربي - الإسرائيلي. وكان يروى أن والديه اليساريين كانا مناهضين للحركة الصهيونية، التى كانت تلقى معارضة واسعة في أوساط اليهود في أوروبا الغربية في الثلث الأول من القرن العشرين، لأسباب متعددة، منها الانتماءات اليسارية بالنسبة للبعض، والرغبة في تدعيم الاندماج في مجتمعات الغرب الأوروبي وعدم الظهور كأصحاب مشروع خارجي بالنسبة للبعض الآخر، أو الخلفيات الدينية التى كانت ترى في المشروع السياسي والصهيوني تعارضا مع

د. عز الدين المفلح

سوريا

المفاهيم الدينية التقليدية (وهو الموقف الذي مازالت تعبر عنه تيارات يهودية دينية مثل جماعة ناطوري كارتا، التى ترفض، حتى الآن، الاعتراف بوجود ومشروعية دولة «اسرائيل» حتى بالنسبة لأعضائها المقيمين في القدس الغربية، وبقي التيار السياسي الصهيوني أقلية في أوساط اليهود في أوروبا الغربية حتى وصول أدولف هتلر الى السلطة في ألمانيا في العام ١٩٣٣م وحملات التمييز والاضطهاد التى مارسها بحقهم بعد ذلك ولا سيما خلال الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م ومن هذه الزاوية اعتبر رودنسون إن مشروع هتلر العنصري تجاه اليهود في المانيا، وأوروبا التى احتلها، صب لمصلحة تدعيم نفوذ الحركة الصهيونية السياسي في أوساط اليهود الأوروبيين.

وهكذا كان رودنسون ذو الأصول الروسية العمالية (والده كان عاملا في مشاغل الخياطة)، ماركسيا أولا، ومواطنا فرنسيا يحمل أفكارا أممية وإنسانية ثانيا. ورغم تركيزه على العمل البحثي الفكري، لم يكن ليبقى بمنأى عن تحديد المواقف تجاه قضايا العصر الحارة، من حرب التحرير الجزائرية، التى ناصرها، الى الصراع العربي - الاسرائيلي الذي اتخذ منه موقفا مبدئيا مناهضا للصهيونية وداعما لحقوق الشعب الفلسطيني الوطنية، مع حرص شديد على استقلاليته الفكرية الشخصية، من جهة، أي تفادي الظهور بمظهر «العميل للعرب» في مواجهته الفكرية للصهيونية،

وعلى أممية وإنسانية الحل المنشود للصراع الفلسطيني والعربي ـ الإسرائيلي.

وعندما شارك رودنسون في أيار ١٩٦٦م في ندوة سياسية نظمها الاتحاد العام لطلبة فلسطين في إحدى قاعات العاصمة الفرنسية باريس في ذكرى «النكبة»، مؤكدا على مواقفه المناصرة للحل العادل للمسألة الفلسطينية والمناهضة للصهيونية ، تعرض هو وآخرون شاركوا في هذه الندوة، التى غطت وقائعها بعض الصحف الفرنسية لحملة صحافية وإعلامية شرسة من قبل الأوساط الصهيونية وأنصارها، التى وصفته بتعابير مقذعة بـ «اليهودي الكاره لنفسه».

وكان المناخ السائد في فرنسا آنذاك، مناخا مناصرا لـ «اسرائيل» في معظم الأوساط والتيارات السياسية ووسائل الإعلام، باستثناء الشيوعيين والماركسيين وقلة من المهتمين بالشأن العربي من المثقفين أو الدبلوماسيين السابقين الذين نشأوا أو عملوا في المنطقة العربية. لكن رودنسون الذي أزعجته هذه الحملة على الصعيد الشخصي، لم تتأثر مواقفه بها، بل عاد وكررها في مناسبات عدة، ولا سيما بعد حرب العام ١٩٦٧م.

وكان جان بول سارتر قد عكف منذ العام ١٩٦٥م على التحضير لعدد خاص من مجلته الدورية الفكرية الثقافية «الأزمنة الحديثة» يتناول الصراع العربي ـ الاسرائيلي، وكان موقف سارتر من هذا الصراع ملتبسا وتشوبه اعتبارات عاطفية كما قال هو نفسه في مقابلة معه نشرت في أحد الأعداد الأولى من مجلة «شؤون فلسطينية» الصادرة منذ مطلع السبعينيات الماضية عن مركز الأبحاث الفلسطيني في بيروت، وقد شاء سارتر أن يعطي الكلمة في العدد الخاص من مجلته لكلا الطرفين، الإسرائيلي والعربي، وتأخر مشروع هذا العدد الخاص لفترة، خاصة بسبب الخشية الفلسطينية من طغيان الرأي الصهيوني، حيث كان مدير تحرير المجلة، جاك لانزمان، من الفرنسيين القريبين من الحركة الصهيونية و«اسرائيل»، الى أن انتهى العدد الخاص بالصدور في أواسط العام ١٩٦٧م، ولقي رواجا بسبب الحرب التى أعادت تذكير العالم الخارجي، على نطاق واسع بسخونة الصراع العربي ـ الإسرائيلي.

وكان مكسيم رودنسون المشارك الوحيد في هذا العدد من غير العرب والإسرائيليين والصهاينة، بمقال طويل حمل عنوان «اسرائيل: واقع استعماري؟»، وهو مقال صدر لاحقا ككتاب مستقل وترجم الى عدة لغات، بما فيها العربية، وكانت إجابة رودنسون في مقاله على علامة الاستفهام في العنوان لا تحتمل اللبس، حيث أكد كون «اسرائيل» واقعا استعماريا، مع التأكيد في الوقت ذاته على أن أي حل للصراع لا يمكن أن يقوم على أساس علاج مشكلة سياسية وإنسانية وبشرية بخلق مشكلة جديدة، في وضع تعيش مثله بلدان أخرى في العالم الثالث كانت تضم كتلا بشرية ناجمة عن الغزو الاستعماري، مثل جنوب افريقيا. ومع الموقف القوي المنتقد لـ «اسرائيل» الذي اتخذه الرئيس الفرنسي شارل ديغول إزاء مبادرة الدولة العبرية لشن الحرب على الدول العربية في حزيران ١٩٦٧م، ومع صعود المقاومة الفلسطينية واحتلالها لمساحة متزايدة من الاهتمام السياسي والإعلامي العالمي، لا سيما بعد

معركة الكرامة في آذار ١٩٦٨م، ثم سيطرة القوى الفدائية على منظمة التحرير الفلسطينية في العام اللاحق، تغير المناخ الى حد كبير في فرنسا، كما في العديد من دول أوروبا والعالم، وبشكل مطرد.. وبات اسم فلسطين معروفا بعد أن كان مجهولا الى حد كبير من الجمهور الواسع في بلدان العالم قبل هذه الحرب.

وهذا ما جعل موقف مكسيم رودنسون أقل صعوبة على المستوى الشخصي، وجعل كتاباته في الشأن العربي ـ الإسرائيلي أكثر رواجا في فرنسا والعالم الغربي عموما، وشارك رودنسون مع عدد من المستشرقين الآخرين، مثل جاك بيرك، وعدد من المهتمين بالشأن العربي، خاصة من أنصار النضال التحرري لشعب الجزائر، شارك في تأسيس «جماعة البحث والعمل من أجل فلسطين» التى كانت تعقد ندوات وتصدر نشرات توضيحية حول الوضع الفلسطيني والصراع في منطقتنا في السنوات الأولى التى تلت حرب ١٩٦٧م.

وفي وقت لاحق، ولا سيما بعد الثورة الإيرانية في العام ١٩٧٩، أصدر رودنسون كتبا ومقالات عديدة عن الإسلام والحركات الإسلامية ونظرة البلدان الغربية له ولها.

وفي تراثه التأليفي الواسع منذ مطلع ستينيات القرن الماضي، يمكن الإشارة الى كتابه الذي ترجم الى العديد من لغات العالم عن النبي العربي سيدنا محمد {صلى الله عليه وسلم}، الذي صدر عام ١٩٦١م، ثم في أواخر الستينيات كتاب «الإسلام والرأسمالية» وكتاب «اسرائيل» والرفض العربي: ٧٥ عاما من التاريخ، ثم كتاب «الماركسية والعالم الإسلامي» في العام ١٩٧٢م، وكتاب «العرب» في إحدى موسوعات دور النشر الإيرانية كتاب «جاذبية الإسلام» عام ١٩٨٠م وكتاب «شعب يهودي أم مسألة يهودية؟ في العام ١٩٨١م، و«الإسلام: سياسة وعقيدة عام ١٩٩٣م» و«من بيثاغوروس إلى لينين» في العام ذاته، وكتب ومقالات عديدة أخرى أصدرها أو كانت نتاج حوار طويل معه، ككتاب «بين الإسلام والغرب» عام ١٩٨٨م.

وإثر وفاته كتب عنه المثقف والمناضل الجزائري محمد حربي، القيادي السابق في جبهة التحرير الوطني الجزائرية، في صحيفة «لوموند» الفرنسية: «يقول مات مكسيم رودنسون، ولكن ليست أعماله، وهذه الأعمال الغنية والمنفتحة والراهنة والدائمة في آن واحد، لن تبقى رهينة غبار المكتبات والنقد القارض للفئران، وهي تبقى إسهاما مهما يغني الحركة التقدمية العربية».

ومهما كان رأينا في أفكار وتحليلات رودنسون، ويمكن الاتفاق معها أو مع معظمها والاختلاف مع بعضها، وهذا من طبيعة الأمور، فإن ما لا يمكن إنكاره أن هذا الرجل الذي نشأ في بيئة يسارية ويهودية الأصل الديني ولكن معارضة للصهيونية في آن واحد، شكل علامة مهمة في مسار الدراسات الاجتماعية ـ التاريخية والسياسية العالمية الجادة، عن العالم العربي وخدمة المشاريع الاستعمارية، التي ميزت العديد من الكتابات الاستشراقية، كما أبرز مثقفنا اللامع الراحل إدوارد سعيد في كتاباته الشهيرة.. ولا سيما «الاستشراق» و«الثقافة والامبريالية» ■


٤١

الفرق بين الدعاء والنداء

□ *الحمد لله، وصلى الله على سيدنا محمد ومن والاه، ومن أراد لهذه الأمة التيقظ والانتباه وبعد: فالدعاء مُخ العبادة، أو هو العبادة (١) ولذلك فنحن من الواجب علينا أن نكثر من الدعاء، وننادي ربنا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يرحمنا وأن يغفر ذنوبنا، وأن يستر عيوبنا، قال ابن حجر في فتح الباري شرح صحيح البخاري: وقد تواردت الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم بالترغيب في الدعاء والحث عليه كحديث أبي هريرة رفعه (ليس شيء أكرم على الله من الدعاء) أخرجه الترمزي، وابن ماجه، وصححه ابن حبان، والحاكم، وحديثه رفعه (من لم يسأل الله يغضب عليه) أخرجه أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، والترمذي، وابن ماجة، والبزار، والحاكم.(٢)*

وقد جاءت كثير من الآيات في القرآن الكريم فيها الدعاء كما فيها النداء، وقد قرأت هذه الآية من سورة البقرة: {ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداءً} (٣) فقلت لابد أن هناك فرقاً بين الدعاء والنداء، لأنه عطف النداء على الدعاء، والعطف يقتضي المغايرة، فما الفرق بينهما؟ أقول:

الفرق بين الدعاء أو الدعوة والنداء: أن الدعوة تقتضي حضور المدعو إلى الداعي، أو تقتضي الاستجابة، بخلاف النداء، فقد لا يقتضي شيئاً من ذلك، (٤) يدلك على ذلك قوله تعالى: {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم} (٥) فجعل جواب الأمر (ادعوني) الاستجابة (أستجب لكم)، وقال تعالى {وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي} (٦) فالكفار دعاهم الشيطان ليغويهم فاستجابوا، فالفاء للتعقيب، أي استجابوا دون أدنى تريث أو تفكير، وقال الله تعالى {فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً} (٧) فالله تعالى استجاب دعاء نوح – عليه السلام– وقال جل جلاله {يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم} (٨) وهنا قدم الاستجابة على الدعاء، وقال تعالى {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان} (٩) وأما النداء فلا يشترط فيه حضور ولا استجابة لذات النداء، مثل قوله تعالى {والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد} فهم بعيدون، وهم أيضاً لا يسمعون لأن في آذانهم وقراً، وهو عليهم عمى، ومثل قوله تعالى {ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون} (١٠) ولم يجب الكفار بشيء.

وقال تعالى: { ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بُنَيَّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء} (١١) فهنا حصل جواب وحضور.

فإذاً كلمة (نداء) لا تقتضي الحضور، كما لا تقتضي الاستجابة من طبيعة الفعل، كمن ينادي الليل أو المطر، كقول الشاعر:

ألا أيهـــا الليل الطويل ألا انجلي
بصبح وما الإصباح فيك بأمثل (١٢)

وقوله:

ســـلام الله يا مطر عليـــهـــا
وليس عليك يا مطر الســـلام (١٣)

ومثل قوله تعالى: {ونادى فرعون في قومه قال يا قومي أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي} (١٤) فلا يشترط في هذه حضور ولا استجابة والله أعلم.

وقد تأتي الدعوة بمعنى النداء، فلا تقتضي ذلك، قال تعالى {ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم} (١٥) أي فنادوهم.

كما قد يتضمن النداء الدعوة أو الدعاء، فيقتضي الاستجابة، أو الحضور مثل قوله تعالى {وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له} (١٦) فالنداء هنا دعاء، أي دعا ربه، وهكذا كل نداء كان المقصود منه الدعاء، قال تعالى: {ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له} فهو دعاء {وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين} (١٧) والله أعلم (١٨)

وهناك فرق بين الدعاء والنداء من وجه آخر، وهو أن النداء رفع الصوت بما له معنى، والعربي يقول لصاحبه: ناد معي ليكون ذلك أندى لصوتنا: أي أبعد له قال ربيعة ابن جشم:

فـــقلت أدعي وأدعـــو إن أندى
لصـــوت أن ينادي داعـــيـــان (١٩)

أما الدعاء فيكون برفع الصوت وخفضه، يقال دعوته من بعيد، كما يقال دعوت الله تعالى في نفسي. ولا يقال ناديته في نفسي (٢٠).

(قلت) هل قوله تعالى {فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين} (٢١) كان برفع



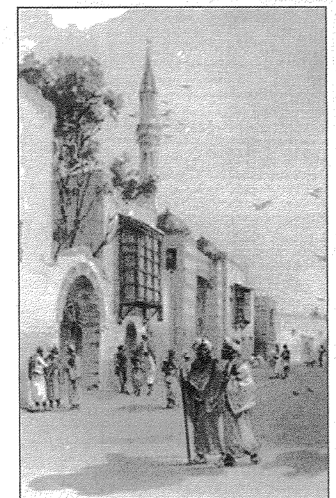
أ.د. ياسين بن ناصر الخطيب
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

الصوت؟ أو قوله تعالى {إذ نادى ربه نداءً خفياً} (٢١) وقد أخرت هذا لأني أرى عليه ملاحظة والله أعلم ■

الهوامش :

(١) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الدعاء هو العبادة:، ثم قرأ {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} قال: هذا حديث حسن صحيح. سنن الترمذي ٥ / ٢١١ صحيح ابن حبان ٣ / ١٧٢ سنن أبي داود ٢ / ٧٦.
(٢) ١١ / ٩٤
(٣) ١٧١ البقرة.
(٤) هذا فهم فهمته لم أنقله من كتاب. والله أعلم.
(٥) ٦٠ غافر
(٦) ٢٢ الحج.
(٧) ١٠ القمر.
(٨) ٢٢ الأنفال.
(٩) ١٨٦ البقرة.
(١٠) ٤٨ الأعراف.
(١١) ٤٢ هود.
(١٢) سر صناعة الإعراب ج: ٢ ص: ٧٧٤ .
(١٣) قال في أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ج: ٤ ص: ٢٨: الرابع: ما يجوز ضمه ونصبه وهو المنادى المستحق للضم إذ اضطر الشاعر إلى تنوينه كقوله: سلام الله يا مطر عليها.
(١٤) ٥٤ الزخرف.
(١٥) ٥٢ الكهف.
(١٦) ٨٣ الأنبياء.
(١٧) ٨٧ – ٨٨ الأنبياء.
(١٨) لم أنقله ولكن فهمته من الآيات: لكن سيأتي النقل آخراً.
(١٩) المفصل في صنعة الإعراب ج: ١ص: ٣٢٧
(٢٠) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ٢٦ .
(٢١) تقدمت.
(٢٢) ٣ مريم.





□ **من بين ما ورد في محكم التنزيل في وصف الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ (سورة الشورى/ الآية ٣٨) وأمر المولى عز وجل نبيه الكريم بالشورى ﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ (سورة آل عمران/ الآية ١٥٩)**

والجاحظ يقول: من شاور الناس شاركهم عقولهم، ومن الشائع: ما خاب من استشار، وحسان بن ثابت يقول:

إذا كنت في حاجة مرسلاً
فأرسل حريصاً ولا توصه
وإن باب أمرٍ عليك التوى
فشاور لبيباً ولا تعصه

وفي بعض الروايات "حكيما" ولا تعصه..

الخل الوفي

عنقاء هذا العصر

وغير ما تقدم كثير.. وإني لأعجب كيف يركب بعض العقلاء رؤوسهم ولا يفيقون على خطئهم -الذي قد يكون جسيماً في بعض الأحيان- إلا بعد فوات الأوان وكان يمكنهم أن يتفادوا ما حصل لو ترجلوا عن صهوة كبريائهم واستشاروا أهل الرأي والخبرة.

وصدق الشاعر "القطامي" حين قال:

قدّر لرجلك قبل الخطو موضعها
فمن علا زلقاً عن غرة زلجا

ولاشك أن المشورة هي جزء من التقدير الذي عناه الشاعر بكل تأكيد.

* الشاعر الشعبي عبدالرحمن الأبنودي يفتخر أنه شاعرٌ قوّال لأن الأصل في الشعر -كما يرى الأبنودي- أن يقال لا أن يُقْرأ وما الكتابة إلا لحفظه.. هذا الكلام يتفق مع ما يقوله الأستاذ حكمت الخطيب من أننا نبدع النصوص حين نقرأها ونحن بالقراءة نقيم حياة النصوص أو نشهد على موتها.

* يقول ابن الرومي:-

فكثّر من الإخوان ما استطعت فإنهم
بطون إذا ما استنجدتهم وظهورُ
وليس كثيراً ألف خل وصاحب
وإنّ عدواً واحداً لكثيرُ

فيما لأبي فِراس الحمداني رأي آخر إذ يقول:-

وإنّ الذي يبقى على العهد منهم
وإن كثرت دعواهم لقليل



يوسف أبو عواد

الرياض

أقلب طرفي لا أرى غير صاحبٍ
يميل مع النعماء حيث تميلُ

وهذا أحمد شوقي لام نفسه عندما قرّب أصدقاءه على حساب كتبه:-

أما من بدل بالكتب الصحابا
لم أجد لي وافياً إلا الكتابا
صاحب إن عبته أو لم تعب
ليس بالواجد للصاحب عابا
كلما أخلقته جددني
وكساني من حلى الفضل ثيابا

وللمعتمد بن عباد الأندلسي في هذا رأي يقول فيه:-

وزهدني في الناس معرفتي بهم
وطول اختباري صاحباً بعد صاحب
فلم ترني الأيام خلا تسرني
مباديه إلا ساءني في العواقب
ولا قلت أرجو لدفع ملمة
من الدهر إلا كان إحدى النوائب

حتى إن المتنبي قال ذات مرّة:-

وصرت أشك فيمن أصطفيه
لعلمي أنه بعض الأنام
خليلك أنت لا من قلت خلي
وإن كثر التجمل والكلام

وأبو القاسم الشابي في هذا يبدو مجاملاً إذ يقول:

وإذا ما استفزني عبث الناس

تبسمت في أسى وجمود

فيما يذهب أسامة بن مرشد إلى أبعد من ذلك قائلاً:

إذا جرحت مساويهم فؤادي

صبرت على الإساءة وانطويت

ورحت إليهم طلق المحيّا

كأني لا سمعت ولا رأيت

وبعيداً عن الشعر شغل موضوع الأصدقاء بال الكثيرين ففكري أباظة باشا يقول: كن صديقاً ولا تطمح أن يكون الآخر لك صديقاً.

وحسن بن عبدالله آل الشيخ يقول: الاحتفاظ بالأصدقاء أصعب من العثور عليهم.

ويوسف السباعي يقول: ليس أسوأ من قدرة العدو سوى عجز الصديق والإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول: "خير الأصدقاء من أقبل إذا أدبر الزمان عنك"..

وقد لا يكون مبالغاً أحدهم حين كتب إلى صديقه يقول: فجيعتي في صداقتك ليست أقل من فجيعة السابقين الذين اكتووا بنار الأصدقاء فأحياناً يأت من الصديق ما لا يتوقع من الأعداء، أو كما قال الشاعر:

ومن العداوة ما ينالك نفعه

ومن الصداقة ما يضر ويؤلم

إلا أن هذا لا يمنع من القول أنه رب أخ لك لم تلده أمك!! مع القناعة بأن الخل الوفي ثالث المستحيلات بعد الغول والعنقاء!!

* قيل كان يجلس إلى أبي يوسف القاضي رجل فيطيل الصمت ولا يتكلم، فقال له أبو يوسف يوماً:- ألا تتكلم؟ فقال بلى، متى يفطر الصائم؟ قال: إذا غابت الشمس، قال: فإن لم تغب إلى نصف الليل، كيف يصنع قال: يواصل صيامه حتى تغيب الشمس!!.. فضحك أبو يوسف وقال: أصبت في صمتك وأخطأت أنا في استدعائي نطقك وأنشد:-

وفي الصمت ستر للغبي وإنما

صحيفة لب المرء أن يتكلما

* جاء في دراسة نشرت مؤخراً أن واحداً من كل اثنين من الألمان يتبرع للأعمال الخيرية وأن نسبة الألمان المتبرعين للأعمال الخيرية بلغت ٥٠٪!!

* يقال عن صوت الحصان صهيل والحمامة هديل والكلب نباح والقطة مواء والأسد زئير والديك صياح والذئب عواء والثور خوار والضفدع نقيق والحمار نهيق..

* ترقيم البيوت نظام أول من أوجده نابليون بونابرت حيث أدخله إلى فرنسا ثم في كل بلد احتلها. وهو الذي قرر أن تكون الأرقام الزوجية من جهة اليمين والفردية من اليسار.

* هم زيد بن ثابت (رضي الله عنه) كاتب وحي النبي صلى الله عليه وسلم بركوب دابته، فوقف عبدالله بن عباس (رضي الله عنه) بين يديه آخذاً زمام دابته، فقال له زيد: دع عنك يا ابن عم رسول الله. فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا

فقال له زيد: أرني يدك.. فأخرج عبدالله بن عباس يده فمال عليها زيد وقبلها قائلاً:- هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا صلى الله عليه وسلم.

* بيت الشَّعَر تسميه العرب بيت العزّ لأن صاحبه إن نزل أرضاً طالته فيها مهانة هدّ بيته وطواه على ظهر بعيره ورحل بعزته في أرض الله الواسعة..

وما يقال عن بيت الشَّعر يقال عن الخيمة، وفي ذلك يقول: تاج المعالي- شكر بن أبي الفتوح الحسن بن جعفر:-

قوض خيامك عن أرضٍ تضام بها
وجـانب الذُلّ إن الذُلّ يُجْـتَنَبُ
وارحل إذا كان في الأوطان منقصةً
فالصندل الرطب في أوطانه حطبُ

لكن ماذا نعمل يا تاج المعالي إن كانت بيوتنا كتلاً خرسانية وضعنا فيها كل مدخراتنا وما نزال نسدد كمبيالات ديونها؟!!

* الزوجة: هل يبدو عليّ أنني في سِن الثلاثين؟!

الزوج:- كلا يا عزيزتي.. فلقد كان هذا في زمن بعيد!!..

شيء من الصراحة

في زمن -المجاملات- الموهبة وحدها لا تكفي والتجربة والخبرة هي الأخرى لا تسقي صاحبها شربة ماء فمن لا يملك (اسماً).. من ليس له (عماً)... فليذب موهبته وتجاربه وخبراته في كأس ماء ويشربه على -الريق- فقد يصلح وصفة عربية لنزلة معوية...

فالشعر يظل مجرّد كلام.. لا يستحق النشر ولا حتى الاستماع إليه.. ولا يعيره النقاد أدنى اهتمام إن هو جاء من شخص مجرد من الألقاب.. إنه مجرّد كلام فارغ... لا يصح أن يسمى شعراً أما إذا ذيل بذلك الاسم الكبير.. حتى لو كان المستوى أقل بكثير.. صار الغث سميناً، والركيك رصيناً.. وتهافت الناشرون وتملق المخرجون وتزاحمت قراءات ورياءات النقاد على صفحات الجرائد لكيل المديح لذلك العمل الخلاق والإبداع غير المسبوق.. حصل ذلك مع شعراء مشهورين رُفضت أشعارهم في البداية ما اضطر بعضهم للكتابة باسم مستعار أو أن ينشر إنتاجه بالتبني لأب غير شرعي وغير الشعراء هناك الكثير من الأدباء العرب والعجم لم تكن بداياتهم مشجعة لولا الجلد والمثابرة.. فـ"أجاثا كرستي" روايتها الأولى "القضية الغامضة في ستايلز" رفضتها دار النشر.. و"أجاثا كرستي" هي نفسها بعد ذلك التي منحتها جامعة اكستر البريطانية درجة الدكتوراه في الأدب رغم أنها تقول وبعظمة لسانها في مذكراتها أنها لم تدخل المدرسة وكل ما تعلمته كان في البيت على يد أمها، وبيع لاحقاً من رواياتها ومؤلفاتها مئة مليون نسخة وترجمت إلى مئة لغة (منها العربية).

إنني أزعم أن المتنفذين في عالمنا العربي قد شوهوا كثيراً صورة الفن والإبداع. وأصبح عالم الكتابة كالسياسة تحركه المصالح والمصالح وحدها وقبل كل شيء.

ترى متى يتنازل بعض من أخذوا كفايتهم من الشهرة والمال متى يتنازل بعض هؤلاء الفرسان لأولئك المبدعين المغمورين الذين يحلمون في حزمة ضوء أو قطرة ماء!! ■


٩٢

من زائرات البيت الحرام في موسم الحج

□ حفظ التاريخ أسماء عزيزة لسيدات فُضليات كانت زيارتهن لبيت الله في موسم الحج مصدر خير ويمن. لأن الشعور الديني النبيل قد حملهن على أن تكُن ذوات أثر طيب يبقى حديث الأجيال من بعدهن. والمرأة إذا كانت مؤمنة صادقة الإيمان، ووجدت في يدها سعة من الرزق فإن عاطفتها الدينية تدفعها إلى أن تقوم بما يُشبع هذه العاطفة برا وفضلاً، وبعض الكاتبين من المؤرخين لا يروق له أن يتحدث عن هذه المآثر، دون أن يعقب عليها بما يحسبه تحليلاً نفسياً لإرضاء النزعات الشخصية، ومرحبا بهذه النزعات الشخصية إذا أثمرت خيرها في حقل المعروف. فآتت كل لون بهيج، وخير لنا أن نبارك هذا التيار ليكون قدوة دائمة للخالفين من السالفين من أن تظهر البراعة في تسجيل مبررات لا نملك دليلها الأكيد إن الواقع المشهود يسجل أن بعض الفضليات قد قمن بمآثر جليلة، أدت إلى خير العامة، وأرسلت الألسن بالدعاء، ومن حق هؤلاء على التاريخ أن يرصد ما فعلنه ابتغاء مرضات الله، مما تردد صداه في الصفحات على ممر الأعصار.

وواضح أني لا أحاول حصر هؤلاء الفُضليات. فهذا ما لا يقوم به فردٌ واحد. أو يستقل به كتاب مفرد، ولكني أضرب الأمثلة مما قرأت متذكراً قول القائل

وإذا فاتك التفات إلى الماضي
فقد غاب عنك وجهُ التأسّي

زوج المهدي

وأول ما أذكر من هؤلاء الفضليات الخيزران زوج أمير المؤمنين المهدي الخليفة العباسي. فقد كانت سيدة جليلة القدر في قصر الخلافة أيام المهدي، وكان لها رأيها الحاسم في تصريف كثير من الأمور إذ كان زوجها الخليفة يرجع إليها مستشيراً فمنفذاً ما توحى به، وقد سجلت في صحيفة أعمالها طرائف زاكية من أعمال البر تتجه إلى إنشاء المساجد، ورعاية الأيتام ثم رأت أن تحج بيت الله الحرام فتهيأ لها من الموكب الحاشد ما يناسب قدرها العظيم زوجاً لأمير المؤمنين، وقد

حملت من بغداد من طرائف الغذاء والكساء وبدرات المال، ما كان حديث الرائح والغادي في الموسم المشهود، ثم بدا لها أن تقوم بعمل تاريخي، يضمن لها حُسن الأحدوثة، إذ سألت عن دار الأرقم بن الأرقم المخزومي وهي أول دار اجتمع فيها المسلمون لأداء الصلاة بعيداً عن أنظار المتربصين، وكانت تعلم أن أبا جعفر المنصور اشتراها من حفدة الأرقم بمالٍ كثير بذله في إرضائهم كي يتنازلوا عنها، ولكنها بقيت على حالها دون عمارة ما، في عهد المنصور، فأرادت أن تحلها المحل اللائق بمنزلتها كأول معهد ديني في الإسلام فاشترت ما حولها من الدور، وأحاطتها بسور متين، وقد كتب اسمها في لوحة تسجل مأثرتها، فكان الناس فيما بعد يسمونها دار الخيزران، ثم توالى تجديدها من بعد ذلك.

وحين تركت الخيزران مكة قاصدة المدينة المنورة لزيارة صاحب الروضة الشريفة صلى الله عليه وسلم، رأت أن تكسو الحجرة الطاهرة بستائر حريرية مرصعة بالألوان الزاهية، وهي أول من كسا الحجرة الشريفة، وفرقت كثيراً من الصدقات بهذه المناسبة، وأرضت شعورها الديني بما قامت به في مكة والمدينة من أعمال.

أ. د. أبو حسام

المنصورة - مصر

أميرات كريمات

لا تُعنى كتب التاريخ العام كثيرا بتسجيل رحلات الحاجات والحاجين إلى بيت الله، وبذلك ضاع المفيد الجيد من أخبار هذه الرحلات، ولكن كتب الرحلات قد أنقذت من الضياع مواقف نبيلة لمن تكبدن المشاق في سبيل الله سعياً وإنفاقاً وبذلاً للمعروف. وقد تحدثت رحلة ابن جبير الأندلسي فيما تحدثت عن ثلاث سيدات كريمات من البيت السلجوقي الشهير، قمن بالحج أثناء مقدم ابن جبير، فكشف عن مآثر فاضلة قمن بها عن أريحية ماجدة، وتقى عظيم هن الملكة خاتون بنت الأمير مسعود السلجوقي. والأميرة أم عز الدين صاحب الموصل، والأميرة ابنة الدقوس صاحب أصبهان، وكلهن صاحبات فضل غامر. ومنافسة كبيرة في أعمال البر، ويقول صاحب الرحلة (١): إن شأنهن جميعا عجيب فيما قمن بسبيله من أعمال الخير.

أما الملكة خاتون فقد كانت في مفتتح شبابها، ولكنها ذات صلاح وإيمان، فقد حرصت على أن تصلي بين القبر والمنبر، ومن فوقها المحفة المانعة لرؤية الناس لصلاتها، والعامة يتزاحمون على مشهدها ومقامع الحراس تدفعهم عن ساحتها. ثم مشت إلى الجهة الغربية من الروضة المكرمة

فقعدت في مكان قيل عنه إنه كان مهبط جبريل عليه السلام، وأرخي الستر عليها، وقد علمت أن صدر الدين الأصبهاني رئيس الشافعية سيلقي درساً دينياً، وعظة خُلقيه فانتظرت حتى سمعت الدرس، ويقول ابن جبير عن تأثير هذا الواعظ. (٢) إنه أطار النفوس خشية ورقة، وتهافت عليه الأعاجم يُعلنون التوبة. وقد طاشت ألبابهم وذهلت عقولهم!! إلى حديث ممتد يدور هذا المدار، ثم التقت بصاحبتيها وهما يكبرانها سنًا، ولهما جلالة وهيبة، فتنافسن كلهن في إسداء ما بأيديهن من المال على كثرته، وفرح بهن ذوو الحاجات فرحا لا يُحدّ إذ أعطين ما فاق حدّ الآمال، ولعل الأميرة الشابة كانت أكثرهن هبات إذ اختصها الرحالة بوصف جيد.

ولم تقتصر سعادة الحجاج بهن على مكان الحرم الشريف، بل تعدى ذلك إلى طريق الرحلة الممتدة من الحجاز إلى الموصل، فأصبهان، حيث لاذ بهن الحجاج خائفين من هجوم قَطَعَةِ الطريق، وما كان أكثرهم في هذا العهد حيث تمكن الشيطان من نفوسهم فسول لهم إرهاب من سعوا لبيت الله طائعين، فكان موكب الأميرات بكثرة جنوده، وهيبة حراسة، ويقظة أمنائه ستاراً واقياً، وحمى آمنا، وكان ابن جبير مِنْ مَنْ ساروا في ركب الأميرات، وقد وصف استقبال المَوْصليّين للأميرة أم عز الدين وصفا باهراً، حيث جُللت أعناق الإبل ورقاب الخيل بالحرير الملون والقلائد الثمينة، وجُعلت قبة الأميرة مُغشّاةً بسبائك الذهب! «وكان مشهدا أبهت الأبصار، وأحدث الاعتبار».

ونحن لا نحبذ هذا الإغراق المسرف في مظاهر الزينة. ولكننا نتحدث عن أمر وقع، ومشهد سُجل. ناقدين ما به من إسراف.

أميرة مغربية

هي الأميرة الماجدة خناثة بنت الشيخ بكار المعفرى، زوجة سلطان عصره بالمغرب، إسماعيل بن محمد العلوي المتوفى سنة ١١٣٩هـ، وكانت ذات جمال رائع فوقعت من نفس السلطان أجمل موقع، زيادة على اهتمامها بالثقافة الدينية والأدبية معا، مما جعلها موضع الإعجاب والعجب، والغريب أن كتب.

المغرب قد أسهبت في تاريخ زوجها السلطان العلوي فأُفْردت كتب كثيرة لترجمة حياته، وتسجيل وقائعه حيث قام في المُلك ستين عاما، وهو أمد طويل اتسع لأعمال حربية. واتساع عمراني كبير، ولكنها لم تكتب عن هذه السيدة المثالية ما يشفي الغلّة، وظلت سيرتها مطوية حتى ظهر مخطوط للإسحاقي في خزانة القرويين يتحدث عن أمجادها الكثيرة، ومما قاله عن رحلتها إلى الحج ما أنقله عن مجلة المنهل: حيث نقلت المجلة عن مخطوط الاسحاقي قوله (٣).

إنها آثرت أشراف ينبع بعطاياها الفاخرة، وهدايا سنية لم يعرفوها من ذي قبل، وكستهم أنواع الثياب الرفيعة، علاوة على المبالغ النقدية الذهبية الباهظة، كما رُوى عنها أنها أغدقت خيراتها على سائر رجال العلم والفضل بمكة المكرمة ليلة فتح البيت المبارك خصيصاً لها من لدن شريف مكة، الأمر الذي ظل أحدوثة يُنْعت بها المغرب على الدوام» وقد دفعها حب الخير إلى اقتناء عقار بمكة يقع في أشرف بقعة، بما يناهز الألف مثقال من الذهب، حبستها على جماعة من المقرئين والطلبة، وكتبت بذلك حجة للمعنيين بالأمر، وعَينت ناظراً ليسهر على ريع الوقف وتوزيعه».

وقد أنشد شعراء مكة قصائد كثيرة بهذه المناسبة.

وما نُقل عن الإسحاقي سطور تحتاج إلى بسط في عدة صحائف، وقد قال الزركلي في الأعلام (٤) إنها حجّت عام ١١٤٢ فعمت الناس بعطاياها حتى بلغ ما أنفقته في حجّتها مائة ألف دينار، كما ذكر أن لها علماً بالفقه والأدب، وهذا ما جعلها موضع مشورة زوجها السياسية إذ كانت تشاركه على مسرح الأحداث وتُبدي من الآراء ما يكون موضع الاحتفاء والتنفيذ.

ولا أنسى أن أشير إلى رحلة (أم المحسنين) أم الخديوي عباس الثاني إلى مكة، مصاحبة ولدها الخديوي في موكب حاشد، فقد كان لها موكب خاص يحفل بسيدات البيت الحاكم من الأميرات والنبيلات، وبذلت من العطاء ما عناه أحمد شوقي حين قال:

وأُمّ أميـر النيل في الركب هالةٌ
من العز في أترابها الخفرات
أقلت عُلاها في خباء من القنا
هاهوادجُ كالإيوان ذى الشرفات
تجلّ نساء المسلمين ثناء
ويبسطن راح الحمد مبتهلات
أخذْن بتقواها وسرن بهديها
ومنها علمن البّر والصدقات
مواكب لم تُعهد لغير زبيدة
ببغداد في الأعياد والجمعات
أعادت حديث الخيزران وعزها
وما أغدقتْ من أنعم وهبات

إن من الوفاء أن نسجل للفاضلات فضلهن، إذ قُمن به في أشرف مكان، فصدر عن إيمان واثق، وكرم نبيل. وما أشرت إليه في هذا المقال قليل من كثير.

زبيدة زوج الرشيد

إن حديث (عين زبيدة) التي فجرتها السيدة الفاضلة في مكة مما تواتر ذكره، وقد تردد في كتب التاريخ بأسلوبها التقريري، ولكن الأستاذ

عبدالله عفيفي مؤلف (المرأة العربية) قد كتب عنه كتابة حيّة كاشفة حين قال في الجزء الثاني من كتاب (المرأة العربية):

لم يكن لأهل مكة من المناهل إلا المسايل يجودها المطر أحياناً، وبعض الآبار التي تفيض آناً وتجف آناً. فإن جفاهم الغيث عاماً اشتد البلاء.

أما الحجاج فكانوا يحتملون من قرب الماء ما يؤودهم ويوقر صدورهم، وقد أخذ بقلب السيدة زبيدة ما علمت في حجها من أن راوية الماء تُباعُ بدينار! وأن الفقير إنما يتبلغ بما يتساقط من قطرات الغنيّ، فاعتزمت أن تحفر لآل مكة، ولقصَّاد البيت الحرام، نهراً جارياً يتصل بالماء وبمساقط المطر، بالغا من بعد الشقة ووعورة الطريق ما بلغت مساحته!

ولم يسنح بخاطر أحد منذ عهد إسماعيل صلوات الله عليه حتى عهد زبيدة مثل هذا الخاطر الوثاب، خاطر إجراء نهر بين شعاب مكة، بل ولم يتمنَّه متمن، لأنه أبعد من حد التمنى، أما زبيدة التي تحكم على خراج الدولة الإسلامية فقد اعتزمت أن تجري هذا النهر ما بلغت نفقاته.

دعت خازن أموالها وأمرته أن يدعو العُرفاء والمهندسين والعمال من أطراف الأرض، ليُحفرَ النهر فاستعظم خازنها الأمر، وما يُسْتنفد من المال فيه، فقالت له تلك الكلمة الخالدة: اعمل لو كلفتك ضربة الفأس دينارا! فأذعن وساق إلى مكة أهل الكفاية من كل مهندس وعامل، فأخذوا يصلون منابع الماء في شعفات الجبال، ويظاهرون ذلك بما يحتفرون من الآبار، وما يعمقون من المسايل، ثم يغلغلون ذلك بين أعطاف الصخور تارة وفي أعماق الأرض طورا، حتى ينتهي ذلك إلى النهر الذي احتفروه.

وأهم ما اعتمدوا عليه عين حنين في جبال «طاو» إلى الشمال من عرفة، وعلى مدى خمسة وثلاثين كيلو مترا من مكة أعزها الله، ثم ظاهروا ذلك بمجرى آخر، من وادي النعمان، من مسايل جبال كسرى إلى الشرق والجنوب من عرفات على مدى عشرة كيلو مترات منها، وعززوا المجرتين بعد ذلك بسبع أقنية تتبعوا فيها مساقط السيل، فسار ذلك كله في ممر عظيم بين الصخور حتى إذا انتهى إلى «منى» انحدر في خزان عميق نقروه لذلك في الجبل، وسموه «بئر زبيدة» ومن هناك يسير الماء في فرعين، يذهب أحدهما إلى عرفات، وينتهي الآخر إلى مسجد نمرة، ولكيلا يأسن الماء صُرف ما فضل منه من ريّ الظّماء إلى بركة (ماجن) بالمسفلة، وزُرع حولها الزهر الثمر. وهذا العمل الخارق في بابه لا يحتاج إلى تعليق ■

الهوامش :

(١) الرحلة: طبعة د. نصار ص١٦٨.

(٢) الرحلة ٢٢٤.

(٣) مجلة المنهل ربيع الأول ١٤١٣هـ ص٢١٢.

(٤) الأعلام: ج (٢) ص٣٢٤.



أسطر في الفن والإبداع والكلمة المنتقاه.. نستخرجها من صفحات (المنهل) عبر عقوده الماضية.. نعيد قراءتها معاً.. نستعيد بها إبداع السالفين ممن مضوا.. والباقين ممن احتضنت المنهل أقلامهم.. ما أروع وأبدع وأجمل أن يقلب المرء صفحات ظنها طويت، وكم تكون القراءة الثانية أعمق دهشة من الأولى.







منهل الطلبة

يصدر مرة في كل شهر عربي

مدير المجلة

حمزة إبراهيم فودة

رئيس التحرير

سعود عرابي سجيني

رئيس التحرير المساعد

محمد سعيد طيب

كلمة العدد:
لسعود سجيني

لقد حرصت هذه المجلة على أن يبرز فيها مدى نشاط كتابها على التحرير والإنتاج القيم .. ليظهروا فيها بمظهر رفيع يليق بهم فهي لا تظهر إلا وقد ازدانت بموضوعاتهم الشائقة التي تشمل شتى نواحي الحياة فهي مجال واسع لكل من يجد في نفسه الكفاءة ليحرر، ولا يتخيل أحد أنها مركزة أو محصورة في طلاب مدرسة أو اثنين بل هي للجميع.. وقد جعلنا هذا العدد خاصاً بالقصة وتركناه ميدانا لتسابق الأقلام وإظهار مدى ما وصلت إليه في كتابة القصة وفي هذا العدد أيضاً ترون سعة تفكير الكتاب فلقد تناول كل منهم موضوعا وكتب فيه قصة ولا شك أن هذا مم يبشر بأن سوف يكون لدينا كتاب بارعون في القصة إن شاء الله ".

العدد الثامن
السنة الثانية
رجب ١٣٧٤هـ

حكمة العدد

من هنا شع للحقيقة فجر
من قديم ومن هنا يتجدد

وفاء لقيط:
لمحمد سعيد طيب

على بساط الرمل المنشور كأنه الابد وجده ضالاً، فأخذه إلى منزله ورباه خير تربية حتى صار فتى فاضلاً ثم شاء القدر أن ينقذ الفتى مربيه من بين براثن الموت في حادث.. وهكذا أدى كلاهما واجبا.. وكان كل منهما سبباً في حياة الآخر".

كان هذا قبل بضع عشرة سنة تقريباً حينما رغب أحد العظماء في أن يقوم برحلة خلوية إلى الصحراء للتمتع بمشاهدة جمالها ومناظرها الفاتنة واستجماما من عناء العمل ومشقته فأعد العدة وامتطى صهوة جواده وقصد الصحراء.

ثم ترجل عن فرسه وربطه في جذع شجرة وأخذ يتجول في الصحراء بقدميه يمتع ناظريه بمشاهدة جمالها ومناظرها الخلابة.

وصعد إلى إحدى الروابي المتناثرة في تلك الصحراء الواسعة، وجلس عليها وراح يستمتع بمشاهدة منظر الشمس وهي ترسل اشعتها الذهبية من وراء المستنقعات والجبال مؤذنة بالاحتجاب عن أعين النظار.

وكان مأخوذاً بمنظر الكون وجماله الفاتن وظل على حالته تلك لا يدري أنه قد طال به المقام، وبينما هو على تلك الحال وإذا بصوت رقيق ينساب إلى

اذنيه آتياً من ربوة قريبة فاستوى على قدميه واتجه إلى الربوة فوجد عليها طفلاً يبكي وهو بعد لما يحب إلى النور وقد اخترمه الظمأ وانهك جسده الجوع فرفعه بين ذراعيه وذهب به إلى منهل وأخذ يعطيه قليلاً منه حتى توقف عن البكاء ثم حمله على متن جواده حتى نزل به بين أهله وذويه وقد كانوا ينتظرون اوبته في شغف وشوق. ولكن سرعان ما تلاشت البسمات في الشفاه فاستقبل بسيل من الأسئلة والاستفسارات عن هذا الطفل الذي جاء يحتضنه وكأنه يخشى عليه هبوب الرياح وخاصة زوجته.

وأخذ يقص عليهم قصته ليقنعهم أن الطفل طفل لقيط.. ومضت الأيام سراعاً وقد أصبح الطفل متبنى لذلك السيد وأدخله المدرسة وعنى به ورباه خير تربية ثم الحقة بعد ذلك بالجامعة فأخذ يتزود من مناهل العلم حتى أصبح شاباً سوياً مثقفاً متسما بالروح العلمية متحلياً بالأخلاق الكريمة له مكانته بين أهله ومواطنيه..

وكان مربيه قد بلغ من العمر عتيا وأصبح رجلا عاجزاً لا يقدر على العمل والمشي والحركة.

وتلتهم النار دار المربي وما فيها وكان السيد الذي اقعده الزمن قابعا في غرفته مقعداً لا يستطيع القيام.. فما كاد الشاب الذي عاش على نبله يشهد هذا المنظر حتى اتقدت فيه الجرأة واندفع مستهينا بالموت الفاغر، ورمى على جسده غطاء سميكا يرد عنه سطوة النار الغشوم وأخذ يشق طريقه بين براثنها قاصدا غرفة سيده فتقدم إليه وانتشله من النيران التي كادت تعم غرفته..

وخرج به مسرعاً نحو الباب وهكذا استطاع الشاب لقيط الأمس أن ينقذ حياة سيده من حادثة كادت تودي به فرد الجميل لصاحبه لقد كان كل منهما سبباً في حياة الآخر كما قال الشاعر :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

لا يذهب العرف بين الله والناس.



حديث اليراع

لهاشم عبده هاشم

☐ ما أكثر ما يحدث اليراع صاحبه.. وما أقل ما يطرب منه..

هل نحن في أسطورة:

قديم.. جديد.. يعني شيب وشباب.. كلاسيكي ورومانسي.. يعني قديم وجديد - نفس الأمر.. ونفس الأسلوب ونفس النغمة.. ونفس الأصداء.. بفارق بسيط هو أن الأول كائن حي متفاعل وأن الأخير مجرد تسميات.. "لأدب اليوم والأمس" أي ثمة مفارقة بين أدبين أو بالأحرى أديبين.. فالكلاسيكي يكنى به القديم.. بينما الرومانسي هو مذهب أدب تجديدي يعتنقه رواد التجديد.. ويؤمنون به..

ماذا؟.. أتراهم نسوا تراثهم..

ذلك ما حدث.. ولكن..

ولكن هذه ذات أثر ووقع.. يجب أن ندعها تعوم في يم المجددين طويلاً.. ولنسائل اللب غير مرة.. وبمن يأترى تأثروا..

والجواب.. جواب "المجددين الشباب" إنما يعتمد على ملابسات كان لها تأثير في حياتهم.. كنعتها فوارق الزمن وظروف الحياة وأساليبها الجديدة عن ذي قبل..

فالزمن غير الزمن الذي قيلت فيه المعلقات والظروف - ظروف الحياة غير ظروف عصر الهجاء والرثاء والمدح

والتفاخر - حتى لكأن الشاعر قطرة من فيض السماء تفيض على قومه سعادة ويمنا وهذه غاية الحفاوة بالشعر ونابغيه - والعلة أن هذا القادم الجديد سيدرأ عن القبيلة هجاء أعدائها ويرفع رأسها ويتغني بأمجادها - فهل في عصرنا ما يومئ إلى هذا أو يمت - وهذا تساهل ما بعده تساهل فترت به الأسباب فمهد للحياة الجديدة هذا الابتكار.. الابتكار الذي يواكب العصر في انطلاقته وصواريخه وسرعته.. مما لا يوجد رابطاً بين التمسك بالقديم والسير في ركاب الموكب.

إلى هنا لم نتبين ما نريد بحق.. فالسؤال هو بمن تأثر هؤلاء المجددون.. وكأنه لا مناص ولا هروب من الجواب.. فليكن ما يكون.. ليكن الجواب بالنسبة لمن يجيدون أساليب الدفاع عن نهجهم لأنهم ما آمنوا به عن هوى وطيش.. وربما تكون قد كستهم النزعة المهجرية التحررية.. الرومانتيكية.. وجواب هؤلاء تعجباً.. ماذا؟.. أمن المهجر وفد علينا هذا المذهب؟ ونجيبهم: وهل تظنون غير ظننا؟ وفي تلك العجب لصاحبه يكون ردهم لا.. لا.. لم نتأثر كلية بأبي ماضي ونعيمة والياس بل تأثرنا بمن عايشونا على أديم شرقنا أمثال المجددين "على محمود طه.. نزار قباني.. ونازك الملائكة".. وإن لم تصدقوا.. فستصدقون حين نقدم لكم نماذج لهؤلاء.. نماذج يسيرة .. ولنعرف أمن المهجر استقينا تجديدنا أم من ضرورة الحياة التي تحيط بنا.. إذن لنسمع "شاعر الجندول" يناجي هذه "الطبيعة" الحالمة:

"قلت: لا تعجبي! فما أنا إلا
شبح لج في الخفاء الوثيق
أنا، يا أم، صانع الأمل الضاحك
في صورة الغد المرموق
صفته صوغ صانع يعشق الفن
ويسمو لكل معنى دقيق

من هنا(!!)

ستنظر أي صعوبة تعتور الفهم في هذا الأسلوب السريع الشريف المحافظ.. ولنتبين شيئا (لنزار) هل فيه عصيان الفهم؟ لنرى طارف شعره :

حييت يا شباكها الملفوف بالبنفسج
أصبحت ديرا للشحارير ومأوى العوسج
بسورك الرحيم أسراب السنور تلتجي
ياجنة على السحاب غضة التأرج
ياضاحك الأستار ذات اللين والترجرج

ويكفينا مؤونة ذكر ما ورد.. ثم .. ثم .. يعذر هؤلاء مسلكنا.. ربما لأننا نؤمن بجدواه وتمشيه مع عصرنا

إلى هنا أبرزت أراء أصحاب التجديد موجزة.. وأخاف أن يرتاب القارئ من مسلكي فيظنني صاحبه.. لا .. ياصاح.. لا .. فإن ثمة رأيا أمتلكه في هذه اللجة الهوجاء - فإنه اللامبالاة- ولا ضير علينا من هذا الجديد.

ولا يهمنا تياره بقدر ما يهمنا تركيز جهودنا في ابراز شعر يرتبط وينبع من أعماق القافية الخفيفة والوزن والتيقظ السريعين .. ويتمشى وظروفنا التي تتأثر بالزمن ونعيش له.. فإن فعلنا وتركنا المركب الجديد يسرى في عبابه . فان موكبنا بشأنه وقوة حجته.. وضخامته سيغمر المركب ويبتلع من به.. ويأتي على المقتفين آثاره.. ومتى يكون ذلك؟.. حينما نكون مجددين أكثر تعمقا في التجديد والواقع موغلين في الحقيقة المجردة من أي عاطفة تمت إلى القديم كله أو تثور على الجديد كله.. ولندع الصراخ والكلام الأهوج فهما لا يجديان.. فلو ندخر الوقت والجهد. بحثا عن الحقيقة الضائعة.. فسنكون حينئذ أكثر صدقا وتعبيرا وفعالية.

غير أنني وأنا بهذه الحالة من التأثر بالقديم أقدر نتاجا تحرريا جديدا ـ بما في كلمة الجدة من معنى .

ـ فثمة الجيد من الجديد وهو نزر تضؤل نسبته كهذا القول مثلاً:

أتهزئين بي؟
وأنت وقدة الأسى
في الروح تهزئين بي؟
وأنت دمعتي تئز في دجى الليالي
تحرقها كآبة الصقيع
دامية الموال
راعشة الأنين
كأنها حنين
يموت قبل أن ترى عيونه الصباح..الخ .

أخـال من هذا أن نمونا الفكري أو أصـيل ذوقنا سيضيق ذرعا بهذه الخزعبلات حينما يفتح صدره لجيد النغمة والموسيقى الخفيفة.. ولنا في آراء (كبار مفكرينا) قدوة تومض السبيل أمامنا لنتبين أين نحن من الواقع الصحيح..

لنقرأ رأي أستاذ جيلنا عبد القدوس الأنصاري في هذا التجديد الرفيع منه.. لنقرأ بإنعام: «فللشعر أن يتحرر، وله أن يتغير في الأساليب والأوزان والقوافي ، فلم يرد إلينا نص مقدس بضرورة التزام قوافي الشعر العربي وأوزانه طيلة الأبد، وقد غير الأندلسيون من هذه الأوزان وهذه القوافي تغييرا مشاهدا في موشحاتهم المعروفة، فما كان ذلك – موضع ـ استنكار ولا امتعاض والمسألة مسألة تطور، ومسألة الإبقاء على جزالة الشعر ورقيه مع التزام الفصاحة وعدم الركاكة أو التبذل أو الإسفاف أو الإخلال بالبيان» (١) هذا هو الرأي الصائب الذي يجب أن يحل تخبطنا في عشواء لا منتهى لها.. ولكن هذا التجديد- النوع السامي الرفيع منه لم يكن في يوم من الأيام قد نسى تراثه.. فكان وفقما أنشد شوقي رحمه الله:

ومن نسى الفضل للسابقين
فما عرف الفضل فيما عرف
فلا تجمدن يد الغارسين
وهذا الجنى في يديك اعترف

ولكن لنعمد الى تلبية نداء شوقي رحمه الله أيضاً :

ودعوا التفاخر بالتراث وان غلا ..
فالمجد كسب والزمان عصام
ان الغرور اذا تملك أمة
كالزهر يخفى الموت وهو زؤام

ولنعمد الى إضفاء شيء يضيف إلى التراث القديم تراثا جديدا كما قال الرصافي:

وخير الناس ذو حسب قديم .. أقام لنفسه حسبا جديدا

وبعد كل هذا ألا يحق لنا أن نعرف رأي عميد الأدب العربي في هذا الموضوع.. إذن لنقرأ: "وليس على أحد حرج من التجديد في الشعر – أوزانه وقوافيه. وقد جدد القدماء من العرب في شعرهم فابتكروا في الإسلام أوزانا لم تكن في العصر الجاهلي وابتكروا في العصور المتأخرة أوزانا لم تكن في الشعر الإسلامي الأول وصنعوا بالقافية مثل ما صنعوا بالوزن (٢) ثم ماذا بعد؟

بعد هذا رأي أخير نختتم به مجموعة هذه الاستدلالات على ضرورة التجديد في عصرنا.. وهذا الرأي للعميد العملاق مرة أخرى.. انه يقول : (فليس على شبابنا من الشعراء بأس فيما أرى من أن يتحرروا من قيود الوزن والقافية إذا نافرت أمزجتهم وطبائعهم للفوارق العديدة (٣) ولا يطلب إليهم في هذه الحرية إلا أن يكونوا صادقين غير متكلفين وصادرين عن أنفسهم غير مقلدين لهذا الشاعر الأجنبي أو ذاك ومبدعين فيما ينشئون غير مسفين إلى سخف القول أو ما لا غناء فيه (٤).

رأي صائب ومطلب كريم لا نرى المجددين الحقيقيين إلا مستمسكين به متبرئين ممن بنوا هذه القواعد الواهية للشعر الحر الهزيل الذي نقرؤه اليوم.. وقالوا إنهم شعراء.. والشعر الجديد منهم براء.

وبعد هذه الاطاله أقول انني انما حاولت بها أن أعرض مجموعه آراء في موضوع اليوم موضوع الشعر الحر ولعلي أكون قد شفيت شيئا من غليل الأخ الأديب (باهادون) حيال ما نشره بعدد المحرم وصفر سنة ١٣٨٠هـ من المنهل وشكرا له وللمناسبة ■

الهوامش :

(١) مجلة المنهل، المجلد الثامن عشر لشهر المحرم ١٣٧٧هـ ص ٥٨ .

(٢) كتاب "من أدبنا المعاصر" لطه حسين ص ٣٣، ٣٥ – ٣٦ .

(٣) تعليقي.

(٤) من نفس الكتاب ولنفس المؤلف.

مسك الختام

ثلاثية عالمية..

محمد حمد الصويغ

- السعودية -

□ الحديث عن "ثلاثية" أديبنا الكبير نجيب محفوظ (رحمه الله) ذو شجون فقد استطاع الرجل بذكاء وفطنة ملحوظين أن يجمع في هذه الأعمال الروائية المتكاملة بين الكفاح والعاطفة أو بين الوطنية والحب، وهذا الجمع يتضح من خلال تحريكه الدرامي لشخصيات رواياته التي مهدت دون شك لحصوله على نوبل، أو كانت سببا من الأسباب التي أدت لحصوله على تلك الجائزة الدولية الرفيعة إن صح الظن.

ولعل من الملاحظات التي ترد في هذا السياق أن الاندماج الذي يكاد يكون مطلقا في (ثلاثية) محفوظ بين التأليف والسرد يكاد يكون واضحا بينا بحيث يمكن القول أن الكاتب استطاع عن جدارة نادرة أن يجمع التاريخين الخاص والعام في مواقف متعددة تكيفت مع الواقع المعاش للمجتمع المصري وقتذاك.

من جانب آخر محفوظ بما يملك من أدوات فنية رائعة استطاع إلى حد ما أن يوظف هذه الأدوات أو الوسائل لتشكيل أعماله الدرامية من الداخل في "الثلاثية" بالذات، وقد أحسن الرجل بادخاله "المنولوج" في هذا العمل الروائي الجيد بطريقة أكسبت هذا العمل بُعداً "محلياً" رائعاً.

ورغم أن محفوظ غرق "حتى أذنيه" إن جاز القول في المحلية إلا أن من الملاحظ في "زقاق المدق" إنه استخدم معظم مخزونه من التراث العالمي في الرواية ليقوم بإدخال "تحديث" جذري في هذا العلم، وقد نجح في هذا التحديث إلى حد كبير، ويبدو من وجهة نظري الخاصة أن محفوظ لجأ إلى هذا التحديث من باب "الضرورة" لاسيما إذا علمنا أن الشكل في جل أعماله ليس هدفاً مقصوداً يسعى إليه، وإنما هو يبحث عن المضامين الجيدة التي تتسق مع الابنية الجيدة لأعماله الفنية الإبداعية المتميزة.

ويحق لي هنا أن أطرح هذا التساؤل:

- ما هو معيار "العالمية" أو معيار الانتشار في روايات محفوظ وأهمها "الثلاثية"؟.

اعتقد أن ذلك يعود إلى قدرة الكاتب على خلق مناخ جيد اتاح للقارئ الغربي أن يكون توافقا بين رواياته كأعمال شرقية صرفة وبين محتوياتها الاجتماعية بمعنى أن المؤلف استطاع بنجاح أن يتعامل مع الكتابة على أساس أنها لغة "قاموسية" وموضوعها واقعي محلي، وهذا يؤكد مجدداً أن تقنيات الرواية لا توجه عادة إلى مجتمع بعينه، ولكنها ملك للجميع.. وهذا سبب وجيه آخر من أسباب حصول أديبنا الكبير على جائزته الدولية الرفيعة، فهو حول هذا المعنى يقول: "لدي صوتي.. وهو صوت له ايقاعات، يمكن التعرف عليها.. ولكنها لا تشبه غيرها.. وإذا جاز لنا أن نقول أن الشكل أو الجنس قد تم استيراده، فهذا لا يمنع أن لدينا حكاياتنا".

وكأني به أراد أن يقول في هذه الكلمات القصار: أنني أكتب للجميع ولا أكتب لفئة معينة من الناس، وهذا يعني أن "مسحة إنسانية" تطغى على كافة رواياته، وليس على "الثلاثية" فحسب، وهي مواقف متعددة متباينة، ربما اتضحت بعض معالمها "بين القصرين" حيث نلمح اتحادا عضويا بين الحرية الشخصية للفرد وبين عالمه المليء بالتقاليد كما هو الحال مع لقاء "ياسين" مع امه بعد فراق دام أحد عشر عاماً منذ طلاقها من أبيه.

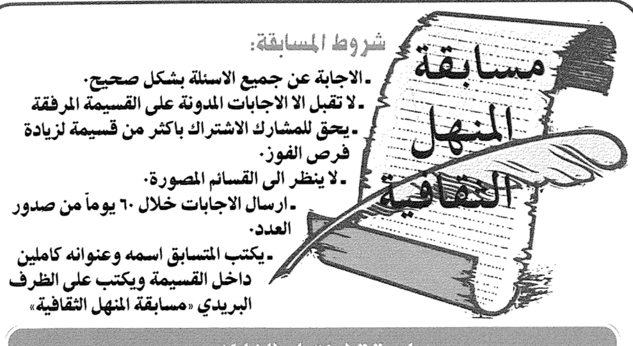
هذا "الاتحاد العضوي" الذي اشرت إليه يكمن في قدرة الكاتب على تطويع الصورة المرسومة للأم في ذهن "ياسين" طيلة تلك الفترة، حيث استطاعت هذه الصورة المثالية أن تزرع الثقة والاطمئنان في قلب الابن الذي صبر على الفراق طيلة تلك السنوات، وهو يمني نفسه بلقاء أمه بين لحظة وأخرى.

وهو موقف إنساني رائع قد يحدث في كل مكان يمثل شكلاً من أشكال "الانفصام الاجتماعي" إن صح القول، وهو انفصام سائد في كل المجتمعات، فالإنسان في "الثلاثية" كما يتجسد في أكثر من شخصية هو إنسان "منفصم" تتقاذفه عدة تيارات متباينة.

ولعلنا نلحظ أن محفوظ بتحريكه لشخصيات "الثلاثية" أراد الوصول إلى مرحلة "المكاشفة" المباشرة من خلال ازدواجية الإنسان، أي من خلال "النفاق" الاجتماعي إن صحت العبارة، وهو نوع من أهم أنواع الحلول التي أرادها الكاتب للوصول إلى "تعرية" المجتمع وإظهار ه على حقيقته، تماماً كما حدث "بين القصرين" حينما اكتشف "ياسين" حياة أبيه "المزدوجة".

والكاتب من خلال "ثلاثيته" استطاع بذكاء الماهر الحاذق أن يكشف المراوغات "الواقعية" للإنسان، وهي مراوغات لا يشترط سريانها داخل مجتمع بعينه، لأنها قد تحدث في كل مكان، فالمؤلف هنا بهذا الكشف يسدل على شخصياته أبعاداً إنسانية واضحة، وهذا يعني بطبيعة الحال أن الكاتب تمكن ببراعة من "تشريح" الإنسان إن جاز التعبير تشريحاً جيداً، وتمكن ببراعة كذلك أن يغوص في أعماق مجتمعه ليستخلص لنا تلك الصور الواقعية التحليلية التي جاءت في تضاعيف "الثلاثية" وهي صور ذات أبعاد إنسانية مختلفة.

اخلص من هذا كله إلى القول بأن "الثلاثية" تمتعت ببعدين اثنين هامين أولهما البعد "المحلي" حينما غرق الكاتب في واقعه المصري غرقاً واضحاً تجلى من خلال مواقف شخصياته المختلفة، وثانيهما البعد "الإنساني" الذي اتضح من خلال "تشريح" الكاتب للإنسان من داخل أعماقه، وهو تشريح لا ينسحب على المجتمع المصري فحسب، وإنما على أي مجتمع في أي مكان، فرسالة "الثلاثية" هي رسالة إنسانية صرفة رغم واقعها المحلي ■



شروط المسابقة:

- الاجابة عن جميع الاسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل الا الاجابات المدونة على القسيمة المرفقة
- يحق للمشارك الاشتراك باكثر من قسيمة لزيادة فرص الفوز.
- لا ينظر الى القسائم المصورة.
- ارسال الاجابات خلال ٦٠ يوماً من صدور العدد.
- يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملين داخل القسيمة ويكتب على الظرف البريدي «مسابقة المنهل الثقافية»

طريقة اختيار الفائزين

- تفرز جميع القسائم التى ترد من المشاركين.
- يتم استبعاد القسائم ناقصة الاجابة.
- تجمع القسائم الصحيحة الاجابات ويعمل لها قرعة لاختيار الفائزين.
- ترسل الجوائز الى اصحابها فور الوصول الى النتيجة وتدفع بالريال السعودي او ما يعادله.

جوائز المسابقة

الجائزة الاولى :	١٠٠٠ ريال	الجائزة السادسة:	٣٠٠ ريال
الجائزة الثانية:	٧٠٠ ريال	الجائزة السابعة:	٢٥٠ ريال
الجائزة الثالثة:	٥٠٠ ريال	الجائزة الثامنة:	٢٠٠ ريال
الجائزة الرابعة:	٤٠٠ ريال	الجائزة التاسعة:	٢٠٠ ريال
الجائزة الخامسة:	٣٥٠ ريال	الجائزة العاشرة:	١٥٠ ريال

الاسم : .... السن: ....

العنوان : ....



نتيجة سحب جوائز مسابقة المنهل الثقافية

نتائج العدد ٦٠٢

لطفاً رجاء كتابة رقم المسابقة على الظرف

الفائــــزون :

الجائزة الأولى : أمل سعيد العابد - السعودية.

الجائزة الثانية : نجاة محمد يوسف - المغرب.

الجائزة الثالثة : حسام إسماعيل الحسن - الاردن

الجائزة الرابعة : حسن سعيد المزرع - السعودية .

الجائزة الخامسة : لؤى خالد عتيق - السعودية.

الجائزة السادسة : صباح حسني طاهر - مصر.

الجائزة السابعة : ربيع علوى المحمد - المغرب.

الجائزة الثامنة : عبدالغني عبدالرحمن محمد - مصر.

الجائزة التاسعة : لطفي سعيد التونسي - تونس.

الجائزة العاشرة : وديع صالح الفستق - سوريا.

ترسل الاجابات خلال ٦٠ يوماً من صدور العدد

ستنشر نتائج مسابقة المنهل الثقافية العدد (٦٠٣) في العدد (٦٠٥) .. وذلك لاتاحة اكبر فرصة للمشاركين.

قسيمة مسابقة العدد (٦٠٤)

ضع علامة ✓ امام الاجابات الصحيحة..

١- انشئت مدينة الفسطاط في :

☐ مصر ☐ تونس

٢- ولد الشاعر السعودي محمود عارف في :

☐ مكة المكرمة ☐ جُدة

ابحث عن الإجابات داخل هذا العدد..



دارة مجلة المنهل ، ومنسوبوها يتشرفون
برفع أسمى آيات التهاني وأجمل عبارات الأماني
بمناسبة حلول عيد الأضحى المبارك إلى

مقام خادم الحرمين الشريفين

الملك عبدالله بن عبد العزيز آل سعود (حفظه الله)

وإلى صاحب السمو الملكي

الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود (حفظه الله)

ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران
والمفتش العام

وإلى حكومتنا الرشيدة.. وأبناء وطننا الغالي..
سائلين الله عزّ وجلّ أن يعيده على الجميع باليمن والخير والبركات.

المنهل
مجلة للآداب والعلوم والثقافة

مع تحيات .. دارة المنهل للصحافة والنشر المحدودة